وزارة التربية والتعليم

الدولة الإسلامية

تاريخها وحضارتها

تأليف

عبد الحميد العبادى   محمد مصطفى زيادة   ابراهيم أحمد العدوى

طبع بالقاهرة

بمطابع المصرى تحت الحراسة

١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

اختارت وزارة التربية والتعليم لهذا الكتاب لجنة من المؤلفين قل أن يجتمع مثلها لكتاب مثله ، أو أن يجيء تشكيلها على نحو ماجاءت عليه من الصدفة الحميدة . فالاول من هذه اللجنة استاذ للثانى فى المرحلة الثانوية من التعليم سنة ١٩١٤ م ؛ اى اوائل الحرب العالمية الاولى ، والثانى أستاذ للثالث فى مرحلة التعليم الجامعى ، سنة ١٩٤٥ م ، أواخر الحرب العالمية الثانية ، وبينهم صلة علمية متينة لطيفة الخيوط ، وتفاهم فكرى وثيق العروة ، وهم جميعا مشتغلون بتدريس التاريخ فى الجامعات المصرية ، مدة سنوات متفاوتة الطول والتجربة . ثم ترتب على توزيع العمل بين المؤلفين الثلاثة شيء من التنوع ، من حيث غزارة المادة ومستوى الاسلوب ، فى مختلف أجزاء الكتاب ، وهو مما لا بد منه فى انتاج مشترك بين ثلاثة اجيال من المشتغلين بدراسة التاريخ والتأليف فيه وتدريسه ، مع ما بينهم من تكامل وتوافق وفهم للتاريخ .

ومن اجل اعداد هذا الكتاب للمطبعة عينت وزارة التربية

والتعليم كاتب هذه السطور القليلة ، وذلك بموافقة زميليه في التأليف ، للقيام على هذا العمل الذى تطلب بطبيعته بعضا من تعديل المادة بالتبسيط والاختصار والحذف والاضافة ، وبعضا من تقريب المستوى الاسلوبى كذلك ، حتى يتيسر للقارىء السير فى الكتاب كله على سجية واحدة . واستقام ذلك فى سهولة باتباع النغمة الوسطى فى جميع أجزاء الكتاب ، وأرجو ألا أكون أسأت تأدية هذه المهمة الدقيقة ، نيابة عن نفسي وزميلى فى التأليف .»

وسوف يلحظ القارىء أن الدولة الاسلامية ـ موضوع هذا الكتاب ـ وحدة تاريخية ، هى فى ذاتها جزء من التاريخ العام ، وليس التاريخ العام جزءا منها ، وبين هذا الجزء الاسلامى وسائر أجزاء التاريخ فى الشرق والغرب ، وفى السابق واللاحق من العصور التاريخية ، تماس احيانا ، وتداخل احيانا اخرى ، وتقاطع أحيانا ثالثة ، سواء فى الخير أو الشر ، أو ما بينهما من نوازع بيولوجية حيوية .

ومع أن هذا الكتاب ليس تاريخا سياسيا للدولة الاسلامية ، أو سجلا مفصلا لمراحل الفتح والنصر والتوسع والتطور ، فاساسه أن التاريخ الاسلامى وحدة ، اقسامها الطبيعية عصر النبوة والرسالة ، وعصر الخلافة الصحابية ، وعصر الخلافة الوراثية السياسية منذ قيام الأمويين الى سقوط بغداد ، وعصر الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق والغرب ، وهذا كله فى العصور الوسطى وفقا للتقسيم التقليدى للتاريخ . ثم يتلو ذلك عصر الدولة

العثمانية ، ثم عصر النهضة العربية الحديثة الذى يمتـد الى الحاضر والمستقبل . ويبدو واضحاً أن هذه الاقسام أكثر انطباقا على الواقع والمنظور التاريخى من غيرها من الاقسام الجارية فى تدريس التاريخ فى العالم الاسلامى .

ولذا اتجه المؤلفون الى الامعان فى شرح العوامل المختلفة التى دفعت المسلمين الاولين الى التوسع ، وانتشار الاسلام واللغة العربية ، وتطور الدولة الاسلامية وحكومتها المركزية والاقليمية . وأعقب ذلك فصل خاص بالحضارة الاسلامية فى ازهى عصورها ، مع بيان المؤثرات الاجنبية فيها ، ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية فى المجتمع الاسلامى ، وبيان المؤثرات الحضارية الاسلامية بدورها فى الحياة الفكرية والاحوال الاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوربا ، مما هو أجدى على الطالب من أخبار الحروب والمعارك والانتصارات فى ميادين القتال .

ثم طرأت على الدولة الاسلامية عوامل الاستقلال الاقليمى ، وتوزعت الحركة الذاتية بين المسلمين فى أشتات البلاد ، وتفرعت الحضارات والثقافات الاسلامية ، وهذا هو الفصل الثالث من الكتاب . وبينما تسرى الحركات الاستقلالية الانفصالية فى أقاليم الدولة الاسلامية ، وتؤدى الى قيام دول متعددة بين سنية وشيعية متنافرة ، ظهرت دولة السلاجقة التى أعادت وبعثت النشاط التوسعى الاسلامى على حساب الدولة البيزنطية المسيحية ، وأخافت الدول الاوربية جميعا من جديد ، وذلك حين بدأت هذه الدول الاوربية فى الاستقرار والنهوض والطموح

الخارجى . ومن هنا جاءت الحروب الصليبية ، وهى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

والمعروف أن الجيوش الصليبية وجدت بلاد العالم الاسلامى فى تفكك صارخ ، والدول الاسلامية المستقلة فى الشرق الاوسط فى انحلال بالغ سن اليأس ، بعد زوال شخصيات الدولة السلجوقية وعوامل استمساكها . غير أن هذه الحروب الصليبية بعينها خلقت روحا من المقاومة الاسلامية المتحدية للصليبيين ، وما لبثت هذه الروح أن انجبت فكرة توحيد الجبهة الاسلامية ، كما أنجبت شخصية صلاح الدين الأيوبى واسلافه واخلافه فى شمال العراق والشام ، ثم فى مصر التى استطاعت ان تنهض بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد المسلمين عامة . واستطاعت فئة الرجال الذين اقتلعوا الصليبيين من معاقلهم بالشرق أن يوقعوا الهزيمة كذلك بالمغول وجنودهم ، لأول مرة فى تاريخهم التخريبى ، وذلك برغم ما قام به أولئك المغول من ازالة الخلافة العباسية فى بغداد . ونتج عن ذلك كله ان صارت مصر مركز العالم الاسلامى ؛ ومقر الخلافة العباسية ، وقبلة أنظار المسلمين من مشارق الارض ومغاربها ، وأضحت القاهرة موئل العلماء وقادة الفكر من مختلف البلاد الاسلامية .

ويختتم هذا الكتاب بفصل فى تكوين الدولة العثمانية التى غدت محور الارتكاز فى العالم الاسلامى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، بعد أن استولت على الشام ومصر والعراق واليمن

والحجاز ، ونقلت مقر الخلافة الى القسطنطينية على شاطىء البوسفور فى أوربا . غير ان هذه الدولة العثمانية الاسلامية اعتراها الفساد الداخلى ، فأخذت تنكمش رويدا رويدا ، على حين اخذت الدول الاوربية المجاورة تزداد مساحتها على حساب العثمانيين انفسهم . ومع هذا لم يفقد الاسلام قوته الذاتية ، بدليل انتشاره — فى غير حرب أو سيف أو عنف — الى بلاد مترامية الاطراف فى أقصى الشرق الاقصى ، وجوف افريقيا ، وهو فصل الختام فى هذا الكتاب الذى ينتهى بخريطة توضيحية للعالم الاسلامى فى العصر الحاضر ، وهى واحدة من بضع خرائط توضيحية فى فصول الكتاب ، لمساعدة القارىء على تصور الدولة الاسلامية جغرافيا فى عصورها المختلفة .

ورغبة فى تيسير هذه المساحة التاريخية الواسعة على الطلاب ، استأذنت زميلى فى تأليف هذا الكتاب فى عرض أجزاء منه على بعض تلاميذى المشتغلين بتدريس التاريخ فى مختلف مراحل التعليم ، للتأكد من ملاءمة مادته ومستواه للغرض المنشود به . وهؤلاء هم الباز العرينى المدرس المنتدب بقسم التاريخ بجامعة القاهرة ، وعبد الشافى غنيم المدرس الاول بمدرسة مصطفى كامل الثانوية ، ومحمد احمد الغنام المدرس بمعهد التربية للمعلمين بجامعة عين شمس . وآخرهم هو الذى أعاننى كذلك على قراءة الكتاب كله اكثر من مرة أثناء اعداده للمطبعة ، وفى هذا التنويه بمثابرته معى شكر منى اليه يفوق ما جرى العرف على تسجيله

اقرارا بجميل معونته ، نيابة عن المؤلفين . وأود هنا — نيابة عن المؤلفين الثلاثة كذلك — أن أشكر القائمين على شئون مطابع المصرى تحت الحراسة ، من هيئة الادارة والعمال ، عنايتهم باخراج هذا الكتاب فى اتقان ملحوظ وسرعة فائقة .

وبعد هذا يرجو المؤلفون الثلاثة أن يكون هذا الكتاب عند المستوى الملائم للطالب والقارىء العام ، وأن يهديهم نقد الناقدين الى ما فيه من مواضع الاضافة او الحذف او التعديل اوالتيسير ، وهو ما سوف يرحب به المؤلفون من القارىء الخاص والعام ، أملا فى الوصول بالكتاب الى مايتطلبه الوعى الشرقى الجديد والنهضة المصرية المتوثبة من غذاء تاريخى ناضج سليم .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة
نوفمبر سنة ١٩٥٤ م
ربيع الاول سنة ١٣٧٤ هـ

محتويات الكتاب

الفصل الاول

نمو الدولة الاسلامية

الفصل الثانى

الحضارة الاسلامية فى أزهى عصورها

الفصـــل الثالث

الحركات الاستقلالية فى الدولة الاســلامية

(ص ١٦٩ — ٢٣٨) .

نشـــاة الفرق الاســـلامية أثـــرها الســـياسى والاجتماعى — عوامل التفكك — قيام الدول المستقلة — الاندلس — الحضارة الاسلامية الاندلسية — مصر — الحضارة الفاطمية والملوكية . فارس والعراق ؛ بنوبويه السلاحقة ؛ الحمدانيون فى الموصل والشام — علاقتهم بالبيزنطيين ، الاسلام فى الهند — المغل .

الفصـــل الرابع

العالم الاسلامى بين الصليبيين والمغول

(ص ٢٣٩ — ٢٩١) .

أهمية العالم الاسلامى : الموقع — طرق التجـــارة — تنوع الموارد — الاماكن المقدسة — الحروب الصليبية : الدعوة اليهـا والعناصر المسيحية التى أسهمت فيها : الكنيسة — الاقطاع — الامارات البحرية الايطالية — ضعف الدولة البيزنطية — تكوين الامارات اللاتينية فى الشرق — حركة الجهاد الاسلامى وأدوار الكفاح — طرد الصليبيين من الشرق الاسلامى . أثر الحروب الصليبية فى الحضارة الاوربية . غارات المغول : موطنهم — اهم فتوحهم شرقا وغربا — سقوط بغداد — جهود مصر فى صـد المغول — الدولة المغولية .

الفصـــل الخامس

الدولة العثمانيــة

(ص ٢٩٢ - ٣٤٦) .

الترك والاســلام ـ تأسيس الامارة العثمانية ـ اتســاعها وفتوحها فى أوربا ـ انضواء العالم العربى تحت الحكم العثمانى ـ نظم الحكم فى الدولة والولايات ـ الحركات القومية قبــل القرن التاسع عشر الميلادى .

الفصـــل السادس

انتشار الاسلام فى العالم

(ص ٣٤٧ - ٣٧١) .

أثر التبادل التجارى والطرق الصوفية فى نشر الاســــلام فى إفريقية ـ السودان ـ الحبشة ـ الصحراء الكبرى أثر التبادل التجارى فى نشر الاسلام فى جزائر الهندالشرقيةوالملايووالصين فى الشرق الاقصى .

قائمة الخرائط التوضيحية

الدولة الإسلامية

الفصل الأول

نمــو الدولة الاسلامية

العوامل التى دفعت المسلمين الى التوسع

يقــوم تاريخ العصور الوسطى على ثلاث ظواهر تاريخيــة : فالظاهرة الاولى هى انتشار الديانة المسيحية من فلسطين الى غيرها من بلاد الدولة الرومانيــة الوثنيــة ، وذلك منــذ أواخر العصور القديمة اى قبيل العصور الوسطى . والظاهرة الثانية هجرة القبائل التيوتونية ــ أى الجرمانية ــ من مواطنها الى تلك البلاد الرومانية واستقرارها بالاقاليم الغربيــة منها مع اعتناقها المسيحية تدريجا منذ القرن الرابع الميلادى . اما الظاهرة الثالثة فهى قيام الدين الاسلامى فى شبه جزيرة العرب ، واعتناق العرب الاسلام ، والتوسع العربى الاسلامى الكبير منــذ القرن السابع الميــلادى .

وترتب على الظاهرتين الاولى والثانية معا نشأة التقسيمات التى نبتت منها الدول الاوروبية المسيحية المعروفة بغرب أوروبا حتى العصر الحاضر ، ومنها المــانيا وفرنســا وانجلترا وبلجيكا وأسبانيا . كما ترتب على الظاهرة الثالثة ان اتخذ الشرق طابعه

المميز له عن الغرب ، والذى لا يزال ملحوظا حتى اليوم ، وتعنى به طابع الاسلام . وبذلك أخذ يتكون الغرب المسيحى والشرق الاسلامى .

والرأى السائد الى عهد قريب فى تعليل التوسع العربى الاسلامى الكبير هو القائل بحرص المسلمين الاولين على نشر الاسلام بالقوة والسيف وحدهما . وهو رأى قال به رجال الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى وتبعه بعض كتاب التاريخ من المسلمين والمسيحيين المتأخرين . غير أن هذا الرأى العنيف لاسند له من الواقع أومن التاريخ . والصحيح أن الفتوح العربية الاسلامية الكبرى انما حدثت استجابة لعوامل أولها دينى ، وثانيها اقتصادى ، وثالثها سياسى .

العامل الدينى :

أما العامل الدينى فأمره واضح وهو أن الرسول عليه السلام جاء بالدين الاسلامى لينشره بين الناس ، وانه جعل من العرب كتلة واحدة استطاعت أن تحمل دعوة الدين الى مختلف البلاد القريبة والبعيدة فى غير اكراه أو ارهاق مع تخيير أهل البلاد المفتوحة بين الاسلام أو الضريبة الشخصية المعروفة باسم الجزية .

العامل الاقتصادى :

والعامل الاقتصادى ملحوظ فى الجغرافية الطبيعية لشبه جزيرة العرب نفسها حيث أخذت الاحوال الجوية منذ الالف

الرابع قبل الميلاد تخضع لعوامل الجفاف ونقص الامطار وجدب التربة ، وترتب على ذلك أن أخذت القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة على مراحل متباعدة الى الاقطار المجاورة الخصبة ، اى الى الشام والعراق حيث تكونت دول بابل وآشور وكلديا والعمالقة والفينيقيين والعبرانيين. وليست هجرة القبائل العربية فى صدر الاسلام الى هذه الاقطار وما وراءها الا من قبيل تلك الهجرات القديمة ، وان اختلفت عنها من حيث الزمن والطابع الدينى العام . وقد مهد للهجرة العربية الاسلامية هجرات حدثت على نطاق ضيق فى القرون الثلاثة السابقة على الاسلام ، ومنها هجرة قبائل من البحرين الى ريف العراق وتكوينها مملكة الحيرة المشهورة ، وهجرة قبائل يمنية الى الحجاز ، ثم الى بادية الشام ، حيث تكونت مملكة الغساسنة المعروفة .

وبمجيء الدعوة الاسلامية وقيام الدولة الاسلامية فى المدينة اكتسبت هذه الحركة العربية المتصلة قوة ونظاما تمكنت بهما من أن تكتسح الدولة الساسانية الفارسية ، وأن تنتزع من الامبراطورية البيزنطية أغنى أملاكها ، أى الشام ومصر . وذلك فى مدة وجيزة لا تكاد تتجاوز عشر سنين .

العامل السياسى :

غير أن حركة التوسع العربى الكبير ما كانت لتأخذ مجراها المعروف فى التاريخ لو أن الدولتين الفارسية والبيزنطية كانتا قوتين منيعتين . والواقع ان من مصادفات التاريخ العجيبة ان تقترن

نهضة العرب واجتماعهم على دعوة واحدة ودولة واحدة ، بضعف واختلال بجميع مرافق الدولتين الفارسية والبيزنطية .

سوء حال الدولة الفارسية :

اعترى الدولة الفارسية منذ أواخر القرن الخامس الميلادى ضعف شامل برغم الجهود التى بذلها الاكاسرة بغية الاصلاح . وأهم مظاهر هذا الضعف فى الداخل تعدد النحل الغريبة والانقسامات الدينية ، فالزرادشتية وهى الدين الرسمى للدولة ، والمانوية وهو مذهب فلسفى ينزع بالناس الى الزهد المطلق وعدم الانتاج ، ثم المزدكية الشيوعية التى أثارت الفقراء على الاغنياء فى فارس ، ثم النصرانية بمذهبيها المتقاربين النسطورى ، واليعقوبى ، ثم اليهودية والصابئة التى لم تعدم كل منها وجودا فى بعض المدن . وكانت الكنيسة الزرادشتية الرسمية تضطهد أتباع الملل الاخرى ، واضطهدت الحكومة الفارسية رعيتها من النصارى كلما وقعت حرب بينها وبين الدولة البيزنطية .

ثم أن نظام الحكم فى الدولة الفارسية كان نظاما وراثيا استبداديا يقوم على فكرة أن كسرى يحكم بتفويض من الله ، وعاش الاكاسرة فى شبه عزلة واحتجاب عن رعيتهم ولهم نظام للجاسوسية يطلعهم على ما يجرى فى الاقاليم .

وظلت الدولة الفارسية منذ القرن الخامس الميلادى فى حروب متصلة مع الشعوب المجاورة لها ولاسيما القبائل التركية شرقا

والدولة البيزنطية غربا ، مما استنزف دماء ابنائها وافرغ خزانتها .

ومما يدل على تخبط السياسة الفارسية وقتذاك انها عملت على القضاء على مملكة الحيرة العربية ، وهى درع لها من عادية القبائل العربية مما يلى ريف العراق . وبذهاب هذه المملكة الحاجزة تجرأت القبائل العربية الريفية ، ولا سيما قبيلة بكر بن وائل على الدولة الفارسية وانتصرت بكر على الجيش الفارسى فى وقعة ذى قار (بين ٦٠٤ ، ٦١١ م) وهو أول نصر أحرزه العرب على العجم ، وأول نذير بالانتصارات الاسلامية الكبرى فى العراق وفارس نفسها .

وليس أدل على مبلغ اضطراب الدولة الفارسية فى السنوات العشر السابقة على شروع المسلمين فى غزوها من انه تعاقب على عرشها فى تلك السنوات اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة وصبى صغير ومغتصب من غير بيت الملك .

سوء حال الدولة البيزنطية

لم تكن الدولة البيزنطية أوائل القرن السابع الميلادى أحسن حالا من دولة الفرس . فالمنازعات المذهبية صدعت وحدتها الروحية ، والمسيحية فى ذلك الزمن مذاهب يخاصم بعضها بعضا . وكان مدار الجدل والنزاع بين هذه المذاهب فى الغالب حول طبيعة السيد المسيح ، فالنساطرة يغلبون الجانب البشرى على الجانب الالهى فى ذاته عليه السلام ، واليعاقبة يغلبون الجانب

الالهى على الجانب البشرى . والملكانية وهم أتباع المذهب الرسمى للحكومة يقولون بالطبيعتين كما قالوا أخيرا بوحدة الارادة التى يصدر عنها السيد المسيح .

ولكن الحكومة البيزنطية عجزت عن أن تفرض مذهبها على اتباع المذهبين الاخرين ، فلجأت الى اضطهادهما ، وتشرد اصحاب المذهب النسطورى الى العراق وفارس وبلاد العرب ، وتطرق مذهبهم الى الهند . وأما المذهب اليعقوبى فانتشر فى الشام ومصر ، وهما من بلاد الدولة البيزنطية ، وتعرض أصحابه لاضطهاد الدولة لهم .

ثم ان الحروب الخارجية الكثيرة التى اضطرت الدولة الى خوض غمارها وبخاصة مع الفرس والأبر (الآفار) استنزفت موارد الدولة ، فلجأت الحكومة الى زيادة الضرائب والشدة فى جمعها مما اثقل كاهل الطبقات الفقيرة خاصة . وتطرق الخلل الى الحكومة بسبب هذه الحروب ، فضلا عن الخلافات المذهبية ، فكثر تمرد الجند وتعددت ثوراتهم ، واجترءوا على الاباطرة ، فكانوا يولونهم ويعزلونهم ويسجنونهم ويعذبونهم كيف شاءوا ، وبذلك انحطت هيبة الاباطرة وانحطت معها هيبة مجلس السناتو أى مجلس الشيوخ . ثم اضطرتها حالتها الاقتصادية الى قطع العون المالى الذى كانت تؤديه للغساسنة وذلك فى أوائل القرن السابع . فكان من وراء ذلك أن انقضت عليها القبائل العربية النازلة فى بادية الشام وجنت بيزنطة من تلك السياسة ما جنته فارس من القضاء على مملكة الحيرة .

سياسة حكومة المدينة :

لاشك أن أبا بكر الصديق ورجال حكومة المدينة كانوا على أثر الفراغ من حروب الردة وانفساح المجال امامهم لغزو الشام والعراق ، حريصين على انتهازالفرصة السانحة ، فدفعوا القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقية والغربية فى وقت واحد يحدوهم الى ذلك أمران :

(١) عامل الرغبة فى ان يشغلوا العرب عن العودة الى ردة جديدة .

(٢) وعامل الرغبة فى أن يشبعوا نزعة العرب للحرب وميلهم الى كسب المغانم من طريق الغزو . وبذلك ينصرفون عما أراد الاسلام أن يصرفهم عنه ، وهو غزو بعضهم بعضا ، ونهب بعضهم أموال بعض من طريق الغارات القديمة . ونجحت هذه السياسة ايما نجاح اذ استجابت القبائل العربية لداعى الغزو الخارجى عن رضا وطواعية .

مجمل حال الأمة العربية :

ومما تقدم يتبين مبلغ الفرق بين حال الدولتين الفارسية والبيزنطية وحال الدولة الاسلامية والامة العربية . فالعرب فى نهضة حقيقية واتحاد تام غداة الفراغ من حروب الردة ، والوعى القومى تنبه فيهم الى درجة بعيدة ، والاسلام أمدهم بالقوة اللازمة للقيام بعظائم الأمور ، وبالنظام الكفيل بالنجاح . فاذا عرفنا أن أساليب الحرب وأنواع السلاح كانت فى ذلك

الزمان فى العـــالم كله واحدة تقريبا ، وأن العرب باتصـــالهم بالفرس والبيزنطيين عن طريق الحيرة وامارة الغساسنة مرنوا على حروب هاتين الدولتين ، اذا عرفنـــا كل ذلك اتضح لنـــا مدى استعداد العرب الحربى وسر اقدامهم على محـــاربة الدولتين الكبيرتين فى وقت واحد .

التوســع العربى

حرب الردة وآثارها :

ظهرت فى جزيرة العرب قبيـــل وفاة النبى حركة مقـــاومة للاسلام لم تلبث أن اشتدت وعظمت بوفاته عليه السلام وبيعة أبى بكر بالخلافة . ولكن أبا بكر صمم على القضـــاء على هـــذه الحركة ، ورمى المرتدين فى قلب شبه الجزيرة بخالد بن الوليد كما أنفذ قادة آخرين الى أطراف الجزيرة لقمع الردة فيها . وقضى خالد على ردة بنى أســـد وتميم وحنيفـــة بعد قتـــال عنيف ، وكذلك فعـــل القـــادة الآخرون فى سائر أنحـــاء شبه الجزيرة . ولم يكد يمضى على وفاة الرسول عام وبعض عام حتى عادت شبه الجزيرة الى الاعتصام بحبل الدين الجديد والدولة الاسلامية الجديدة . وذلك بفضـــل عزيمـــة أبى بكر وعبقرية خالد العسكرية .

وترتب على انتصارات خالد والقادة الآخرين فى وقائع الردة أن أخذت أنظار القبائل العربية النازلة بأطراف العراق والشام

تتجه نحو الدولة العربية الاسلاميــة الجـديدة التى قامت فى المدينة وأخذت تخصها باعجابها ولا سـيما بعـد أن انقطعت الصـلة بينها ـ كما بينا من قبـل ـ وبين الدولتين الفـارسية والبيزنطية . بل لقد بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن طلبت الى أبى بكر أن يعينها على غزو العراق والشـام . فكان هذا الطلب من القبائل المذكورة ، وقبول أبى بكر له عمـلا بسياسته التى تقدمت الاشارة اليها ، واستنفاره العرب عامة لغزو العراق والشام ، واستجابة العرب له للاسباب التى سبقت ، كل هـذا يعطينا الأساس التاريخى لشروع العرب فى غزو أملاك الدولتين الفارسية والبيزنطية .

غزو خالد بن الوليد العراق ١٢ — ١٣ هـ :

نزلت قبيلة بكر بن وائل جنوبى العـراق وثارت الحرب بينها وبين الدولة الفارسية ، وانتصرت قبيلة بكر كما قدمنـا عـلى الجيش الفارسى فى وقعة ذى قار . وأعجبت هـذه القبيـلة بانتصارات خالد على المرتدين فى قلب شبه الجزيرة حتى ليقـال أن وفدا من شيوخها على رأسه المثنى بن حارثة الشيبانى سـار الى المدينة ولقى الخليفة وطلب اليه أن يأذن لخالد فى غزو العراق على أن تنضم اليه قبيلة بكر ، فأذن أبو بكر فى ذلك .

وعلى ذلك سار خالد بعد فراغه من ردة بنى حنيفة متجهـا نحو العراق على رأس كتيبة عدتها نحو ٥٠٠ مقاتل وانضم اليـه متطوعون كثيرون رغبة منهم فى شرف القتال تحت لوائه وأملا فى

مغانم كثيرة يتوقعونها . وسار خالد متبعا الجانب الغربى للفرات متجنبا البطائح والمستنقعات ، ثم انضمت اليه بكر يقودها المثنى بن حارثة الشيبانى ، فبلغت قوة الفريقين حوالى ٣٠٠٠ مقاتل ، واتبع خالد فى هذه الغزوة طرق الحرب الخاطفة ، فكان يظهر ويختفى وينتقل من مكان الى مكان بسرعة عجيبة ، وأخيرا هاجم مدينة الحيرة الحصينة ، واضطرت حاميتها الى أن تفتدى نفسها بجزية تؤديها قدرها ٦٠٠٠٠ درهم وذلك سنة ١٢ هـ . ثم أمر ابو بكر خالدا بأن ينتقل بكتيبته من العراق الى الشام حيث تحرجت أمور الغزاة المسلمين فى بعض البلاد الشامية ، فسار خالد بكتيبته من الحيرة الى تدمر ومنها الى الشام ولحق بجيوش المسلمين تحت أسوار دمشق . وقد عدت رحلة خالد هذه بكتيبته مخترقا الصحراء الجرداء التى بين العراق والشام فى بضعة أيام من روائع الحركات العسكرية فى التاريخ .

فتح الشام

الحالة على حدود الشام :

سلكت قبائل لخم وجذام وقضاعة من الدولة البيزنطية — بعد قطعها العون المالى عن الغساسنة — مسلك قبيلة بكر من الدولة الفارسية بعد أن قضى الفرس على مملكة الحيرة . ولا شك أن لخم وجذام وقضاعة قد نبهتها غزوات مؤتة وتبوك ، فى عهد الرسول عليه السلام . والظاهر أنها طلبت الى أبى بكر ان تنضم

الى القوات الاسلامية فى غزو الشام ، وأن الخليفة استجاب لهذا الطلب تمشيا مع سياسته التى عرفناها .

زحف المسلمين الى الشام :

وعلى ذلك سير أبو بكر فى خريف سنة ٦٣٣ م (١٢ هـ) ثلاثة جيوش أولها بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، والثانى يقوده شرحبيل بن حسنة ، والثالث يقوده عمرو بن العاص . وكان يزيد بن أبى سفيان أول القادة الثلاثة اصطداما بالجيش البيزنطى ، اذ جرت بينه وبين سرجيوس بطريق قيصرية وقعة فى وادى العربة جنوبى البحر الميت ، وانتهت هذه الوقعة بمقتل القائد البيزنطى والقضاء على جيشه (٤ فبراير سنة ٦٣٤ م) ، وبعد ذلك بقليل أقبل عمرو بن العاص بجيشه من أيلة — أى العقبة الحالية — وبث الغارة فى كل الاجزاء الجنوبية من فلسطين حتى بلغ أقليم قيصرية .

وقعة أجنادين :

كان الامبراطور فى ذلك الوقت مقيما فى حمص ، فلما بلغته أخبار غزو العرب فلسطين ، حشد جيشا ، وعين لقيادته أخاه تيودور ، وأمره أن يسير به من جنوبى دمشق الى فلسطين . ومن حسن حظ العرب أن وصل خالد بن الوليد فى كتيبته فى ذلك الوقت قادما من العراق فبلغ دمشق فجاة فى ٢٤ ابريل سنة ٦٣٤ م ، فلما رأى الجيش البيزنطى يتحرك نحو الجنوب ، سار هو كذلك جنوبا سالكا المنطقة الواقعة شرقى نهر الاردن

وتمكن من الاتصال فى وادى العربة بيزيد وعمرو . ثم تقدمت الجيوش العربية الثلاثة مجتمعة للقاء الجيش البيزنطى . فكانت بينهما وقعة اجنادين بين بيت المقدس وغزة (سنة ٦٣٤ م — سنة ١٣ هـ) فانهزم البيزنطيون انهزاما شنيعا بفضل تدبير خالد بن الوليد . وعلى اثر ذلك انساح العرب فى جنوبى فلسطين .

وبلغ نبأ انتصار العرب فى وقعة أجنادين مسامع أبى بكر وهو على فراش الموت — توفى فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (اغسطس سنة ٦٣٤) وخلفه عمر بن الخطاب .

دخول دمشق :

وتولى خالد القيادة العليا للجيوش العربية فى الشام ، وتقاطرت اليه المطوعة من انحاء الجزيرة عندما بلغهم انتصارات المسلمين فى الشام ، وزحف خالد الى دمشق حيث تراجعت اليها فلول الجيش البيزنطى بعد وقعة أجنادين ، وضيق عليها الحصار حتى استسلمت فى سبتمبر سنة ٦٣٥ (رجب سنة ١٤ هـ) .

وبسقوط دمشق انصرف العرب الى اتمام فتح الشام ، فانصرف القادة الاصليون الى فلسطين ، كما زحف خالد الى حمص فاستولى عليها . واستولى العرب على معظم المدن المكشوفة . أما المدن الحصينة أمثال بيت المقدس وقيصرية

ومدن الساحل فصابرت العرب على أمل أن تأتيها النجدة من قبل الامبراطور هرقل .

وقعة اليرموك :

على أن الامبراطور هرقل لم ييأس مع ذلك من استنقاذ الشام فاخذ يعمل ، فى أنطاكية والرها ، على جمع جيش كبير يطرد به العرب من الشام . وتم حشد هـذا الجيش جنوبى دمشق وكانت عدته على أقل تقدير ٥٠,٠٠٠ مقاتل معظمهم من مرتزقة الارمن وبعض العرب الموالين للبيزنطيين ، وعين عليه قائدا اسمه تيودور .

وفى ربيع سـنة ٦٣٦ م زحف الجيش البيزنطى الى حمص فجاة ، فأدرك خالد من فوره حرج موقف العرب تجاه هـذا الجيش الضخم ، وأمر أن يجلو العرب عن دمشق وعن حمص كما دعا قادة العرب جميعا الى الاجتماع بجيوشهم فى مكان يقع شرقى الاردن وجنوب شرقى وادى اليرموك وشمال البلدة التى تعرف الآن بدرعة (اذرعات) وهو موضع هام من الناحية الاستراتيجية ، يتوسط أخصب بقاع الشام ، وتمر منه الطرق الرئيسية المؤدية الى قلب فلسطين والى جنوبى المنطقة الواقعة شرقى الاردن . وكان العرب فى هذا الموقع تحمى ظهورهم روافد اليرموك العميقة ، فاذا ما قدرت لهم الهزيمة أمكنهم الانسحاب الى الصحراء أو الرجوع الى المدينة رأسا . ولم تبلغ عدة الجيوش العربية المجتمعة على اليرموك سوى ٢٥,٠٠٠ مقاتل .

اما الجيش البيزنطى فسار من جنوبى دمشق وعبر الاردن ، واحتل مواقعه عند قرية جلق . وظل الجيشان متواقفين مدة طويلة . لأن العرب وقفوا ينتظرون وصول أمداد تأتيهم من المدينة ، ولان الخلاف دب بين صفوف البيزنطيين مع انتشار روح التمرد فى الجند ونكوص بعض الكتائب العربية المرتزقة عن القتال . عند ذلك عزم خالد على مناجزة تيودور وعبأ العرب تعبئة بديعة واحكم خطة القتال ، فوضع جانبا من جنوده فى الناحية الشرقية من الميدان ، وقطع طريق الاتصال بين البيزنطيين ودمشق ، واحتل الجسر القائم فوق وادى الرقاد ليسهل عليه عبور هذا الوادى فى سهولة ويسر ، وبذلك حال بين البيزنطيين وبين امكان تراجعهم نحو الغرب .

ثم هجم خالد على البيزنطيين والجأهم الى زاوية تقع بين اليرموك ووادى الرقاد يقال لها الواقوصة ، فانحصروا فيها ، فمن لم يقتل منهم فى الحرب هوى فى اعماق روافد اليرموك طلبا للنجاة ، ومن نجا من الغرق أخذته سيوف العرب الذين فى الناحية الشرقية ، وبهذه الخطة أبيد معظم الجيش البيزنطى ، وتقرر امر الشام لمصلحة العرب وكانت وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م — ١٥ هـ) وعلى أثرها عاد العرب ، فاحتلوا دمشق .

أبو عبيدة بدلا من خالد :

رأى الخليفة عمر بن الخطاب على أثر توليه الخلافة أن الشام

نظرا لاحواله الخاصة أحوج الى رجل يوصف بحسن السياسة والادراك منه الى جندى ممتاز ، فأمر على أثر استخلافه بتنحية خالد عن القيادة على جيوش الشام وولى مكانه صحابيا قديما معروفا بالحزم وحسن السياسة هو أبو عبيدة بن الجراح . وقدم أبو عبيدة الشام قبيل وقعة اليرموك ، ولكنه ترك أمر ادارة الوقعة لخالد لخبرته بملابسات الموقف الحربى . فلما انتهت الوقعة بانتصار العرب باشر أبوعبيدة مهام منصبه فوزع الجيوش توزيعا جديدا ثم سار هو وخالد شمالا ، فاستوليا على بعلبك وحمص وحلب وقنسرين . وانفذ أبو عبيدة القائد عياض بن غنم على رأس قوة فرعية فسار شرقا واحتل ارض الجزيرة من العراق دون كبير مقاومة . واصبح الجبل المسمى أمانوس ، أو جبل اللكام الحد الفاصل لمدة قرون بين الشام وبلاد الدولة البيزنطية .

اتمام فتح فلسطين :

وفى أثناء ذلك ، أى فى مدى سنتى ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، احتل شرحبيل ويزيد مدن فلسطين الداخلية ومعظم مدن الساحل احتلالا نهائيا ، غير أن عمرو بن العاص لم يوفق الى فتح بيت المقدس عنوة وكذلك امتنعت قيصارية على العرب زمنا طويلا ، ولعل ذلك راجع الى حصانتهما والى غلبة العناصر الموالية للبيزنطيين من سكانهما . ومهما يكن من شىء فقد سلم بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٣٨ (١٧ هـ) وسقطت قيصارية فى

يد معاوية بن أبى سفيان فى أكتوبر سنة ٦٤٠ م (١٩ هـ) .

قدوم عمر بن الخطاب الشام :

ولما استقر العرب فى الشام خرج الخليفة عمر الى هذا الاقليم الجديد ليتفقد أحواله ويرتب أموره فالتقى بأبى عبيدة وأمراء الاجناد بالجابية (شمالى اليرموك) فزودهم بتعليماته واوامره المتعلقة بمعاملة أهل البلاد وتحصيل الاموال ، ثم انه ختم رحلته هذه بزيارة بيت المقدس .

وفى عام ٦٣٩ اجتاح الشام طاعون جارف يعرف بطاعون عمواس ، ذهب ضحيته أبو عبيدة وكثير من العرب ، فولى عمر مكانه يزيد بن أبى سفيان ، فلم يلبث أن توفى هو ايضا فولى عمر بعده أخاه معاوية وظل معاوية اميرا على الشام الى ان أصبح خليفة على الدولة الاسلامية بأسرها .

فتح مملكة فارس

استئناف الحرب فى العراق :

وقعت غارة خالد بن الوليد على الحيرة فى وقت غدت فيه فارس مضطربة الأحوال . فلما تولى الملك يزدجود الحكم واستردت السلطة المركزية بعض كيانها بفضل جهود القائد رستم ، رأت الحكومة الفارسية العمل على اخراج العرب من العراق . وشعر المثنى بن حارثة بحرج موقفه بعد انصراف خالد الى الشام فأرسل الى المدينة يطلب المدد . وصادف ذلك بداية عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فأرسل اليه عمر مددا

تولى قيادته رستم صاحب الأمر والنهى اذ ذاك فى الدولة الفارسية ، وعبر رستم الفرات والتقى بالعرب يقودهم سعد فى سهل القادسية ، وجرت بين الفريقين وقعة عظيمة دامت فيما يروى ثلاثة أيام بلياليها ثم انجلت عن اندحار الفرس وفناء معظم جيشهم وقتل رستم نفسه (٦٣٧ م — ١٦ هـ) .

سقوط المدائن :

كانت معركة القادسية فاصلة فى أمر العراق لمصلحة العرب كما كانت وقعة اليرموك فى الشام . وانفتحت امامهم سهول العراق بمدنه وقراه الآهلة بالعناصر السامية ، ولم يجد العرب مقاومة تذكر من هذه العناصر فتقدموا نحو « المدائن » عاصمة الاكاسرة التى رحل عنها يزدجرد فى حاشيته واعتصم بجبال ايران . ودخل العرب عاصمة الفرس ، وغنموا غنائم طائلة وشملتهم نشوة الظفر الى أن نبههم منها تجمع الفرس عند جلولاء فى أطراف جبال ايران ، فهب العرب لدفع الخطر وانتصروا على الفرس مرة أخرى (ديسمبر سنة ٦٣٧ م آخر سنة ١٦ هـ)وبذلك أصبح العراق كله فى قبضة ايديهم واصبحت جبال زجروس فاصلة بين أملاك الفرس التى يسكنها العنصر الايرانى الآرى ، وبين العراق الذى يغلب عليه العنصر السامى .

الاستيلاء على رأس الخليج الفارسى وقيام البصرة والكوفة :

وبينما يفتح سعد وجنوده أواسط العراق وشماله جاء عتبة

لم يكن كافيـــا لصد هجوم الفرس ، وترتب على ذلك أن هزم المثنى فى وقعة الجسر (٢٦ نوفمبر سنة ٦٣٤) سنة ١٣ هـ .

ثم تحسن موقف العرب فى الشام فى العــام التالى (٦٣٥) فأخذ الخليفة عمر يعنى بأمر العراق ، لكنه وجــد مشــقة فى حمل الجند على التوجه الى العراق لانهم كانوا يؤثرون الشام . واخــيرا بعث عمر الى العراق مــددا كافيـــا ، استطـــاع به المثنى أن يلقى جيش الفرس وان ينزل به الهزيمة فى وقعة كبيرة ، تعرف بوقعةالبويب (نوفمبر سنة ٦٣٥) . على أنه برغم هــذا النصر لم يستطع المضى فى هجومه لقــلة من معـــه من الجند بالقياس الى الجيش الفارسى .

فلما تم الأمر للعرب فى الشام بوقعــة اليرموك الفــاصلة ، تفرغ عمر لحرب فارس حتى هم بأن يســير الى العراق ليــدبر الحــرب بنفســـه . لكنه عــدل عن ذلك نزولا على رأى أهــل الشورى ، وندب للأمر صحابيا قديما وقائدا محنكا هو سعد ابن أبى وقاص .

وقعــة القادسية :

وأفلح سعد فى جمع جيش كبــير سار به الى العراق ورابط فى سهل القادسية على حدود الصحراء وقريبــا من الحــيرة ، واتبع فى ذلك نصيحــة تركهــا له المثنى الذى توفى من جراح اصابته فى الحرب . وفى أثنــاء ذلك جمع الفرس جيشا ضخما

ابن غزوان من البحرين بأمر عمر وغزا رأس الخليج الفارسى واحتل ثغر الابلة ، وجعل يغزو اقليم خوزستان حتى تم له فتحه .

ولما تم فتح العراق رأى قادة العرب أن لابد من اتخاذ محلتين تكونان معسكرين دائمين خالصين للعرب . واقر الخليفة عمر رأيهم ، فأسست لذلك البصرة على شط العرب جنوبا كما أسست الكوفة قريبا من الحيرة غربى الفرات . وهاجرت القبائل العربية من أنحاء الجزيرة الى كلتا المدينتين ، فغلبت العناصر العربية الشمالية على البصرة ، كما غلبت العناصر العربية الجنوبية على الكوفة ، وسرعان ما نمت المدينتان نموا عظيما . وأضحى لهما أعظم الاثر فى مجرى الاحوال العامة للدولة الاسلامية وفى نشأة الاحزاب السياسية والفرق الدينية ، كما نبتت فيهما وازدهرت الحركة الادبية الاسلامية القديمة ، ومن ثم المذهبان المشهوران ، مذهب البصريين ومذهب الكوفيين فى علوم اللغة والنحو ورواية الشعر القديم وعلم الكلام .

اتمام فتح فارس ، وقعة نهاوند :

اعتقد قادة العرب فى العراق أنهم لا يأمنون على فتوحهم العراقية مادامت هناك حكومة للفرس تعمل على حربهم واسترداد العراق من أيديهم ، فأرسلوا الى الخليفة يستأذنونه فى الانسياح فى أرض فارس ، وأذن لهم الخليفة على كره منه . ولذا خرج النعمان بن مقرن من العراق فى جيش كبير فالتقى بالفرس فى وقعة عظيمة عند نهاوند ، وانتصر انتصارا تاما (٦٤٢ م/٢١ هـ) .

وفى السنوات التى أعقبت نهاوند استولى العرب كذلك على مدينة الرى وسقطت فى ايديهم اقاليم فارس وكرمان ومكران وخراسان واذربيجان . وبات كسرى يزدجرد شريدا ينتقل فارا من مدينة الى أخرى حتى اغتاله بعض اتباعه بالقرب من مدينة مرو (٦٥٢ م / ٣١ هـ) وذلك فى خلافة عثمان بن عفان .

والخلاصة أن فتوح العرب لايران استغرقت عشر سنوات ، وهى مدة طويلة بالقياس الى المدة التى استغرقها فتح الشام والعراق . ويرجع هذا الى ان العرب فى ايران قاتلوا شعبا آريا مستمسكا بقوميته وعاداته ، بخلاف الحال فى العراق والشام حيث العناصر السامية المجانسة للعرب انفسهم . واحتفظ الفرس بطابعهم القومى ولغتهم حتى بعد اعتناقهم الاسلام . ومع حذق علمائهم اللغة العربية فان العربية لم تصبح لغة ايران القومية كما أصبحت فى العراق والشام ومصر .

فتح مصر

بواعث الفتح :

وضح للعرب بعد اتمام فتح الشام أن الخطر على الشام من ناحية مصر شديد ، فمصر تطل على البحرين الكبيرين — الابيض المتوسط والاحمر — بمينائيه : الاسكندرية والقلزم ، وهى لذلك قاعدة بحرية عظيمة للاسطول البيزنطى ، وفى وسع هذا الاسطول أن يهاجم المدن الساحلية الشامية ، بل أن ينقل الجنود البيزنطية الى المدينة

نفسها بشبه جزيرة العرب ، ومن ناحيــة أخرى فان مصر بلد خصب غنى بالحبوب والخيرات الزراعية المتنوعة ، وهو اقرب الى الحجاز من كل من العراق والجزيرة . فيمكن الاعتماد عليه فى امداد الحجاز بالغلال . ولذلك كله اقتضت سياسة الدولة العربية فتح مصر . هـذا هو الصحيح ، أما ما يقال من أن مشروع فتح مصر بدأ على كره من الخليفة عمر بن الخطـاب فهو قول ضعيف وينبغى الا يؤبه له ، ففتح مصر جاء بعد فتح الشام والعراق ، فهو يقع فى المرحلة التى استقرت فيها نيـة العرب أمة وحكومة على فتح البلاد واخضاعها لسلطان العرب والاسلام .

احوال مصر عند الفتح :

كانت مصر فى السـنوات العشر السـابقة على الفتح العربى الاسلامى فى حال من الاضطراب الداخلى ، فانالامبراطور هرقل — رغبة منه فى ازالةالخلافاتالمذهبية — أرادانينفذقراراتمجمع خلقدونة التى تقضى بانه سواء أكان السيد المسـيح ذا طبيعـة واحدة أم طبيعتين فانه ذو ارادة واحدة . وعلى ذلك ولى هرقل على مصر — بعد ارتجاعها من حكم الفرس — رجلا اسمهسيروس وهو أسقف سابق لمدينـة فازيس فى القوقاز ، وخوله السلطتين الدينية والمدنية فكان بطريركا وحاكما مدنيا .

وقضى سيروس هذه السـنوات العشر السـابقة على الفتح العربى وهو يحاول أن يحول الكنيسـة القبطيـة الى العقيـدة

الجديدة ، فمنع طقوس العبادة القبطية ، واضطهد رجالها أيما اضطهاد . وكأنه لم يكفه ذلك ، فزاد الضرائب على المصريين زيادة فاحشة ، امعانا فى مساعدة الامبراطور على سداد الديون الضخمة التى جرتها حرب فارس على الخزانة البيزنطية ، وقسا كل القسوة فى جمع هذه الضرائب ، مما جعل الرواية القبطية المتأخرة تصور هذا البطريرك فى صورة المسيخ الدجال . ولاشك ان العرب عرفوا كل ذلك عندما فكروا فى فتح مصر .

المقوقس وعمرو بن العاص :

وسيروس هذا هو الذى تسميه المصادر العربية باسم المقوقس ، وهو الذى عقد معهم المعاهدات التى تم لهم بها أمر مصر . وأما فاتح مصر فهو عمرو بن العاص السهمى القرشى وهو صحابى جليل له مواقف مشهودة فى أواخر غزوات الرسول وفتح الشام ، وهو معدود من دهاة العرب لشدة ذكائه وسعة حيلته ، كما أنه قائد محنك وادارى بارع بدليل تدبيره شئون مصر عقب فتحها .

الشروع فى الفتح : وقعة عين شمس :

خرج عمرو من قيسارية على رأس ٤٠٠٠ مقاتل ، وذلك فى ديسمبر سنة ٦٣٩ م واجتاز الاطراف المصرية دون مقاومة لخلوها من حاميات تحميها ، ثم سلك طريق الساحل ، وهو الطريق الذى سلكه غزاة مصر من اقدم الازمنة التاريخية ، فبلغ الفرما شرقى بورسعيد الحالية ، واستولى عليها عنوة . غير انه

تحاشى ان يتقدم فى شرقى الدلتا حتى يصله من المدينة مدد يكثر به جيشه ، وجاءه المدد وعدته نحو خمسة آلاف مقاتل بقيادة الزبير بن العوام . وعند ذلك تقدم عمرو عامدا الى رأس الدلتا واشتبك بالقائد البيزنطى تيودور فى وقعة عين شمس (سنة ٦٤٠ — م سنة ٢٠ هـ) فانتصر عليه انتصارا حاسما شرع بعده فى محاصرة حصن بابليون .

حصن بابليون :

كان لهذا الحصن أهمية خاصة تحتم على العرب أخذه ، فهو ذو موقع استراتيجى هام بين مصر السفلى ومصر العليا ، كما انه على رأس الطريق المؤدى الى الاسكندرية ، وفوق ذلك لجأت اليه فلول المنهزمين فى وقعة عين شمس . ولم يكن مع العرب الادوات التى تؤخذ بها الحصون ، ولذلك طالت مدة الحصار .

والظاهر أن المقوقس (سيروس) كان اذ ذاك داخل الحصن فأخذ يفاوض عمرا وكتب مشروع معاهدة تنهى الحرب ، ثم رحل الى القسطنطينية لعرض المشروع على الامبراطور هرقل ، لكن الامبراطور استشاط غضبا لنصوص هذه المعاهدة التى ترمى الى تسليم مصر للعرب ، على الرغم من وجود قوة حربية كبيرة فيها وفى الاسكندرية خاصة ، واتهم سيروس بالخيانة وحكم عليه بالنفى .

ثم توفى هرقل ، فوقع نبأ وفاته على المحصورين فى حصن

بابليون وقوع الصاعقة ، لان الحصار أضر بهم . على أن هـــذا الخبر شجع العرب ، فحملوا على الحصن حملة صـــادقة حتى سقط فى ايديهم فى ابريل سنة ٦٤١ . وبذلك أصبحوا وقدتمكنوا من شرقى الدلتا ومن مصر العليا .

الزحف على الاسكندرية :

وعلى أثر ذلك عبر عمرو النيل ، وسار وفرع رشيد قاصدا الاسكندرية . واستولى فى طريقه على نقيوس (فى ربيع ســـنة ٦٤١) . وشرع عمرو فى حصار الاسكندرية ، غيرانه لم يلبث ان ادرك حصانتها ، وان تسليمها لم يحن بعد ، فترك عنـــدها قوة تحاصرها ، وانصرف هو فى بقية الجيش للاستيلاء على مواقـــع أخرى داخل البلاد .

معاهدة الاسكندرية خريف سنة ٦٤١ م – ٢١ هـ :

وساد الاضطراب حكومة القسطنطينية على أثر وفاة هرقل . وتغلب الرأى القائل بانهاء الحرب مع العرب فى مصر ، واستدعى سيروس من المنفى ، وأرســـل الى مصر لانهـــاء الحرب بأحسن مايمكن من الشروط . وفى خريف سنة ٦٤١ م – ٢١ هـ ، وعلى غير علم من اهل الاسكندرية أبرم سيروس المعاهدة النهائية مع عمرو وكان من شروطها :

١ – ان يجلو الجيش البيزنطى عن الاسكندرية فى ميعـــاد غايته سنة واحدة من تاريخ عقد المعاهدة .

٣ — أن يضمن عمرو لاهل المدينة حريتهم الشخصيةوسلامة ممتلكاتهم والحرية التامة فى مباشرة شعائرهم الدينية ، مع عدم الاخلال بأداء الجزية المقررة عليهم .

ولما حل الميعاد المقرر جلا الجيش البيزنطى عن الاسكندرية فى سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وتوفى سيروس قبل ذلك ببضعة أشهر من السنة نفسها .

تخطيط الفسطاط ٦٤١ — ٦٤٢ م :

لم يحب عمرو بن العاص أن تظل الاسكندرية عاصمة لمصر فى العهد الجديد ، فان الخليفة عمر بن الخطاب كان لايرى أن يختلط العرب باهل البلاد المفتوحة . وكما حدث فى العراق من تخطيط البصرة والكوفة معسكرين للعرب ، اختطعمروبنالعاص فى مصر — بموافقةالخليفة — مدينة قريبة منحصنبابليون ، وهى الفسطاط . وغدا لكل قبيلة من القبائل العربيةالوافدةعلىمصر منذالفتح خطة خاصة بها فى العاصمةالجديدة . ونمتالفسطاط وازدهرت فى القرون الاسلامية الثلاثة الاولى ، واضحى لجامعها الكبير المعروف بجامع عمرو أثر قوى فى قيام الحركة الادبية والعلمية وازدهارها بمصر .

أعمال عمرو فى ولايته على مصر :

تولى عمرو بن العاص جميع شئون مصر بعد تمام فتحها فنظم أمورها الادارية والزراعية والمالية . ولما تم تسليم الاسكندرية

راى عمرو أن يحمى مصر من ناحية الغرب ، فقاد بنفسه جملة الى برقة واستولى عليها دون مقاومة تذكر فى شتاء سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ . غير أن الخليفة عمر بن الخطاب قبيل وفاته راى أن يحد من سلطة عماله الاقوياء أمثال خالد وسعد وعمرو ، فجعل ولاية عمرو قاصرة على مصر السفلى ، ونصب على مصر العليا واليا الخراج بحيث زادت حصيلته فى عهده عما كانت عليه زمن عمرو . عثمان بن عفان عزل عمرو عن مصر السفلى وجمع مصر كلها لعبد الله بن سعد ، وهو أخو عثمان من الرضاعة .

واشتهر الوالى الجديد بالكفاية فى الامور المالية ، فنظم أمر الخراج بحيث زادت حصيلته فى عهده عما كانت عليه زمن عمرو لكنه عند ما اغار البيزنطيون على الاسكندرية سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ واحتلوها وتوغلوا فى داخل الدلتا ، عجز عن صدهم . فندب الخليفة عمرا بن العاص لاخراجهم من البلاد فحاربهم وأجلاهم عن الاسكندرية عنوة سنة ٦٤٦ م — ٢٦ هـ . ثم عرض عليه عثمان أن يلى امرة الحرب فحسب ، ويترك شئون الادارة لعبد الله بن سعد ، فلم يقبل عمرو ذلك ، فعادت امارة مصر كلها الى عبد الله بن سعد .

الصلح مع النوبة ، ومد الحدود الغربية :

على أن عبد الله بن سعد قام فوق تنظيم الخراج بثلاثة أمور هامة تتصل بمد حدود مصر وتأمينها ، فمن ناحية الجنوب عقد معاهدة مع النوبة نظمت الاحوال عند الحدود الجنوبية ، ومن

ناحية الغرب بسط نفوذ مصر على ما وراء برقة حتى طرابلس ، ثم انه نجح فى ايجاد قوة بحرية مصرية .

قيام البحرية الاسلامية :

الفتوح العربية الكبرى فى الشام والعراق ومصر كلها فتوح برية ، ولم يكن للعرب اذ ذاك أسطول . فلما استقر معاوية فى الشام واستقر العرب فى مصر ظهر أن خلو الدولة الاسلامية من قوة بحرية يعرضها لهجوم الاسطول البيزنطى على المدن الساحلية فى الشام ومصر ، كما حدث للاسكندرية فعلا فى سنة ٦٤٥ حين هاجمها أسطول الروم . لذلك عول معاوية على انشاء أسطول فى الشام وحذا حذوه عبد الله بن سعد فأنشأ أسطولا بالاسكندرية .

وكان الغرض من انشاء القوة البحرية الاسلامية أول الامر دفاعيا ، لكنه لم يلبث أن أصبح هجوميا . فان معاوية كان يحلم بفتح القسطنطينية وأن يكون هو فاتحها ، وتمهيدا لذلك غزا جزيرة قبرص ، واستولى على جزء منها سنة ٦٤٩/٢٨ هـ . وفى العام التالى غزا معاوية جزيرة أرواد القريبة من ساحل الشام ، واستولى عليها .

وقعة ذات الصوارى البحرية :

ثم اعد معاوية حملة بحرية على القسطنطينية ، واشترك معه فيها الاسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد . والتقى الاسطول

العربى المشترك بأسطول البيزنطيين بقيادة الامبراطور قنسطنز الثانى على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . وكانت بينهما وقعة يسميها مؤرخو العرب « ذات الصوارى » سنة ٦٥٥م/ ٢٥ هـ ، وهى وقعة انهزم فيها البيزنطيون وفر الامبراطور الى صقلية. وكان فى وسع معاوية أن ينقض بعدها على القسطنطينية ويفتحها لولا أن وقعت الفتنة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ؛ فاضطر معاوية الى مهادنة البيزنطيين ليتفرغ للاحداث الداخلية الجديدة .

فتح قيليقية وأرمنية البيزنطية :

وحارب معاوية جيوش البيزنطيين فى البر فى قيليقية وأرمينية ، وسبق لأرمينية البيزنطية أن غزاها حبيب بن مسلمة فى سنة ٦٤٢ من ناحية العراق ، واحتل عاصمتها دوين ، وتقدم منها ؛ ووصل الى ماوراء القوقاز ، لكن جموع الخزر صدته عن التقدم .

الشواتى والصوائف :

ظل العرب محتفظين بما حصلوا عليه فى أرمينية حتى وقعت الفتنة فى الدولة الاسلامية بمقتل عثمان ، فانصرف المسلمون عن أرمينية وغيرها من الفتوح ، فلما اجتمعت الدولة على خليفة واحد بقيام الدولة الاموية أصبح غزو أرض العدو صيفا وشتاء نظاما مقررا طوال العهد الاموى ، لايقف الا مدة هدنة أو صلح معقود . واتخذت هذه الغزوات المعروفة بالشواتى والصوائف اتجاها شماليا فى أرمينية وبلاد البيزنطيين بآسيا الصغرى .

(الروم) ، واتجاها غربيا فى شمال افريقيـة والاندلس ، وذلك بعد فتح هذين القطرين كما سيجىء .

اسباب توقف التوسع العربى الكبير :

تتبعنا التوسع العربى الكبير من ابتدائه الى سنة ٦٥٥م/٣٥هـ فوجدناه قد شمل الشرق الادنى كله بمـــا فى ذلك مصر وبعض جزائر شرق البحر المتوسط ، وامتد فى آسيا حتى وقف عنـــد نهـر جيحون . ثم انصرف العرب عن المضى فى فتوحهم مدة من الزمن وقع فيهـــا من الفتن والاحداث الجســـام ما حال دون استمرار التوسع . وهذه الاحداث على وجه الاجمال هى :

مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان :

كان الناقمون على سياسة عثمان يكتبون الى الغزاة فى مختلف الاقاليم يقولون لهم « أقدموا الينا فان الجهاد الحق عندنا » . ووجدت هذه الدعوة من الجنود وقادتهم آذانا مصغية ، فتراجعت الجنود وقادتهم الى الامصـــار الكبرى ، اى الى البصرة والكوفة والفسطاط ، وأخذت تنتقد سياسة العمال والولاة ، ثم تطرفت الى نقد سياسة الخلفاء أنفسهم ، والى ارسال الوفود المســلحة الى المدينة لتحمل الخليفة عثمان على اعتزال الحكم ، فلما امتنع التفاهم بين الخليفة وهذه الوفود اقتحموا عليـه داره وقتلوه ، وبذلك انفتح باب فتنة لم ينغلق احقابا طوالا ، وتصدعت بسببه وحدة الامة الاسلامية .

الحرب بين على ومعاوية :

وتولى الخلافة بعد عثمان الامام على بن أبى طالب فحاول جمع الشمل ، لكن الجرح الذى أصاب الدولة الاسلامية كان أعمق من أن يداوى بالسرعة التى تمناها على ، وازداد الامر تفاقما بنشوب الحرب بينه وبين معاوية أمير الشام الذى أعتبر نفسه ولى دم عثمان . ولم تركد ريح هذه الحرب الا بعد أن قتل على بيد بعض الخوارج الذين خرجوا عليه لقبول مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية ، وصارت الخلافة الى معاوية سنة ٤١ هـ ، وهى المعروفة باسم عام الجماعة الاول .

معاوية يحاول استئناف حركة الفتح والتوسع :

حاول معاوية استئناف الفتوح الاسلامية ، فهاجم القسطنطينية وغزت جيوشه افريقية ، دون أن تحصل على نتيجة ايجابية ذلك لان معاوية اضطر الى العمل على تلافى ما خلفته الفتنة الكبرى من آثار سيئة فى الدولة الاسلامية ، فلم يستطع ان يركز جهوده كلها نحو الفتوح التى بدأها فى آسيا وأفريقية . مثال ذلك أن معاوية لم يحسن اختيار قائد الحملة المتوجهة نحو القسطنطينية ، وكان ذلك سببا من اسبابه فشلها . وقتل فى هذه الحملة ودفن عند أسوار القسطنطينية أبو أيوب الانصارى ، الذى نزل النبى عليه السلام فى بيته عندما قدم المدينة مهاجرا . وكان من أسباب فشل هذه الحملة كذلك

ان النار الاغريقية فتكت بالاسطول العربى ، وكان سرها خافيا على العرب فى ذلك الوقت .

الحرب بين الامويين وآل الزبير :

ولما أخذ معاوية البيعة لولاية العهد لابنه يزيد ، أعتبر أهل الحجاز هذه البيعة خروجا على السنة التى جرى عليها الخلفاء الاربعة من قبل . وأدى ذلك الى ثورة الحجازيين بزعامة عبد الله ابن الزبير ، بعد أن بايعوه بالخلافة . وبذلك اندلع لهيب الفتنة الثانية ولا سيما بعد أن تورط يزيد فى أمر الحسين بن على ومقتله . ووقعت حروب دامية بين الامويين وآل الزبير فى الحجاز والشام والعراق ، وطال أمد هذه الحروب حتى عام ٧٣هـ، حين تم النصر النهائى للخليفة الاموى عبدالملك بن مروان على آل الزبير ، ولذلك يعرف العام المذكور بعام الجماعة الثانى .

وفى أثناء تلك الفتن قوى شأن الخوارج ، وتعددت فرقهم واشتد خطر المتطرفين منهم على الدولة الاموية ، فاضطر الخلفاء الامويون الى مكافحتهم فى سهول العراق وبلاد العرب وجبال ايران، حتى قضوا عليهم على يد الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة ، واستغرق ذلك بضع سنين أخرى بعد انقضاء أمر آل الزبير .

استئناف حركة الاصلاح والتوسع :

ثم استقبلت الدولة الاسلامية عهدا خاليا من الحروب الداخلية ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان باصلاحات سلمية

هامة اذ نقل دواوين الدولة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وضربت العملة الاسلامية . والى جانب هـذه الاصلاحات أمكن الدولة فى عهـد الوليد بن عبد الملك ان تستأنف حركة الفتح والتوسع فى الشرق والغرب حتى بلغت مساحة الدولة ضعف مساحتها قبل عهده ، وكان لها شأن عظيم فى نمو الحضارة الاسلامية .

فتح اقليم ما وراء النهر :

يمتد هذا الاقليم الشاسع من نهر جيحون حتى حدود الصين وهو المعروف الآن بتركستان أو اواسط آسيا ، وتسكنه قبائل الترك التى خضعت للنفوذ الايرانى وتأثرت بالحضارة الايرانية . وعهد الحجاج بن يوسف والى العراق بغزو هذا الاقليم وفتحه الى قائد من أكبر قادة العرب هو قتيبة بن مسلم الباهلى. فجعل مدينة مرو قاعدة له ، وصار يغزو منها كل سنة مدن ماوراء النهر وأقاليمه ، ففى سنة ٨٧ هـ تم له فتح بلخ وطخارستان وفرغانه وبيكند ، واستولى على بخارى سنة ٨٩ هـ ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ ، وكشغر سنة ٩٥ هـ ، عند حدود الصين . ووقف الفتح عند هذا الحد . وانزل قتيبة قبائل العرب فى هذه الاقاليم ، فساعد ذلك على انتشار الاسلام واللغة العربية فيها ، كما ساعد على قيام العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية وبين بلاد الصين مما كان له أثر ملحوظ فى نمو الحضارة الاسلامية وفى دخول الدين الاسلامى الصين .

فتح بلاد السـند :

وبلاد السـند هى الاقليم الشاسع الذى يرويه نهر السند وروافده الكثيرة ، وتسكنها قبائل هندية متعددة عليها زعماء أو ملوك متنافسون متعادون .

وانتهز الحجاج بن يوسف فرصة اعتداء بعض قراصين السند على سفينة عربية فيها نساء عربيات ، واتخذ من ذلك حجة للغزو ، وعهد الى ابن عمه محمد بن القاسم الثقفى بغزو هذا الاقليم . وكان محمد بن القاسم فتى دون العشرين لكنه حوى من صفات النبل والفتوة ما جعل الحجاج يكل اليه هذا الامر العظيم . وأمده الحجاج بقوة بحرية واخرى برية . ووصلت الحملة الى ثغر الديبل ، وموضعه مدينة كراتشى الحالية ، فاستولى محمد بن القاسم على الثغر عنوة ، ثم سار مصعدا فى النهر يستولى على المدن ويغنم ما فى معابدها البوذية من نفائس. وما زال ابن القاسم يسير شمالا حتى بلغ مدينة الملتان سنة ٩٦هـ وهى أقصى ما وصل اليه .

وهذه الحملة طريفة من حيث انها انشأت بين الدولة الاسلامية وبين الهند علاقات نمت على الزمن ، وكان لها أبعد الآثار فى حضارة الهند والحضارة الاسلامية بوجه عام .

محاولة العرب فتح القسطنطينية :

كانت المحاولة الثالثة والاخيرة ضد القسطنطينية ٩٦-٩٩ هـ

(٧١٦ – ٧١٨ م) . وذلك ان الوليـــد بن عبـــد الملك أعـــد قبيل موته حملة برية بحرية عظيمة لذلك الغرض لـكنه توفى قبل انفاذ هذه الحملة . فلما تولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ، سير الحملة وجعل عليها أخاه مسلمة بن عبدالملك . وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك اليون الايسورى ، وهو رجل ذو مكر ودهاء فاستطاع أن يخدع مسلمة بالمطاولة حينا وبالحيلة حينا آخر حتى هجم الشتاء ، ونفذت اقوات الجيش الاسلامى ، ثم اغرى الامبراطور بمسلمة شعب البلغار ، وأعمل فى الاســطول العربى النار الاغريقية ، فباد الاسطول كله تقريبا وهلك اكثر من ثلثى الجيش ، واضطر مسلمة الى الرجوع فى حال يرثى لها . واشتهر فى حوادث تلك الحرب رجـــل يدعى عبـــد الله البطال عرف بشجاعته ومغامراته ، فأصبح بطل قصـــة شعبية كبـــيرة تسمى قصة « ذات الهمة » ، كما اصبح رمز البطولة الاسلامية المجاهدة ضد البيزنطيين فى العهد التركى العثمانى . هذا ماكان من أمر الفتوح الاسلامية الكبيرة فى الشرق ، ويليها هنا ما فتح المسلمون فيما اصطلح المؤرخون على تسميته باسم فتوح المغرب .

١ – شمال افريقية :

كان شمال افريقية من حدود مصر الغربية الى ساحل المحيط الاطلنطى جزءا من أملاك الدولة البيزنطية ، وسكانه الاصليون هم القوم المعروفون بالبربر ، ينزلون السهول والجبال والصحارى الجنوبية بقبائلهم المتحضرة والمبتدية . وسكنت بالمدن الساحلية

جاليات يونانية ولاتينية ، أما اليهود فسكنوا فى حواضر المغرب وبواديه على السواء . ومنذ أيام الدولة الرومانية القديمة ، وأيام حروب جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية فى القرن السادس الميلادى ، اشتهر البربر بالشجاعة وحب الحرب ، كما اشتهر نصارى المدن الساحلة بكثرة الانقسامات الدينية . ثم أن البحرية البيزنطية غدت ضعيفة بوجه عام ، بعد أن انحصر نفوذ بيزنطه فى المدن الساحلية دون الجهات الداخلية التى تنزلها قبائل البربر ، وبعد أن استولى عمرو بن العاص على اقليم برقة ، واصبحت مدينة برقة نفسها قاعدة للعرب يعتمدون عليها فى غزو ما وراءها من اقطار المغرب . وترددت غارات العرب وغزواتهم بعد ذلك على طرابلس وافريقية (تونس) والواحات الجنوبية ، وهى فزان وودان وغدامس ، فى الثلاثين سنة التى اعقبت فتح عمرو لبرقة . وجرت هذه الغزوات على غير خطة مرسومة ، وتمخضت عن اتخاذ مدينة القيروان — التى انشأها عقبة ابن نافع فى افريقية فى ولايته الاولى (٥٠ — ٥٥ هـ) — قاعدة ثابتة بعد برقة . وأطلق العرب حوالى ذلك الوقت اسم المغرب على شمال افريقية كله ، وقسموه جغرافيا الى ثلاثة اقسام ، وهى المغرب الادنى ، والمغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى .

مرحلة الفتح المنظم :

ثم ولى معاوية على المغرب أبا المهاجر دينار سنة ٥٥هـ وبتوليته

دخلت الحرب فى المغرب دورا جديدا ، اذكان ابوالمهاجر ذا حنكة سياسية ونظرة فى الامور صائبة ، فادرك أن البيزنطيين لا البربر هم العدو ، واجتهد ان يفهم البربر أن من مصلحتهم أن يكونوا مع العرب دون البيزنطيين . وقبل البربر هذه الدعوة لما بينهم وبين العرب من وجوه شبه قوية . فاسلم كسيلة زعيم البربر المتحضرين المعروفين بالبرانس ، واسلم معه قومه . واستطاع ابو المهاجر ان يزحف ومعه كسيلة الى تلمسان فى المغرب الاوسط ويفتحها سنة ٦٢ هـ .

غير ان السياسة الحكيمة التى اتبعها ابو المهاجر لم يسر عليها خلفه عقبة بن نافع الفهرى الذى تولى المغرب (٦٢ — ٦٣ هـ) من قبل يزيد بن معاوية . وكان عقبة رجلا فيه غيرة شديدة على الدين وفيه عنف وشدة ، وبينه وبين ابى المهاجر عداوة قديمة ، فبدأ عمله بأن اعتقل أبا المهاجر ومعه كسيلة ، وصار ياخذهما معه فى غزواته مكبلين فى الحديد ، واوقع كذلك بكثير من قبائل البربر ، بحجة أنها ارتدت عن الاسلام . واسعف الحظ عقبة بن نافع أول الامر فدفع بجيشه حتى بلغ ساحل المحيط فيما يروى ، لكنه لم يحسب حسابا لخط رجعته ، فتمكن كسيلة من الفرار ومن اثارة البربر ، وهاجم عقبة وهو فى طريق عودته ، ونشب بين الرجلين قتال عنيف عند تهودا قرب بسكرة ، فقتل عقبة ومزقت القوة التى كانت معه ، وفيها عدد غير قليل من الصحابة . واقيم فيما بعد على قبور اولئك القتلى مسجد عرف

بمسجد سيدى عقبة ، واصبح هذا المسجد مزارا من جميع اقطار المغرب حتى العصر الحاضر . وخلا الجو لكسيلة فدخل القيروان سنة ٦٤ هـ ، وظل زعيم البربر خمس سنوات ، وذلك لانشغال الدولة الاموية فى تلك السنوات بالفتن التى اندلع لهيبها فى الشرق ، ولم يستطع زهير بن قيس البلوى الذى تولى شئون العرب بعد عقبة ان يوقف كسيلة لقلة ما تبقى بشمال افريقية من الجيوش العربية .

زهير بن قيس البلوى :

فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان أهمه أمرالمغرب ، ولم ينتظر حتى يتم له النصر على آل الزبير ، بل ارسل مددا الى زهير بن قيس ، وبهذا المدد استطاع زهير ان يسترد القيروان ، ويوقع بالزعيم كسيلةوبمن معهمن البيزنطيينقرب القيروان سنة ٦٩ هـ . غير انه اثناء عودة زهير اعترضته فى برقة قوة للبيزنطيين جاءت فى البحر نجدة لكسيلة ، واوقعت به وبجيشه

وظل أمر المغرب الادنى أو افريقية معلقا حتى فرغ الخليفة عبد الملك من امر آل الزبير ، فولى سنة ٧٨ هـ على المغربحسان ابن النعمان الغسانى ، وأمدهبجيش كبير من عرب الشامبمعاونة الاسطول المصرى فى البحر .

ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى للمغرب ، اذ اتبع سياسة أبى المهاجر من حيث اصطناع البربر والاستعانة بهم على

البيزنطيين ، وتمكن بذلك من الزحف الى قرطاجنة والاستيلاء عليها وتخريبهاسنة ٧٩ . وبذلك انتهىأمر البيزنطيينفيأفريقية ، وأخذت العناصر اليونانية واللاتينية تهاجر من هذا القطر الى صقلية واسبانيا .

الكاهنة داهيا :

غير انه سرعان مادهمت حسان امرأة يسميها العرب داهيا ويلقبونها بالكاهنة ، وهى زعيمة البربر البدو الذين يقال لهم « ألبتر » . وكانت داهيا تتكهن وتتنبأ الحوادث ، فالتف حولها كثير من البربر من قومها وغيرهم ، وجرت بينها وبين حسان وقعة هزم فيها حسان ، واضطر الى التراجع الى برقة ، حيث ظل يرقب الكاهنة وحركاتها وسرعان ماسنحت له الفرصة ، ذلك أن الكاهنة وقومها بعد انتصارها على حسان اندفعوا يغيرون على المدن العامرة ويخربونها ظنا منهم أن ذلك مما يحمل العرب على ترك المغرب . وشكا أهل المدن من البربر ومن معهم من بقايا البيزنطيين تلك الحال الىحسان ، وحثوه على حربالكاهنة ، فنهض لقتالها ونشبت بينالفريقين وقعة كبيرة بمكان يقال له « بئر الكاهنة » قرب قابس ، حيث قتلت الكاهنة وهزم جيشها وذلك سنة ٨٤ هـ . وبذلك كسرت شوكة البربر فى المغربين الادنى والاوسط .

وانصرف حسان بعد ذلك الى اصلاح شئونالبلاد ، فاستمال زعماء البربر الى الاسلام ، فأسلموا هم واقوامهم وحسن

اسلامهم ، وأشركهم حسان مع العرب فى الجيش ، وأنشأ فى تونس دار صناعة كبيرة لعمل السفن ، كما دون الدواوين ووضع الخراج على نسق مايجرى فى الاقاليم الاسلامية الشرقية .

وتولى أمر المغرب موسى بن نصير ، بعد حسان ، فجرى على نهجه واتبع سياسته ، فغزا بالبربر الذين أسلموا قبائل المغرب الاقصى ونشر فيهم الاسلام .

والخلاصة أن العرب لاقوا فى فتح المغرب أشد مقاومة لقوها فى فتوحهم وذلك لشجاعة البربر ، وتأييد البيزنطيين لهم ، وصعوبة الاقليم من الناحية الطبيعية . فلما اتبع العرب سياسة التفاهم مع البربر واجتذابهم إلى الاسلام ، دان لهم أمر المغرب ، وأصبح البربر قوة هائلة لم يلبثوا أن استفادوا منها فى فتح قطر آخر عظيم هو أسبانيا .

فتح اسبانيا (١)

ولم يمتنع على موسى بن نصير فى فتوحه فى شمال افريقية غير مدينة « سبتة » الواقعة على الساحل الجنوبى من خليج الزقاق قبالة الصخرة التى تعرف اليوم بجبل طارق . وكانت

---

(١) العرب تقول الاندلس ، وهو لفظ ماخوذ من اسم القبيلة الجرمانية التى غزت اسبانيا فى القرن الخامس الميلادى ، وهى التى تعرف باسم الواندال ، وخلفت اسمها فى الاقليم الجنوبى الخصب الذى لا يزال يعرف الى اليوم بأندلوسيا .

سبتة هذه تابعة لدولةالقوط الاسبانية ، وهذا سر امتناعها على موسى . اذ كان عليها رجل يقال له يليان يمت بصلة المصاهرة الى البيت المالك القوطى الجرمانى فى أسبانيا ، ويحافظ على مدينته اشد المحافظة ، فولى موسى مولاه طارق بن زياد على طنجة وعهد اليه بمراقبة الحال فى سبتة .

ولم يمض زمن طويل حتى تغيرت الحال اذ اقبل يليان الى طارق يطلب اليه غزو اسبانيا ، بعد ان كان من أشد المدافعين من مدينته . اما سر هذا التحول فهو أن مملكة القوطيين عانت أوائل القرن الثامن الميلادى اضطرابا عاما بسبب التنافس من أجل العرش حتى استوى عليه آخر الامر رجل ليس من البيت المالك بل من قادة الجند يقال له رذريق . وكان يهود اسبانيا على عهد القوطيين يعانون من الاضطهاد اشكالا وألوانا ، مما جعلهم يتربصون بدولة القوط الدوائر ويتمنون زوالها . ثم أن النظام الاجتماعى فى الدولة القوطية كان فاسدا ، اذ انقسم الناس فريقين أقلية من النبلاء ورجال الدين لها الحرية والسيادة والثروة ، وأكثرية من الاقنان رقيق الارض والعبيد محرومة من كل الحقوق تقريبا . كل هذه الامور مما يمهد عادة لحدوث الانقلابات العامة أو لغزو يأتى من الخارج . غير أن السبب المباشر فى فتح العرب الاندلس هو على الارجح استنجاد الحزب الموالى للاسرة المالكة الشرعية بالعرب ، رغبة فى رد العرش الى أهله .

وقعة وادى لكة :

وقد أنهى طارق الى موسى بن نصير ما عرضه عليه يليان ، فكتب موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه فى فتح الاندلس ، فأجابه الى ماطلب على أن يلزم جانب الحيطة .

وعلى ذلك سير موسى مولاه طارقا على رأس جيش يبلغ ٨٠٠٠ مقاتل اكثرهم من البربر واقلهم من العرب ، بعد أن حصل على اذن الخليفة الوليد ، وبعد أن اختبر حال الساحل الجنوبى الاسبانى بسرية استكشافية .

ونزل طارق بالصخرة التى عرفت فيما بعد بجبل طارق . ثم تحول منها الى الجزيرة الخضراء . وكان رذريق فى غزاة له فى الشمال ، فعاد مسرعا نحو الجنوب ووقعت الوقعة الفاصلة بينه وبين طارق على وادى لكة الذى يعرف اليوم بوادى صلاد ، وهو بين البحيرة ومدينة شذونة سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م . فانتصر طارق انتصارا تاما وقتل رذريق فى المعركة وقيل بل نجا وقتل فى وقعة اخرى .

وتسامع أهل شمال افريقية بهذا النصر ، فأسرع كثير منهم الى طارق لينالوا شرف الفتح وما يعقبه من المغانم . فنظم طارق جيشه من جديد ، ثم زحف ومعه يليان الى مدن شذونة وقرمونة وآسجة فاستولى عليها . وكلما أخذ طارق مدينة ترك بها حامية من جيشه ومعها نفر من اليهود الذين رحبوا بالفاتحين

العرب ، ورأوا فيهم منقذين لهم من الاضطهاد الذى كانوا فيه .

ولم يشأ طارق أن يترك للعدو فرصة للراحة والاستعداد ، فوجه من آسجة فصائل الى قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية ففتحت كلها ، ثم زحف هو فى عظيم الجيش الى طليطلة عاصمة القوط فدخلها عنوة . وبذلك لم يكد ينقضى صيف سنة ٧١١ م حتى كان طارق قد فتح ما يقرب من نصف أسبانيا .

انتقال موسى الى أسبانيا وتوليه أمر الفتح :

وفى أثناء ذلك جهز موسى جيشا عـــدته ١٨٠٠٠ مقاتل من العرب والبربر ، وسار به الى أسبانيا . ولاشك أنه فعل ذلك لانه رأى أن طارقا قد أوغل فى أرض العـــدو وخاف أن يقطع عليه خط الرجعة ، فنهض لتلافى كارثة ربما تحل به وعبر موسى خليج الزقاق سنة ٩٣ هـ . وســار يريد طليطلة من غير الطريق التى سلكها طارق ، فبلغ اشبيلية واستولى عليها ، وكذلك ماردة بعـد حصار وقتال عنيف ، ثم بلغ طليطلة . وبعد ذلك ســار موسى وطارق معا حتى تم لهما فتح اقليم ارغونة ـ وقاعـدته سرقسطة ، ثم اقليم قطالونية وبلنسية . ثم ارتد القائدان عـلى آثارهما قاصدين الجهات الشـمالية الغربيـة الوعرة التى آوت اليها فلول القوط . وهنا شاءت الاقـدار ان تصرف العرب عن اتمام فتح تلك الجهات التى ناهضت العرب أجيالا طوالا فيمـا بعد ، حتى تمكنت فى النهاية من اخراجهم من الاندلس كلها .

عودة موسى وطارق الى المشرق :

ذلك ان الخليفة الوليد بن عبـــد الملك راعتـــه فتوح طارق وموسى ، وأقلقه مابلغه عن رغبة موسى فى عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق جنوب أوروبا بعد فتح القسطنطينيـــة التى عجز العرب عن فتحها من المشرق . فكتب الخليفة الوليـــد الى القائدين بوقف القتال والقدوم عليه ، فصدعا بالامر . وعاد موسى من الاندلس بعد ان استعمل عليها ابنه عبـــد العزيز الذى فتح السواحل الشرقية ، كما استعمل عـلى شمال افريقيـــة ابناءه الآخرين . ثم سار موسى ومعـــه من السبى والغنـــائم القوطية مالم يسمع بمثله فى تاريخ الفتوح الاسلامية ، فلما بلغ فلسطين طلب اليه سليمان بن عبـــد الملك ــ وكان ولى عهـــد الخلافة ــ ألا يعجل بالقدوم على دمشق ، بسبب اشتداد المرض على الخليفة الوليد وقتذاك . لكن موسى عجل السير برغم أوامر ولى العهد ، وقدم دمشق والخليفة الوليد حى ، فأحسن لقـاءه واستولى على مامعه من الاموال . ثم لم يمض غير أيام حتى توفى الوليد وتولى سليمـان ، فأقبل الخليفـة الجـــديد على موسى يستقصى حسابه ، وألزمه اموالا جساما عجز عن أدائها واضطر الى سؤال قومه من العرب ، وما زال يعانى الذلة والفـاقة حتى توفى بوادى القرى من ارض الحجاز ســـنة ٩٨ هـ . اما طارق فانه على مايظهر دخل فى غمار الناس ونسى أمره .

مما تقدم يتضح ان الحزب الموالى للاسرة القوطية المالـكة فى

اسبانيا لم يدرك ما آمله من المسلمين ، ماعدا أن يليان وأفراد البيت القوطى صاروا أصحاب اقطاعات واسعة قنعوا بهـا ، واخلدوا الى المعيشة الهادئة الوادعة فى ظل الولاية الاسلامية الجديدة فى الاندلس .

غزوات العرب فى بلاد غاليا (١) (فرنسا)

اسباب هذه الغزوات :

حفز ولاة الاندلس بعد موسى بن نصير الى غزو غاليا الحلم الذى راود خيال موسى بن نصير من عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق أوروبا الجنوبية ، وفوق ذلك فان شهوةالتوسع فى السلطان ، وشهوة الاستحواذ على النفائس والاموال المذخورة فى الاديرة والكنائس ، كل ذلك مما جعل ولاة الاندلس يحرصون على هذا الغزو . وزادهم حرصا وتصميما ماكانت تعانيه بلاد غاليا آنئذ من الانقسام والاضطراب ، فالحروب متصلة بينالملوك الميروفنجيين أصحاب معظم غاليا ودوقات أكويتانيا فى الجنوب الغربى منها .

أهم الغزوات :

واول وال اندلسى عبر البرانس وغزا غاليا هو السمح بنمالك الخولانى (١٠٠ ــ ١٠٢ هـ) فانه غزا اقليم سبتمانية ــ أو اقليم

---

(١) هذا هو الاسم الرومانى القديم (Gallia) لفرنسا الحالية ، أما اسم فرنسا فاشتقاقه من اسم قبائل ملوكها ، اى الفرنجة الميروفنجيين .

المدن السبع. بين غاليا واسبانيا وتقدم السماح اليه اربونة عاصمة ذلك الاقليم فحاصرها ثم استولى عليها ، ثم سار شمالا بغرب ودخل دوقية أكويتانيا وحاصر مدينة طلوشة (تولوز) . ونشبت بين الفريقين وقعة كبيرة قتل فيها السمح وهزم جيشه . وولى الجند على انفسهم عبد الرحمن الغافقى فتراجع بفلول الجيش الى اربونة .

وتجددت المحاولة فى عهد الامير عنبسة بن سحيم الكلبى (١٠٣ — ١٠٧) فعبر البرانس واستولى على مدينة قرقشونة وسائر مدن سبتمانية ، ثم سار وساحل البحر المتوسط مشرقا حتى بلغ نهر ردونة (الرون) ، فاتبعه مصعدا حتى بلغ مدينة ليون فاستولى عليها ثم دخل عنبسة اقليم برغونة (برجندية) وأمعن فيه حتى وصل الى مدينة أوتون ، على ان اهل البلاد قطعوا عليه خط رجعته وناوشوه القتال فقتل عنبسة كذلك ، وتراجعت فلول الجيش الى اربونة .

وقعة بلاط الشهداء أو تور — بواتييه :

ثم تجددت المحاولة مرة أخرى فى ولاية عبد الرحمن الغافقى (١١١ — ١١٤ هـ) ، اذ شهد هزيمة الجيش الاندلسى عند طلوشة ، وأراد ان يمسح عارها فعبر البرانس ، ومضى حتى استولى على مدينة برديل (بردو) ثم عبر نهرى جارون ودردون ، وتقدم الى مدينة بواتييه وركز علم بنى امية الابيض امام أسوارها .

وادرم شـــارل مارتـــل وزير الـــدولة الميروفنجيـــة فى غاليـــا أهميـــة الحـــرب وخطـــر العـــرب فتقـــدم فى جيش جرمانى لدفع الخطر الداهم . واخـــيرا تراءى الجيشان فى متسع بين مدينتى تور وبواتييه ، فانشب عبدالرحمن الغافقى الحرب ، فانطلقت خيل المسلمين على صفوف الفرنجة المرصوصة فاثرت عليها تأثيرا كبيرا . غير ان حركة التفاف حول احد جناحى المسلمين بغية الاستيلاء على معسكرهم بما فيه من المؤن والغنائم أدت الى تخلى كثير من الجند الاسلامى عن مواقفه ، للمحافظة على الاموال والغنائم . وعند ذلك ضاعف الفرنجـــة جهودهم ، فحاول عبد الرحمن الغافقى تلافى الحال ، واســـتهدف للعـــدو فخر قتيلا . ثم حجز الليل بين الفريقين ، فلم يجد العرب بدا من الانسحاب تحت جنح الظـــلام تاركين خيامهم واثقـــالهم (١١٤ هـ ، ٧٣٢ م) .

تلك وقعة تور — بواتييه فى التواريخ الاوروبية ، أو وقعـــة بلاط الشهداء فى المراجع العربيـــة . ويعلق عليهـــا المؤرخون الاوروبيون أهمية كبيرة ، ويرونها من الوقائع الفاصلة فى التاريخ الاوروبى لانها صدت تيار الفتح الاســـلامى عن غرب أوروبا . ومهما يكن من شىء فلا شك أن هزيمة العرب فى بلاط الشهداء غربا وارتدادهم عن القسطنطينية شرقا ، وضع حدا لمحاولتهم غزو أوروبا من هاتين الجهتين ، فان كان ولا بد فليكن الغزو من الوسط : من ناحية مصر وافريقية .

فتح جزائر البحر الابيض المتوسط
وجنوب ايطاليـــا

بدأ مشروع غزو أوروبا من الوسط زمن الخلافة العباسـية ببغداد ، على يد جمـاعة كبيرة من مهـاجرى الاندلس الذين استولوا على الاسكندرية بقيـادة زعيمهم أبى حفص عمر بن شعيب سنة ٨١٨ — ٨١٩ م ، وأقاموا بها حكومة شبه جمهورية مدة ست سنوات ، وذلك فى أوائل عهد الخليفة المأمون . فلما فرغ المأمون من امور المشرق بعث عبد الله بن طاهر واليا على مصر ، فحاصر الاسكندرية حتى عرض عليـه الاندلسيون أن يجلوا عنها ويسيروا الى اقريطش(كريت) ، على أن يعينهم الامير على ذلك . فأجابهم عبد الله بن طاهر الى طلبهم من المؤونة والذخيرة ، وركبوا البحر فى اربعـين سفينة بقيادة زعيمهم ابى حفص ؛ ونزلوا ببعض مرافىء اقريطش دون أن يجدوا مقاومة تذكر من الاهلين الذين نقموا على سادتهم الاباطرة البيزنطيـين ظلمهم واضطهادهم . ثم اختط أبو حفص سنة ٢١٢هـ مدينة اتخذها مقرا لحكومته ، وأحاطها بخندق ، ومن ثم عرفت هذه المدينـة باسم كنديا وهو لفظ محرف عن كلمة الخندق العربية .

وأخـذ أولئك المسلمون الاندلسيون يغزون الجزر القريبـة من اقريطش ، ثم وسعوا نطاق غزوهم فى بحر ايجة شرقا وغربا ، وحاولت الدولة البيزنطيـة غير مرة ارتجـاع اقريطش وطرد العرب منها ، فباءت حملاتها كلها بالفشل ، وذلك لضعف البحرية

البيزنطية اذ ذاك ، ولان مسلمى اقريطش كانت تصلهم الامداد تباعا من مصر . واستمر حكم الجزيرة فى ذرية أبى حفص الى أن تمكن البيزنطيون اخيرا من ارتجاعهـا فى منتصف القـرن الرابع الهجرى .

وامتدت فتوح المسلمين الى جزيرة صـقلية ، وهى كذلك تابعة للامبراطورية البيزنطية ، والسبب المباشر لفتحها أن قائدا بحريا من قادة البحرية البيزنطية فى الجزيرة ، واسمه يوفيميوس ، أوفيمى فى المراجع العربية حدثته نفسـه بالخروج على الدولة والتلقب بلقب امبراطور . ولـكنه لم يستطع بالقوة التى أطاعته أن يمضى فى التمرد ، فلجـأ الى زيادة الله الاغلبى أمير القيروان وعرض عليه أن ينصره فاذا تم لهملك صقلية أدى اليه الجزية .

ورات حكومة القيروان الفرصة سانحة لتملك الجزيرة الكبيرة ذات الموقع الجغرافى الممتاز ، فأعدت حملة بحرية راست عليها قاضى القيروان ، أسد بن الفرات . وكانت مؤلفة من ١٠٫٠٠٠ راجل ، ٧٠٠ فارس وتقلها مائة سـفينة ، فوصلت شـواطىء صقليـة ٣١٢ هـ - ٨٢٧ م . ثم وقع شجـار بين بعض الجنود المسلمين وجند فيمى ، فانتهز هذه الفرصـة قائد الحاميـة الامبراطورية واسمه فى المراجع العربية بلاطة وهاجم جيش أسد ابن الفرات ، دون أن ينتصر عليه .

ثم تحرك أسد نحو سرقوسة وحاصرها برا وبحرا ، فأوعز

الامبراطور ميخائيل الثانى الى حكومة البندقية أن تمدها بنجدة لعجزه عن القيام بذلك وقتذاك ، لكن نجدة البنادقة لم تصنع شيئا ، بالقياس الى الطاعون الذى تفشى فى الجيش الاسلامى عند سرقوسة ، وكان من جملة ضحاياه القاضى أسد بن الفرات نفسه ، ولذا تراجع المسلمون عنها سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . ثم خف الطاعون ، فتحرك الجيش الاسلامى بعد أن تفرع فرعين ، فسار أحدهما غربا واستولى على جرجنت ، والآخر الى قصريانة . وفى تلك الاثناء وردت حملة أرسلها الامبراطور ميخائيل الثانى أخيرا نجدة لسرقوسة ، فحاربت المسلمين حتى أجلتهم عن كل المواقع التى احتلوها ماعدا مازر ومينو . وكان من حسن حظ المسلمين أن وردت عليهم نجدة من افريقية والاندلس ، وبذلك استطاعوا أن يحاربوا الحملة الامبراطورية ويهزموها ، وأن يزحفوا الى مدينة بلرم ويستولوا عليها خريف سنة ٢١٦هـ ، ٨٣١م ، وهى قاعدة حربية هامة وميناء بحرى ممتاز ، ولذلك يعتبر استيلاء المسلمين عليها نهاية المرحلة الاولى من مراحل فتحهم صقلية ؛ بدليل اعلان حكومة القيروان بأن مافتح من صقلية اقليما اسلاميا وشروعها فى تنظيمه اداريا .

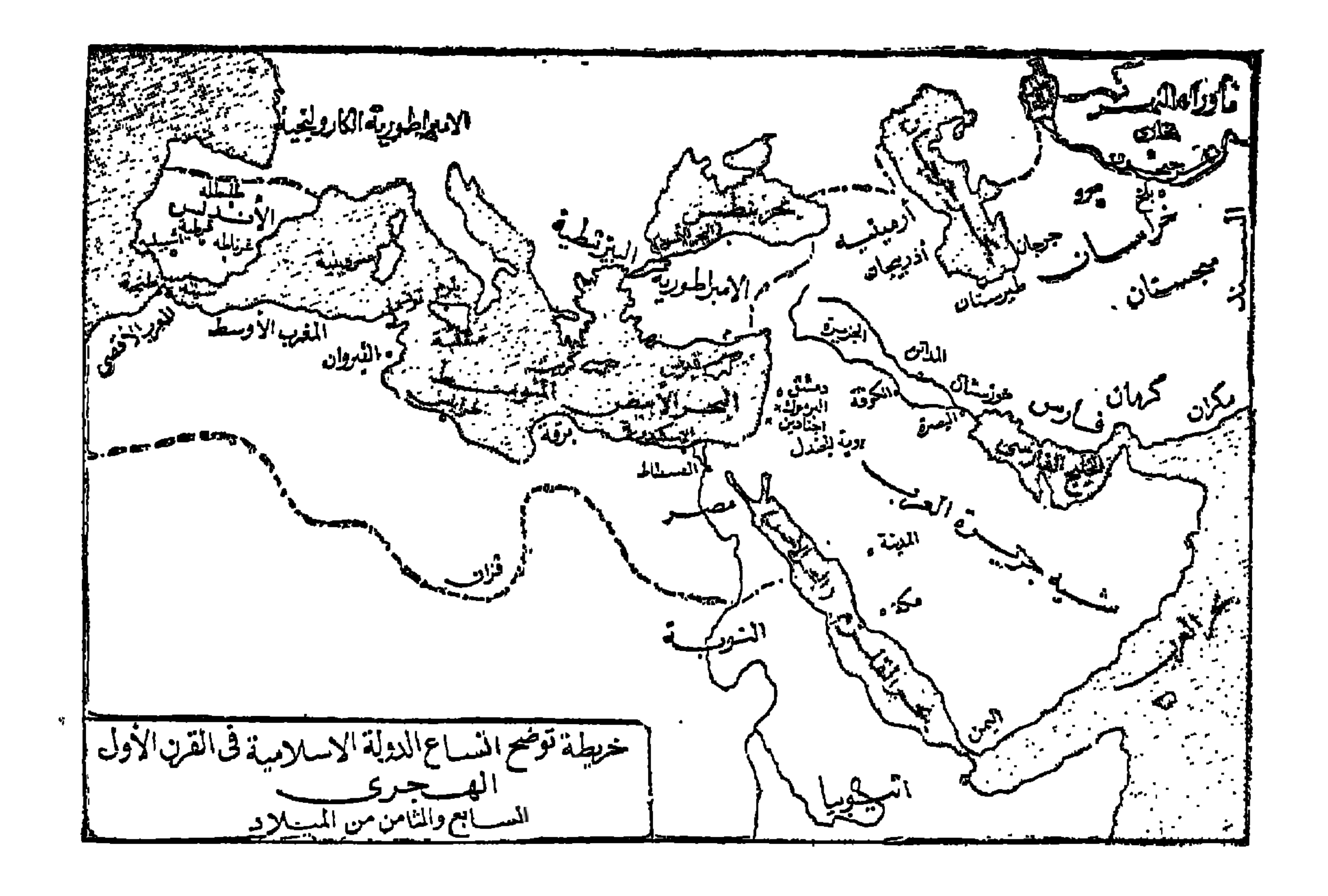
أما المرحلة الثانية فتنتهى باستيلاء المسلمين على مسينا ، اذ أصبحوا ولهم السيطرة على غرب الجزيرة فوق أنهم يملكون المدينة الرئيسية فى الشمال الغربى ، أى بلرم . وبعد سنوات قلائل استولى المسلمون على رجوسة ، وبذلك حصلوا على موقع

ينفذون منه الى الجنوب الشرقى للجزيرة . وأخيرا فتح المسلمون امنع مدن صقلية وهى قصريانه سنة ٨٥٩م ، وكان فتح تلك المدينة الخطوة الحاسمة فى فتح الجزيرة .

وراع حكومة القسطنطينية سقوط قصريانة ، فجردت حملة بحرية قوية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة حربية ، ووصلت هذه الحملة الى سرقوسة . غير أن المسلمين زحفوا الى الجيش الذى انزلته هذه الحملة المذكورة ، وانزلوا به الهزيمة على مقربة من سرقوسة . ثم استولى المسلمون على مواقع ثانوية لم تكن سقطت بعد ، وختموا كل ذلك بالاستيلاء على سرقوسة فى عهد الامبراطور باسيل الاول ، فتم لهم بذلك فتح صقلية كلها .

فتح جنوب ايطاليا :

ولم تكد تمضى عشر سنوات على مشروع فتح المسلمين صقلية حتى اخذوا يتطلعون الى فتح جنوب ايطاليا ، وكما أن الحافز لهم على غزو صقلية جاء من صقلية نفسها فكذلك جاء الحافز لهم على غزو جنوب ايطاليا من أصحاب جنوب ايطاليا . حين تحاربت أمارة نابلى ودوقية بنفنت اللمبردية ، وطلبت نابلى العون على عدوها من حاكم بلرم العربى . ولبى هذا الحاكم الدعوة ، وأرسل اسطوله لنجدة نابلى ، ولم يلبث المسلمون أن اتبعوا ذلك بالاستيلاء على برنديزى ، وبدأوا ينظمون فتوحهم الجديدة (٨٤٠م) . وهنا تدخلت البندقية بايعاز من حكومة القسطنطينية ، لان تطرق البحرية الاسلامية الى البحر الادرياتى يهدد سلامتها ،


خريطة توضح اتساع الدولة الإسلامية فى القرن الأول
الهجرى
السابع والثامن من الميلاد
الامبراطورية الكارولنجية
الأندلس
قرطبة
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
القيروان
برقة
البحر الأبيض
الامبراطورية البيزنطية
أرمينية
أذربيجان
طبرستان
جرجان
خراسان
سجستان
مرو
بلخ
ماوراء النهر
السند
مكران
كرمان
فارس
خوزستان
المدائن
الجزيرة
الكوفة
البصرة
دمشق
اليرموك
أجنادين
دومة الجندل
الفسطاط
مصر
فزان
النوبة
المدينة
مكة
شبه جزيرة العرب
اليمن
الحبشة

فأرسلت عددا من سفنها الحربيـــة الى خليج تارنتم . غير أن السفن الاسلامية استطاعت أن تتغلب على هذه الحمـــلة ، بل استولى المسلمون على ثغر بارى كذلك سنة ٨٤١ م . وهنـــا ادركت امارة نابلى خطر المسلمين ، فكونت حلفـــا من الامارات بجنوب شبه جزيرة ايطاليا لوقف ذلك الخطر . وأدرك البـــابا جريجورى الرابع كذلك أن المسلمين سوف يطرقون رومية عاجلا أو آجلا ، ولذلك انشأ حولها سورا وخندقا . وصح ما توقعـــه البـــابا قبـــل أن تمضى على وفاته مدة طويلة وذلك حين ظهـــر المســـلمون أمام أسوار رومية سنة ٨٤٦ م ، فصـــدهم حاكم سبوليتو بعد أن انتهبوا كنيستى القديســـين بولس وبطرس ، وكانتا واقعتين خارج الاسوار . على أن تهـديد العرب لرومية ، ورغبة أمير نابلى وامبراطور القسطنطينية وأحلافهما فى القيـــام بعمل مشترك ازاء العرب حرك الامبراطور الجرمانى لوثار كذلك الى العمل على طرد العرب من جنوب ايطاليـــا لمصلحته . ومع هذا كله ظل المسلمون فى جنوب ايطاليـــا وفى صقلية حتى الفتح النورمانى لهذين الاقليمين أواسط القرن الحادى عشر الميلادى .»

انتشار الاسلام واللغة العربية

الاسلام :

اتسعت الدولة العربية الاسلامية كما اتسعت الامبراطوريات الكبيرة فى كل العصور وبنفس الطريقة غالبا ، أى طريقة الفتح والتغلب الحربى الذى اخذ شكل هجرة عربية عامة ، على مثـــال

الهجرات الكبيرة المعروفة فى التاريخ . لكن التوسع العربى صاحبته ظاهرة قوية هى ظاهرة انتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة ومن ثم التبس الامر على بعض الكتاب والمؤرخين الاوروبيين فى العصور الوسطى والحديثة حتى اخريات القرن الماضى ، فظنوا أن الدين الاسلامى انتشر بالفتح الحربى ، او على حد قولهم « انتشر بالسيف » ، مع أن الاسلام دين ذو عقائد ومبادىء ، والعقائد والمبادىء لا تنمو وتنتشر بالعنف والاكراه ، بل بالاقناع والاقتناع . ثم أن القرآن أوجب اصطناع الرفق فى بث الدعوة الاسلامية «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» ، « وجادلهم بالتى هى أحسن » ، « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . وسار الرسول والخلفاء الراشدون بعده فى نشر الدعوة الاسلامية على هدى هذه الآيات الصريحة . ويكاد تاريخ الدولة الاسلامية كله لا يعرف حالة واحدة اكره فيها شخص على اعتناق الاسلام (١) ، ما عدا كفار شبه الجزيرة العربية ، فانهم لم يقبل منهم الا الاسلام او السيف ، لا الجزية .

واذن فينبغى أن نفرق بين التوسع العربى من طريق الفتح الحربى فى مختلف الاقطار ، وانتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة. والاقطار التى شملها التوسع العربى يمكن تقسيمها قسمين (١) أقطار تغلب على سكانها النصرانية ومعها اليهودية (٢) واقطار أخرى تغلب على سكانها ديانتان اخريان هما الزرادشتية والبوذية .

انتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة التى تغلب عليها النصرانيـة (ومعها اليهودية) :

فالاقطار التى تغلب على أهلها النصرانيـة (ومعها اليهودية) وهى الشام ومصر وشمال افريقية واسـبانيا ، انتشر فيها الاسلام لانه يعترف بالنصرانيـة واليهودية دينين سـماويين موحدين . والقرآن يشيد بذكرى التوراة والانجيل ، ويمجـد ذكرى الرسـولين موسى وعيسى والسيدة مريم أم المسـيح كل التمجيد . لذلك اعتبر المسلمون النصارى واليهود « أهل ذمة » و « أهل كتاب » وأقروهم على ديانتهم على شريطة أداء الجزية التى تعفيهم من الخدمة العسكرية . فاعترف الاسلام بالنصرانية واليهودية على هـذا النحو الرائع مما قرب مسافة الخلف بينه وبينهما فى العصر الاسلامى الاول خاصة ، وسـهل النقلة من اليهودية أو النصرانية الى الاسلام .

ثم اذا اعتبرنا بساطة العقيدة الاسلامية وسرعة تقبل العقـل لها ، وقارنا هذه العقيدة الاسلاميـة بتعاليم اليهودية والمذاهب المسيحيـة التى تأثرت بالفلسـفة الاغريقيـة حتى أصـبحت صعبة على افهام أوساط الناس فضلا عن العامة ، وجدنا دافعا آخر لانتشار الاسلام فى جمـاهير النصارى خاصـة فى العصر الاسـلامى الاول .

وتأتى بعـد ذلك أسباب مادية وأخـرى اجتماعيـة ، فرغبة كثير من فقراء أهل الذمة فى الخلاص من الجزية كانت سببا فى

اعتناقهم الاسلام ، كما أن حال بعض الطبقات العاملة والعبيد كانت من البؤس والانحطاط الاجتماعى بحيث دفعها بؤسها وانحطاط حالها الاجتماعية الى اعتناق الاسلام الذى يصرح بأن المسلمين سواء ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى . والحق أن مسألة الخلاص من الجزية كانت السبب فى اقبال كثير من اهل الذمة على اعتناق الاسلام ، حتى هال الدولة الأموية فى أواخر القرن الاول الهجرى تناقص مبلغ الجزية ، فلم تأبه لاسلام من اسلم من أهل الذمة ، واخذته على الرغم من اسلامه بأداء الجزية . لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر برفع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة ، وقال مقالته المشهورة « ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » .

انتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة الاخرى :

هذه الاقطار هى ايران والهند ، فأما ايران فكانت ديانتها وقت الفتح هى الزرادشتية ، وأما الهند فكانت ديانتها البوذية . وكلتا الديانتين تأمر بفعل الخير وتنهى عن فعل الشر ، ولذلك فان الفاتحين من المسلمين أنزلوا اتباع الديانتين المذكورتين منزلة أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فقبلوا منهم الجزية وسمحوا لهم بالبقاء على عقيدتهم . غير أن فساد احوال الجماهير والطبقات العاملة فى ايران والهند وقتذاك ، واحتقار الخاصة ورجال الدين لهم واعتبارهم اياهم انجاسا ، أو شبه أنجاس ، كل ذلك مما حمل الناس على الدخول فى الاسلام أفواجا .

انتشار الاسلام بقوته الذاتية فى أقطار لم يفتحها المسلمون فتحا حربيا :

ولا أدل على خطأ الدعوى القائلة بأن الاسلام انتشر بالسيف من أن الدين الاسلامى انتشر فيما بعد فى أقطار شاسعة لم تغزها جيوش المسلمين — أى جزائر الملايو ، وأقاليم أفريقية الشرقية والغربية والصحارى الكبرى ، كما دخل الصين وأواسط آسيا حتى وصل الى أعماق سيبيريا ، كل ذلك بقوته الذاتية وعلى أيدى دعاة من التجار غير محترفين للدعوة أصلا ، وهو ما سوف نجده موضحا فى الفصل الأخير من هذا الكتاب . ثم ان بساطة المناسك الاسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وروعة الحضارة الاسلامية ممثلة فى مساجدها ومبراتها وعلومها وآدابها ، كل ذلك أدى الى اقبال أهل البلاد التى لم يفتحها المسلمون على اعتناق الاسلام طواعية دون عنف أو اكراه .

انتشار اللغة العربية

والظاهرة الاخرى الكبيرة التى صاحبت اتساع الدولة الاسلامية هى ظاهرة انتشار اللغة العربية بين أهل الاقطار المفتوحة انتشارا عاماسريعا . وتعليل ذلك أولا ان العرب بفتحهم العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقية اتصلوا بشعوب تتكلم لغات تمت الى العربية بصلة النسب من قريب

أو بعيد ، فمعظمها لغات سامية الاصل . وهذا التقــارب بين العربية وتلك اللغات مما سهل على أهل البلاد المفتوحـــة تعلم العربية والتكلم بها . ثم جاءت عوامل أخرى زادت من اقبــال أهل تلك البلاد على تعلم العربية ، فانتشار الدين الاسلامى فى الاقطار المفتوحة اقتضى مثلا أن يتعلم الموالى اللغة العربية وهم الذين اعتنقوا الاسلام من أبناء تلك الاقطار ، لانها لغــة القرآن الذى لابد من الالمام ببعض نصوصه لاقامة الصلاة وفهم أصــول الاسلام . ثم أن الدولة عربية لغتها الرسمية هى العربية ، فلابد من تعلم العربية لمن أراد أن يتقلد عمــلا رســميا أو منصـــبا حكوميا ولو كان من غير المسلمين .

وعلى ذلك أقبل شباب أهل البلاد من موال وأهل ذمة على تعلم العربية لهذا الغرض ، وحذق أفراد من الموالى اللغة العربية أواخر القرن الاول الى درجة أن عبد الملك بن مروان رأى أن ينقل الدواوين من الغات الاجنبية التى تكتب بها منذ الفتح الى اللغة العربية ، فتم فى عهده نقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية ، وديوان الشام وفلسطين من الرومية (اليونانية) الى العربية . وفى عهد ابنه الوليد تم نقل ديوان مصر من الرومية والقبطية الى العربية ، وأخذ الاقباط أنفسهم يتكلمون اللغة العربية .

انتشار العربية فى أهل الذمة :

وليس أدل على اقبال غير المسلمين من أهل البلاد المفتوحة على تعلم العربية من شكوى كاتب أســبانى مسيحى فى أوائل القرن

الثالث الهجرى من انصراف الشباب الاســبانى المسيحى عن اللاتينية انصرافا تاما ، واقباله على دراسة العربية وآدابهـا ؛ والبراعة فيها الى درجة أن أفرادا منهم أصـبحوا يستطيعون الـكتابة بها نثرا ونظما كالعرب سواء بسواء .

تأسيس الدولة الاسلامية

الجماعة الاسلامية :

قامت الدعوة الاسلامية فى الدور المكى الاول من حياة الرسول دينية خالصة لا تستند الى شىء سوى قوة الاقناع والموعظة الحسنة ، واستجاب لها من أول الامر بعض أقرباء الرسول وأصدقائه الذين اعتقدوا صدق دعوته ونبوته . ثم دخل فيها غير واحد من بطون قريش ، فتكونت من ذلك جماعة أصبحت الدعوة الجديدة أساس تكوينها .

اتجاه جديد للدعوة والجماعة :

غير أن الرسول راى الغالبية العظمى من قومه تعارض دعوته وتتمسك بنظامها القديم ، مع ما فيه من فساد وانحطاط ، ورآها بعد ذلك تتحول من المعارضة الى اضطهاد اصحابه الذين دخلوا فى دعوته ، ثم الى اضطهاده هو آخر الامر . فراى أن يبث الدعوة فى خارج مكة وفى غير قريش ، فآمن برسالته ودعوته نفر من حجاج الاوس والخزرج سكان يثرب (المدينة) ، وتمت بينه وبينهم بيعتا العقبة الاولى والثانية ، على أن يهاجر الرسول الى يثرب ، وأن يتولوا هم وقومهم حمايته وحماية دعوته ممن يريده أو يريدها باذى او عدوان . وبهذه المبايعة أخذت الجماعة الاسلامية تتجه اتجاها جديدا .

الجماعة الاسلامية فى الدور المدنى وتأسيس الدولة الاسلامية :

فلما هاجر الرسول من مكة الى المدينة واصبح على رأس جماعة مختلطة من المهاجرين من قريش ، ومن الانصار وهم مسلمو الاوس والخزرج واليهود الذين سكنوا فى المدينة معهم ، بادر الرسول تمشياً مع مقتضيات الاحوال الجديدة الى تنظيم الشئون العامة لهذه الجماعة المختلطة . فاختط عليه السلام مسجدا يؤدى فيه المسلمون فريضة الصلاة ويدبرون فيه أمورهم العامة ، كما وضع دستورا ضمنه مبادىء عامة يتبعها أهل المدينة جميعا فى أمور الحرب والسلم ، والديات والفصل فى الخصومات وشئون الميراث ، وتوفير الامن العام للجماعة . ويعتبر ذلك كله فى الحقيقة تحولا للجماعة التى بدات دينية خالصة فى الدور المكى الاول الى جماعة دينية سياسية فى المدينة . كما تعتبر تأسيسا للدولة الاسلامية التى نمت نموها التاريخى المشهور .

قيام الخلافة الاسلامية :

وفى العام الثانى للهجرة شرع الرسول فى الجهاد فى سبيل نشر الدين الاسلامى ، أى الحرب ، دفاعا عن الدعوة الاسلامية واصحابها . وتكفلت السور القرآنية بتنظيم شئون الحرب ، من حيث ابتدائها والسير فيها وانتهائها وتوزيع الغنائم ومعاملة الاسرى كما تضمن القرآن فيما بعد طريقة معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن لم يسلم من العرب ، والنص على العقوبات التى

توقع فى أحوال الجرائم الكبرى ، وذكر الاحزاب المختلفة من مهاجرين وانصار ومنافقين ويهود ، وتنظيم المعاملات المدنية وأحوال الاسرة وذلك فى كثير من الدقة والتفصيل .

وبذلك تكامل للدولة الاسلامية الجديدة كل مقومات الدولة الاساسية من (١) وطن (٢) وسكان (٣) ونظام أو قانون (٤) وهدف مشترك هو فى حال الدولة الاسلامية نشر الدعوة وحماية النظام الجديد . وقام الرسول على رأس الدولة ، فاجتمعت على حد تعبيرنا جميع السلطات فى شخصه عليه السلام ، فهو من الناحية الدينية يتلقى الوحى ويبلغه ، ومن ناحية ثانية يقود الجيوش ويعقد المعاهدات ومن ناحية ثالثة يفصل فى الخصومات ويوزع الاموال ويرعى ماجل ودق من أمور الجماعة . والحكومة التى من هذا القبيل يقال لها حكومة دينية أو ثيوقراطية لانها تقوم على اساس دينى .

تطور الدولة الاسلامية
على عهد الخلفاء الراشدين

قيام الخلافة الاسلامية :

فلما قبض عليه السلام دون أن ينص صراحة على النظام الذى يتبع من بعده فى رياسة الدولة الاسلامية ، واجه أهل المدينة مشكلة بالغة الخطر ، وهى من يخلف النبى فى رياسة الدولة الاسلامية ؟ وقبل أن يتم تجهيز جثمان النبى ودفنه —

أسرع الانصار فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يسبقوا المهاجرين الى البت فى الامر باختيار رجل منهم ، ورشحت الخزرج للامر بالفعل سعد بن عبادة . وبلغ المهاجرين اجتماع الانصار بالسقيفة فخافوا افتراق الكلمة ووقوع الفتنة ، فترك بعضهم ما كانوا فيه من تجهيز جثمان النبى ، واسرع الى مكان الاجتماع ثلاثة من اقطابهم ، وهم ابو بكر الصديق ، وعمربن الخطاب ، وابو عبيدة بن الجراح .

وتبادل قادة الفريقين الخطب والعبارات الشديدة ، فى اجتماع السقيفة ، لكن التنافس القديمبين الاوس والخزرج عاد الى الظهور فى ذلك الظرف العصيب فأضعف ذلك من جانب الانصار . وانتهز الفرصة عمر بن الخطاب رجل الموقف فى ذلك اليوم ، فتقدم الصفوف الى ابى بكر فبايعه وتتابع المهاجرون من بعده يبايعونه ، وقدمت قبائل أسلم وغفار ومزينة النازلة بالقرب من المدينة فبايعت ، ثم تقدمت الأوس فبايعت لتقطع علي الخزرج ما أرادت ، وأخيرا بايعت الخزرج كذلك على كره منها . ثم بايع الناس فى اليوم التالى ابا بكر فى المسجد بيعة عامة ، وذلك بعد أن تم تجهيز جثمان النبى ودفنه. ثم استقر الرأى علىان يكون لقب أبى بكر خليفة رسول الله . وهكذا انفرجت الازمة وكتب للدولة الاسلامية البقاء ، وهكذا قام نظام الخلافة الذى استمر من ذلك اليوم التاريخى الى أن الغاه الاتراك العثمانيون سنة ١٩٢٤ م . وازدادتالدولةالاسلامية رسوخا بقمع أبى بكر لحركة

الردة فى السنة الاولى من خلافته فان العرب عامة خارج الحجاز اعتقدوا أن الاسلام بعد وفاة الرسول أصبح دينا فقط لا دينا ودولة ، وهو ما اعتقد به أهل المدينة ، ولذلك منع اولئك العرب الزكاة وعجبوا من مبايعة أهل المدينة أبا بكر .

الخلفاء الاربعة :

والخلفاء الاربعة الاولون انتخب كل واحد منهم للخلافة انتخابا ، فلما مرض أبو بكر مرضه الذى توفى فيه رشح للامر بعده عمر بن الخطاب ، واقرت الجماعة ترشيحه وبايعت عمر . ولما طعن عمر بن الخطاب عين ستة من الصحابة سموا أهل الشورى ، ليختاروا من بينهم واحدا منهم للخلافة ، فاختير عثمان بن عفان . ولما قتل عثمان اختار الثوار على بن أبى طالب، وبايعه معظم الناس .

حكومة ثيوقراطية :

ولم يأل كل خليفة من الخلفاء الاربعة جهدا فى الاخذ بسنة الرسول فى الحدب على صالح الامة الاسلامية ، ورعاية أمورها صغيرة كانت أو كبيرة ، مع بساطة المعيشة والزهد التام فى زخرف الدنيا ، والبعد عن أبهة السلطان وجبروته ، برغم اتساع الفتوح وتدفق الاموال . وعلى ذلك فان الدولة على عهدهم لم تزل صفتها الدينية ماثلة كما كانت على عهد الرسول ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، فان الرسول له صفة النبوة والرسالة اما الخلفاء الاربعة فلم تكن لهم هذه الصفة بطبيعة الحال .

الخلافة على عهد الدولة الاموية

غير أن الطابع الدينى الذى اتصفت به الدولة على عهد الخلفاء الاربعة لم يلبث أن أخذ يضعف شيئا فشيئا . فان الدولة اتسعت اتساعا عظيما سريعا ، وتعقدت مسائلها الاقتصادية ، وتعددت مشاكلها السياسية ، ووقع من الاحداث الدامية شيىء غير قليل : من مقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانقسام الناس فى خلافة على بن أبى طالب ، ومحاربته وخروج الخوارج عليه . كل ذلك جعل الرأى العام يرى أن لا بد من تغيير فى السياسة لمواجهة الاحوال الجديدة .

انقلاب الخلافة الى الملك :

والواقع أن هذا هو جوهر النزاع بين على ومعاوية ، اذ استمسك الامام على بنظام الخلافة القديم من حيث الشدة فى الدين والصرامة فى الحق ، فيتورع عن انفاق درهم من مال الدولة فى غير موضعه ، وكره أن يرى درهما يؤخذ من مال الدولة بغير حق . أما معاوية فاصطنع الدهاء والحيلة فى تنفيذ أغراضه ، ولا يتحاشى أن يبذل الاموال فى تحقيق مطالبه ، وحارب عليا بهذه الاسلحة ففاز فى النهاية ، وأخذ كثير من رجالات على يهجرون جانبه وينحازون الى جانب معاوية .

ومضى معاوية فى خلافته على هذه السياسة ، فاستعان فى ضبط الدولة بدهاة الرجال ومنهم عمرو بن العاص والمغيرة بن

شعبة وزياد بن أبى سفيان ، فوطأوا أكناف دولتـه بما أوتوا من دهاء وسياسة . وقطع معاوية ألسنة الخطباء والشعراء الهجائين لا بالسيف بل بالمال ، ويستل الاحقاد من صدور أعدائه بالمـال كذلك ينفقه بغير حساب . كل ذلك مهـد له الامور فجلس على السرير كما كان يفعـل أباطرة البيزنطيين ، واتخـذ فى المسجد مقصورة يصلى فيها والحرس عليه وقوف .

ولما تقدمت بمعاوية السن عقد البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، مخالفا بذلك سنة الخلفاء الاربعة ، فانساقت الخلافة فى بنى أمية حتى سنة ١٣٢ هـ . فأنت ترى أن معاوية أخذ الخلافة بالغلبـة والقهر لابالانتخابات والشورى ، وساسهابالدهاء والحيلةوالبطش عند اللزوم ، وسن سنة الحكم الموروث من غير سابقة فى الاسلام ، وسار كبار خلفاء بنى أمية بسيرة معاوية ، وان لم يكن لهم حلمه وكياسته ومهارة تصريفه للامور .

ويعد المؤرخون الاسلاميون على بن أبى طالب آخر الخلفـاء ، ومعاوية بن أبى سفيان أول الملوك ، لان الملك يباين الخلافة من وجوه كثيرة ، فالخلافة انتخاب وشورى ، واستمساك بالدين فى تصريف شئون الدولة بالعدل ، والملك غلبـة ودهاء واعتداد بالعصبية ، سواء أكانت عصبية الاسرة أم عصبية القبيـلة ، وهو لا بأس به مادامت غايته المصلحة العامة . أما اذا قصـد بالملك أن ينغمس صاحبه فى الترف والتنعم باللاد ، وارضاء الشهوات واصطناع العصبية العمياء ، كان ملكا مذموما امره الى زوال .

وللمؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون فصل مشهور في مقدمته عن انقلاب الخلافة الى الملك . على أن الخلافة لم تنقلب الى ملك فحسب ، بل صارت ملكا عربيا ، وذلك لان بني أمية تعصبوا للعرب على سائر الاجناس التي تشتمل عليها دولتهم ، وهي بحق المملكة العربية الممتازة في العصور الوسطى . وبانتقال الخلافة الى الامويين الذين انشأوا مجدهم في الاسلام ببلاد الشام انتقل محور الارتكاز في الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام فاستقر فيها طوال عهدهم ، وحاول الحجاز ايام آل الزبير، وفي صدر الدولة العباسية ، ارتجاع نفوذه السياسي لكن محاولته ذهبت سدى ، فانه أدى دوره التاريخي العظيم ، وكان لابد له من ان يقنع بأنه أصبح بلادا مقدسة ، ينعم أهله وزواره بما فيه من ذكريات وآثار روحية خالدة ، ويترك الزعامة السياسية والمادية لاقطار أخرى .

الخلافة على عهد الدولة العباسية
(١٣٢ – ٦٥٦ هـ)

الاحزاب المعارضة للامويين :

حمل لواء المعارضة ضد الامويين ثلاثة أحزاب ، هم (١) العلويون (٢) الخوارج (٣) الموالي .

أما العلويون وهم ذرية الامام علي وزوجته فاطمة بنت الرسول فرأوا أنهم أحق بالخلافة من بني أمية ، لانهم يجري في عروقهم الدم النبوي الطاهر ، وقام العلويون من حين لآخر بحركات ثورية

قابلها الامويون بالقمع والشدة، فكان الفشل نصيب هذه الحركات
وأما الخوارج وهم الذين خرجوا على الخليفة على بن أبى طالب
غداة وقعة صفين لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية ، فهم فرق
متعددة بين متطرفة ومعتدلة . وهم جميعا ديمقراطيون عميقون
فى ديموقراطيتهم ، يرون الخلافة حقا لمن هو اهل لها أيا كان نسبه أو
لونه أو جنسه . وينقمون من بنى أمية استبدادهم وعصبيتهم ،
وذهب متطرفة الخوارج الى حد تكفير الامويين ، بل الى تكفير
سائر المسلمين لانهم ليسوا على عقيدتهم . وحارب الامويون
أولئك المتطرفة من الخوارج حتى قضوا عليهم ، ولم يبق منهم
حزب تحسب الدولة له حسابا ، ماعدا طائفة الاباضية التى لاتزال
قائمة حتى العصر الحاضر . أما الموالى، وهم الذين اعتنقوا الاسلام
من العجم ، فنقموا من بنى أمية تعصبهم للعرب ، واحتقارهم لكل
من هو غير عربى . واشتدت نقمتهم حين ذهب الحجاج والى
الامويين بالعراق وغيره من عمال الدولة الى عدم الاعتداد بأسلامهم
وتقاضوا منهم الجزية مع أنهم جمهور أهل البلاد القائمون على
زراعة الارض ومعظم الصناعات والمتوفرون على تحصيل العلوم
والعمل فى دواوين الدولة . وابتدأ التقارب بين حزبى العلويين
والموالى فى أوائل الدولة الاموية على يد رجل يقال له المختار
ابن ابى عبيد الثقفى ، اذ قام هذا الرجل فى العراق يدعو الى محمد
ابن الحنفية (ابن على بن ابى طالب) . ورأى المختار ان يستعين
بالموالى فى صراعه مع الامويين فوعدهم النصفة والمساواة بينهم
وبين العرب فى الحقوق العامة . فانضموا اليه . وراقت دعوة

العلويين القائمة على نسبهم النبوى فى نظر الموالى ؛ لانهـا تتفق والنظرية الفارسية القديمة القائلة بانحصار الملك فى الأسرة الساسانية ، بحيث لايصح لاحد من خارجها أن يتولى الملك . وكلما اشـتد اضطهاد الامويين للعلويين ، ازداد التقارب بين العلويين والموالى ؛ واخيرا تم بينهم الامتزاج التام حتى أصبح معظم شيعة آل على من الموالى .

اما العباسيون ، وهم ذرية العباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام ، فلم يظهروا على مسرح الحوادث السياسية الكبرى فى القرن الاول الهجرى ، لانه لم يكن لهم من الاسباب مايدعوهم الى الظهور السياسى . ثم حدث فى أواخر ذلك القرن الاول أن اخذوا يدلون بدلوهم فى الدلاء ويضربون فى زحمة الحوادث لعلهم يصلون الى الخلافة . فانضـموا الى العلويين وشـيعتهم من الموالى وكونوا جمعيـة سرية تعمـل على قلب الدولة الاموية . وجعلت الدعوة «للرضا من آل محمد» وهى عبارة فيها كثير من التلبيس والغموض المقصود ، فان الرضـا أى شخص مرضى السيرة ، وآل محمـد يشملون العلويين والعباسيين . وانتشر الدعاة يعملون على تهيئة الاذهان فى الاقطار الشرقية ولا سيما خراسان حيث الـكثرة من الموالى وحيث العرب يحارب بعضهم بعضا بدعوى العصبية القبلية من يمنية ومضرية ، ولم يخامر العلويين والموالى أدنى شـك فى أن « الرضا فى آل محمد » لابد ان يكون شخصا علويا . وانتشرت الدعوة السرية أيما انتشار ، ولا سيما عندما تزعمها أبو مسـلم

الخراسانى . وصادف ذلك فساد أمر الدولة الاموية بانقسام البيت المالك على نفسه وانقسام العرب الى حزبين متعادبين يمنى ومضرى . ثم أعلنت الدعوة سنة ١٢٥ هـ وقاد أبو مسلم الخراسانى جيوش الموالى ، فاكتسح الاقاليم الشرقية حتى بلغ العراق سنة ١٣٢ هـ ، وعند ذلك برح الخلفاء وانكشف المستور ، فاذا الخليفة الجديدأمير المؤمنين ابوالعباس أول الخلفاءالعباسيين، فقد بويع بالخلافة فى ١٣ ربيع الاول من هذه السنة (اكتوبر ٧٤٩ م) . وسقط فى أيدى العلويين ، وعلموا بعد فوات الوقت انهم خدعوا ، فلاذوا بالصمت والسكون على مضض . وانتهت الدولة الاموية فى نفس السنة حين هزم جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن على ، وهو عم الخليفة العباسى الجديد ، جيشا أمويا بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

والخلاصة ان العباسيين وصلوا الى الخلافة من طريق الدهاء والقوة كما فعل الامويون قبلهم .غير انهم لم يتعصبوا للعرب ، كما تعصب لهم الامويون،بل اعتبروا العرب أولياء لبنى أمية ،فحرصوا على عدم الاستعانة بهم فى حركتهم الكبرى ، وآذن هذا الانقلاب بذهاب نفوذالعربالسياسىمنالدولة الاسلامية . علىأنالعباسيين تعصبوا للاسلام لا لجنس بعينه ، فالدولة الاموية هى الدولة العربية فى العصورالوسطى والدولة العباسية هى الدولةالاسلامية الكبرى فى تلك العصور ، وهى التى هيأ انتصارها للاسلام وحده أسباب الظهور لمختلف الاجناس التى تشتمل عليها الدولة

الاسلامية من فرس وترك وأكراد وسودان وغيرهم من المسلمين».

واول الاجناس ظهورا فى الدولة العباسية الفرس ، لانهم هم الذين قامت الدولة على أكتافهم. ووضع ذلك سريعا فى انتقال الخلافة من الشام الى العراق، ومن دمشق الى بغداد ، وفى انبعاث النظم الساسانية وآداب الفرس وعاداتهم القديمة فى مختلف الاقاليم . وأحيطت الخلافة فى عهد العباسيين بهالة من القداسة لم تكن لها لا زمن الامويين ولا زمن الخلفاء الاربعة ، فانهم لكى يثبتوا حقهم فى الخلافة ويدحضوا حجة العلويين،اعتبروا الخلافة أرثا عن الرسول ، واجروا عليها حكم الميراث الشرعى ، وهو ان العم مقدم على ابن البنت فى الميراث غير أن هذه القداسة أدت الى تلقيب الخليفة العباسى بلقب « خليفة الله » ، و « ظل الله فى الارض » ، وللخليفة المنصور العباسى كلام من هذا القبيل فى خطبة له . واحتفظ العباسيون بمخلفات النبى عليه السلام ، وهى البردة والقضيب وشعرات من شعره ، وقالوا بأن الحرمين ضمن دولتهم . وكانت مظاهر التقديس ، فضلا عن اعتبار الخلافة أرثا عن النبى هما السبب فى طول عمر الدولة العباسية ، وفى أن الخليفة العباسى كان فى أشد أوقات ضعفه يسعى اليه المتغلبون على الاقاليم يلتمسون منه التقليد المثبت لامارتهم على ما غلبوا عليه .

ثم وضح للعباسيين تزايد نفوذ الفرس ، وكانوا قد أقصوا العرب ، فلجأوا الى العنصر التركى ، فاستكثروا منهم فى الجيش

على عهد الخليفة المعتصم بالله ، غير أن العباسيين ما لبثوا أن لقوا من الاتراك عنتا شـــديدا ، وأصبحوا لانهى لهم معهم ولا أمر ، وانتهت الحال بأن أصبح الخليفة زمن الاتراك السلاجقة خليفة بالاسم فقط ، والنفوذ كله للسلطان السلجوقى وربما يقوم بين الجانبين من الصراع والمغالبة ما قام بين البابوات والاباطرة فى أوربا فى العصور الوسطى ، لولا أن كانت غارة التتـــار فى القرن السابع الهجرى فأتت على الدولة العباسية (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

نظم الدولة الاسلامية

الحكومة المركزية

الخلافـة

التعريف بها :

الخلافة نظام اسلامى لم يوجد عند غير المسلمين . وهو نظام سياسى أساسه الدين ، فالخليفة ينظر فى مصـــالح الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الدنيوية والاخروية .

شروطهـا :

قام نظام الخلافة يوم السقيفة . ووضع لها الفقهاء فيما بعد خمسة شروط استنبطوها من سير كبار الخلفاء ، وهى : العـلم والعـــدالة والكفاية ، وسلامة الحواس ، والنسب القرشى . واختلف الفقهاء فى الشرط الاخير ، فان الانصار تطلعوا اليها يوم السقيفة وهم ليسوا قرشيين ، كما أن الاتراك العثمانيين ادعوها وتولوها وأقرهم جمهور المسلمين عليـــها مع أنهم ليسوا عربا أصلا . ومهما يكن من شىء استقرت الخـــلافة طوال العصر الوسيط فى قريش ولم يتطلع اليها أحد من المتغلبين الاقوياء ، أمثال البويهيين والسلاجقة والغزنويين وغيرهم مـــع أنهم كانوا أقوى من الخلفاء فى عصرهم نفوذا وسلطانا .

فسن بذلك سنة الملك الموروث .

المبايعة بالخلافة :

ظلت الخلافة زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شورية ، وغلبت البساطة على مراسم الخلافة ، فبايع اهل العقد والحل ، وهم اذ ذاك أهل المدينة ، كلّ خليفة من الخلفاء الاربعة ، على العمل بالكتاب والسنة خاصة ، وكانت البيعة تتم مصافحة بالايدى كما يفعل المتبايعان عند العرب . وطريقـــة الخلفاء الراشدين تجمع بين الجمهورية والشورى والملكية . أما الجمهورية فلان الخليفـــة يختار من قريش بلا حصر ولاتعيين ، وهى شورية لان الانتخاب يتم بالشورى ، ولان الخليفة — لاسيما عمر بن الخطاب — كان يستشير أهل العقـــد والحل ، وهم اذ ذاك جمهور المهاجرين والانصار ، ثم هى ملكية محدودة ، لان الخليفة اذا اختير تقيـــد بأحكام القرآن والسنة . وزاد فى قيمة هذه الطريقة ما استشعره الخلفاء الاربعة من التقوى والزهد فى الدنيا ، والحرص على مصلحة الكافة . لكن العلماء والفقهاء للاسف لم ينظموا أمر الشورى ، فلم يبينوا من هم على التحقيق أهل العقـــد والحل ، مما أودى بذلك النظام . ثم انقلبت الخلافة الى ملكية مطلقة تقريبا على يد معاوية ولا سيما بعد ان اخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد .

وجرت العادة فى الدولتين الاموية والعباسية على أنه متى بويع الخليفة انتقل من داره الى دار الخلافة فى موكب حافل ثم ترد عليه وفود المهنئين من الانصار .

ثم جد فى الدولة العباسية أنه متى تمت المبايعة اختار الخليفة

لقبا من الالقاب كالرشيد والامين والمأمون والمعتصم بالله وهكذا .

بيعة ولى العهد:

ولما اصبحت الخلافة ارثا ، درج اكثر الخلفاء الامويين والعباسيين بعدهم على مبايعة اولادهم أوغيرهم من ذوى قرابتهم بولاية العهد ، واحتفلوا لذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيرا ما عرضوا عزمهم فى ذلك على أهل الراى ، كما فعل معاوية عندما اراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، وكما فعل المنصور العباسى عندما اراد البيعة لابنه المهدى . واذا رأى الخليفة أن ليس من أولاده من هو اهل للخلافة بايع أحد أخوته هو ، وشرط أن يخلفه فلان أو فلان من أولاده ، كما فعل يزيد بن عبد الملك عندما كان ابنه الوليد صغيرا فبايع اخاه هشاما على ان يخلفه ابنه الوليد . وقد يبايع الخليفة لاحد اولاده ويذكر من تخلفه ويخيره فى استخلافه ، كما فعل الرشيد ، حين كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل امره للمأمون ان شاء اقره ، وان شاء خلعه . وترتب على ذلك كثير من الضغائن والحزازات اذا لم ينفذ ذلك الشرط .

شارات الخلافة وعلاماتها:

أما شارات الخلافة فهى الخطبة والسكة والطراز . وذلك أنهم كانوا يدعون للخليفة على المنابر فى الصلاة . وينقشون اسم الخليفة على السكة ـ أى العملة . وأما الطراز فهو أن يرسم الخلفاء أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم

بحيث تصير الثياب الخليفية معلمة بذلك الطراز للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة من الخليفة فمن دونه ، كما هى الحال فى لباس الاجناد فى أيامنا . واتخذ المسلمون نظام الطراز عنـــدما اتصلوا بالفرس والبيزنطيين . وأول من نقـــل الطراز من ملوك الاسلام ، عبد الملك بن مروان وذلك فى أمر القراطيس التى تحمل من مصر الى بلاد الدولة البيزنطية . ثم اســتفاض أمر الطراز فى العصر العبـــاسى ، وصار للخلفاء فى قصورهم دور تسمى دور الطراز تنسـج فيهـــا أثوابهم وعليها شارة الخلفاء وكذلك كانت الحال فى دولة بنى أمية بالاندلس والدولة الفاطمية بمصر . ولهذه الشارات كلها أهمية ســياسية ، فانها تشعر بالطـــاعة والولاء للخليفـــة القائم بالامر . بحيث اذا أبطل متغلب على اقليم من الاقاليم الدعاء للخليفة على المنابر ، أو أسقط اسمه من السكة أو الطراز ، كان ذلك دليل التمرد والخروج من الطاعة . كما فعـل المأمون لما بلغه وهو على خراسان أن أخاه الامين نكث بيعته .

وأما علامات الخلافة فهى أشياء من مخلفـــات النبى (ص) احتفظ بها خلفاء بنى امية وبنى العباس ، على سبيل التبرك بها والاعتداد بها فى اثبات حقهم فى الخلافة . ومن ذلك بردته صلى الله عليه وسلم وعصاه وخاتم صنع على مثال خاتمه الذى فقد . وكان لكل خليفة خاتم يختم به الرسائل التى تصدر عنـــه ، ومن ثم الديوان المعروف بديوان الخاتم ، وهو الذى تختم فيه الرسائل بخاتم الخليفة .

الـوزارة

أصلها في الاسـلام :

تأتى الوزارة بعد الخلافة من حيث الاهمية السياسية والادارية فى الدولة الاسلامية . والوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعية . فهو من ناحية يعين الخليفة فى تصريف شئون الدولة ومبـاشرة مهامها ، كما أنه من ناحية أخرى يطلع الخليفة على أحوال الرعية بوجه عام . ونظام الوزارة نظام شرقى قديم ولا سيما عند الفرس السـاسانيين . واختلف اللغويون فى لفظ « وزير » ، أهو عربى أصلا أم أعجمى ؟ ومهما يكن اصله فهو مذكور فى القرآن ، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه اجمالا فى صدر الاسلام . قال ابن خلدون « فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة وأحوالها فى أيام كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره ، وكذا عمر مع أبى بكر ، وعلى وعثمان مع عمر » .

واطرد الامر على ذلك زمن بنى أمية مع تغيير يسير ، فاختار خلفاؤهم مستشارين يرجعون اليهم فى مهام الدولة ، وأكثر ماكان هؤلاء المستشارون من كتابهم أصـحاب الرياسة فى دواوينهم ، ومن هؤلاء سرجون الرومى زمن معـاوية ، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعى زمن عبد الملك ، والابرش الـكلبى زمن هشام ، وعبـد الحميد بن يحيى زمن مروان بن محمد .

الوزارة زمن الدولة العباسية :

وقام نظام الوزارة فى الخلافة العباسية من أول ظهورها فى سنة ١٣٢ الى انتهائها فى بغداد سنة ٦٥٦ فكان أول وزرائها أبا سلمة الخلال وآخرهم مؤيد الدين بن العلقمى . والناظر فى ثبت وزراء الدولة العباسية يلحظ امرين اولهما انهم على العموم من الفرس ، فكأن الفرس حرصوا على أن تكون الوزارة لهم كما تكون الخلافة للعباسيين ، أى للعرب . والامر الثانى أن الوزارة احتكرتها اسر معينة مددا مختلفة . كالبرامكة وآل خاقان وآل الفرات وآل وهب .

واختلفت أحوال الوزراء باختلاف حال الخليفة ، ففى العصر العباسى الاول (١٣٢ — ٢٤٧ هـ) عندما كان الخلفاء أقوياء يباشرون مهام الدولة بأنفسهم ظل الوزراء منفذين لاوامر الخليفة، فلما ولى الخلافة رجال من غير طراز المنصور والرشيد والمأمون عظم نفوذ الوزراء حتى صار الخليفة يفوض الى وزيره النظر فى شئون الدولة عامة . ومن هنا جاء تقسيم الفقهاء الوزارة الى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

انحطاط شان الوزارة فى الدولة العباسية :

وعلى كل حال بقيت الوزارة على رسمها وتقاليدها منذ نشأتها مع الدولة العباسية حتى سنة ٣٢٤ هـ ، عندما قلد الخليفة الراضى محمد بن رائق أمارة الجيش وجعله أمير الامراء ، وفوض اليه السلطة التامة على دواوين العراق وأمور

خراجه ، وامر بأن يخطب له على جميع المنابر . عنـــد ذلك انحطت مرتبة الوزير ، وقبضت يده عن التصرف فيأمور الدولة، واصبح أشبه بكاتم سر خاص للخليفة ، على حين صارت السلطة كلهافي يد امير الامراء ، مثل ابن رائق نفسه ، وأخلافه في هذه الوظيفة من الزعماء ، ولا سيما بنى بويه . فلما جاء الاتراك السلاجقة تلقب زعماؤهم بلقب سلطان بدلا من امير الامراء ، واختاروا لانفسهم وزراء خواصا بهم ، كما فعل بنو بويه قبلهم . وظلت الحال على ذلك حتى سقوط بغداد . وانتحل وزراء الخلفاء فى العهد الاخير من حيــاة الدولة القابا أخرى غير لقب الوزارة ، مثل رئيس الرؤساء وهكذا .

رسوم الوزارة وتقاليدها :

جرى اختيار الوزير عادة من طبقة الكتاب الذين يعملون فى الديوان ، وذلك فى القرنين الثانى والثالث ، ثم صـــار الوزراء من قادة الجند عندما تعاظم نفوذ الجيش فى الدولة ، ولم يتولهـا غير القادة العسكريين سوى قلة من القضاة أو خواص النـــاس . ومؤهلات الوزير ان يكون بليغ العبارة، حسن التوقيع على مايعرض عليه من الاوراق ، عالما بالحساب وأمور الخراج وطرق استيفائه ، عارفا بأحوال الملوك وآدابهم ، وعلى نصيب موفور من الصفات التى تحببه الى الجمهور ، من سخاء وظرف وحسن أدب .

فاذا وقع اختيار الخليفة عـلى شخص يعينه للوزارة ركب الوزير من داره الى دار الخلافة ، وبين يديه الحجــاب والقادة

والعلماء،ثم خلع عليه الخليفة خلع الوزارة التى يلبسها فى الحفلات الرسمية ، وهى عبارة عن القباء والسيف والمنطقة وعمامة سوداء ، ثم يسير الوزير بعد ذلك الى دار الوزارة فى موكب حافل من أرباب الدولة ، ثم يحضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة .

ويدل تاريخ الوزراء العباسيين على أن العمل اليومى كان شاقا مجهدا لصاحب الوزارة . يقول الصابى عن الوزير ابن الفرات (سنة ٣٠٠ هـ ٩١٢ م) « كان من رسم الوزير ان يغدو اليه الكتاب فيوافقهم على الاعمال ويسلم الى كل منهم مايتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به . ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعمالهم فيوافقهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروج وقضوه من الامور ، ويقيمون الى بعض من الليل . واذا خف العمل ،وقد عرضت عليه فى اثنائه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه » . ومثل ذلك يروى عن ابن العميد وزير بنى بويه ، ونظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى ، ويذهب الوزير الى دار الخلافة فى أيام معينة من كل أسبوع، للمثول بين يدى الخليفة واطلاعه على شئون الدولة وتلقى اوامره واشاراته .

القضاء

احتكم العرب فى الجاهلية الى رجال منهم عرفوا باصالة الرأى وكثرة التجارب ، وكانوا يسمونهم الحكام امثال عامر بن الظرب

العدوانى ، وسبيع التغلبى . ونشأ القضاء فى الاسلام بعد أن هاجر الرسول الى المدينة ، واخذ ينظم الجماعة الاسلامية بها ؛ وفى الكتاب الذى كتبه الرسول على أثر استقراره بالمدينة نص على مايتبع فى الخصومات والمنازعات التى تكون بين أفراد الجماعة وهو قوله : « وما كان من حدث يخاف اشتجاره ... فان مرده الى اللهورسوله » . ونزلت آيات مدنية تأمره بالحكم بين الناس المتخاصمين من أهل الكتاب اذا احتكموا اليه ، فكان عليه السلام يلى القضاء فى المدينة ، وأكثر أقضيته أن يسأل عن الحكم فيجيب ، فهى أشبه بالفتاوى منها بالحكم القضائى المعروف .

ولما انتشر الاسلام فى شبه جزيرة العرب فى زمنه عليه السلام عهد الى رجال من الصحابة بالقضاء فى الاقاليم النائية بحسب اجتهادهم . واتبع ابوبكر سنة الرسول ، فاستقضى عمرمعه فى المدينة ، وترك الفصل فى الخصومات فىالامصار للعمالنيابة عنه.

عمر بن الخطاب ونظام القضاء :

وانما يتحدد نظام القضاء ويتخصص من حيث هو نظام من نظم الدولة ، فىزمن عمر بن الخطاب . فلنه باتساعالدولةآصبح يتعذر على الخليفة او ممثله من العمال أن يجلس للفصل فى الخصومات ، فولى عمر القضاء رجالا اختصوا به . وهو أول من فعل ذلك ضمانا للعدالة ، وفصلا للسلطة القضائية من السلطة التنفيذية كما نقول الآن . وممن استقضاهم عمر على

الامصار أبو الدرداء بالمدينة نفسها ، وشريح الكندى بالبصرة ، وأبو موسى الاشعرى بالكوفة . وكتب الى عمرو بن العاص أن يولى على قضاء مصر عثمان بن قيس بن أبى العاص ، ولم يكتف عمر بذلك بل كتب فيما يروى الى أبى موسى الاشعرى كتابا فى معنى القضاء وطرقه . وهذا الكتاب يعتبر دستور القضاء الاسلامى وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى عبدالله بن قيس : سلام عليك ، أما بعد . فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك ، فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين الناس الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولايمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع الى الحق ، فان الحق لا يبطله شىء. واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم ، الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة . واعرف الاشباه والامثال ، ثم قس الامور عند ذلك ، ثم اعمد لاحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. اجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهى اليه ، فان أحضر بينته أخذ بحقه ، والا استحللت عليه القضاء . والمسلمون عدول فى الشهادة الا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة

زور ، أو ظننا فى ولاء أو قرابة . ان الله تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات .

اياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الاجر ، ويحسن الذخر ، فانه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله أصلح الله مابينه وبين الناس . ومن تزين للدنيا بغير مايعلم الله منه شأنه الله ، والسلام » .

القضاء الى ظهور المذاهب الاربعة .

تولى القضاة مناصبهم فى ذلك العصر تارة من قبل الخلفاء ، وتارة من قبل أمراء الامصار ، وفى كلتا الحالين روعيت فى اختيار القاضى صفات يجمعها قول عمر بن عبد العزيز « اذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم ماكان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم عن الخصم ، واقتداء بالائمة ، ومشاورة أهل الرأى » .
وجرى القضاة على ان يعملوا بالنصوص فيما نص عليه ، أو الرأى الذى هو أقرب الى تلك النصوص ، فاذا لم يظهر لهم وجه الصواب فى قضية استشاروا من معهم فى بلدهم من المفتين ، وربما راسلوا الخلفاء واخذوا رأيهم فى بعض المسائل .

واختص القضاة فى ذلك العصر بالفصل فى الخصومات المدنية والاحوال الشخصية التى هى اختصاص المحاكم الشرعية فى زماننا . ثم أضيف الى اختصاصهم هذا مع الزمن أموال المحجور عليهم ، والاوقاف ، وتزويج الايامى عند فقد الاولياء . أما النظر فى الجرائم واقامة الحدود فلم تدخل فى اختصاصهم .

وبظهور نوابغ الائمة ابتداء من القرن الثانى الهجرى وتدوين مذاهبهم وانتشارها اخذ القضاة يتقيدون فى قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشرمذهب ابى حنيفة فى العراق وخراسان ، والمذهب الشافعى فى مصر والشام ، والمالكى فى الحجاز والمغرب والاندلس ، وصار القضاء فى كل قطر يجرى على المذهب الذى ساد فيه .

ومع ماللقضاء من جليل الشأن وللقضاة من عظيم المكانة ، امتنع كثير من اجلاء العلماء من تقلد القضاء اذا ندبوا له ، وذلك لخوفهم من ضغط بعض ذوى السلطان عليهم ، ومن المغريات التى تكتنف القاضى فى المحيط الذى يعيش فيه ، وربما نالهم بعض الاذى من جراء امتناعهم عن تولى القضاء .

النظر فى المظالم والحسبة والشرطة :

هذه كلها من ملحقات القضاء . اما النظر فى المظالم فيشبه محكمة النقض فى زماننا من بعض الوجوه . والغرض منه الاستماع الى ظلامات الناس من القضاة او من غيرهم . وافرد خلفاء بنى امية وبنى العباس الى زمن المهتدى بالله يوما خاصا للنظر فى ظلامات المتظلمين . فلما ضعفت الخلافة وصار الامر الى المتغلبين من الملوك والسلاطين صار هؤلاء يجلسون لرد المظالم .

وعنى الخلفاء والامراء والسلاطين عناية بالغة بالنظر فى مظالم الرعية وبذلوا الجهد فى رفعها ولو كان التظلم منهم أو من أولادهم ، وفى التاريخ الاسلامى شواهد كثيرة على ذلك .

وأما الحسبة فنظام أساسه الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

وصاحبها يقال له المحتسب . وعمله ان يبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدن ، مثل المنع من المضايقة فى الطرق ، ومنع الحمالين واصحاب السفن من الاكثار فى الاحمال ، والحكم على أهل المبانى المتداعيــة للسقوط بهدمها ، والتنبيــه على المعلمين اذا بالغــوا فى عقــوبة الصبيان ، والنــظر فى الغش والتدليس فى المعــاملات ، واختبــار المكاييــل والموازين ، مما يعد فى زماننا من واجبات المجالس البلدية .

وأما الشرطة فهى فى الاصل من توابع القضاء لان المراد بها هو تنفيذ أحكام القضاة ، أو تطبيق العقــوبات الزاجرة بعــد ثبوت الجريمة ، واقامة التعزير والتأديب فى الذين يخالفون القــانون مخالفة صغيرة. فالشرطة بذلك خادمة للقضاء تساعد القاضى على اثبات الذنب على مرتكبه. وابتداء من القرن الرابع صار النظر فى الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص لصاحب الشرطة، وانفصلت عن القضاء وصارت من الخطط السلطانية يكون الحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية .

البريد

البريد نظام قديم له شأن عند الرومانيين والفرس والبيزنطيين واول من اتخذ نظام البريد فى الاسلام معاوية بن ابى سفيان ، اى بعد ان تطلبت سعة الدولة الاسلاميــة سرعة نقــل الاخبــار بين الخليفة وعماله فى مختلف الاقاليم . ثم تطورت ناحية مــن نظا

البريد الى جاسوسية رسمية يشبهها قلم المخـابرات فى وزارات الحربية الحديثة ، واسم رئيس هذا النظام « صـاحب البريد » وعمله تنظيم « ديوان البريد » وهو واسطة العلاقة بين الخليفة او السلطان وبين الولاة . ينقل اوامر الخليفة او السلطان الى الولاة ، كما ينقل اخبار الولاةالى الخلفاء والسلاطين . وكان اصحاب البريد فوق ذلك يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور الدولة .

وعين خلفاء بنى أمية وبنى العباس والملوك والسلاطين ثقاتهم على ديوان البريد ، وباشره بعضهم بنفسه مبالغـة فى الاحتيـاط والاحتراس . وكان أبو جعفر المنصور يقول « ما أحوجنى الى ان يكون على بابى اربعة نفر ، لايكون على بابى أعف منهم ، وهم اركان الدولة ، ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقاض لاتأخـذه فى الله لومة لائم ، والاخر صـاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صـاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية » ثم عض عـلى اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة « آه . . آه » قيـل ماهو ياامير المؤمنين ؟ » قال « صاحب بريد يـكتب خـبر هؤلاء على الصحة » .

طرق البريد :

وتفرعت من مركز الخلافة طرق سابلة للبريد ، كما كانت الطرق الرومانية القديمة تتفرع مـن روميـة . وفى كل طريق محـطات ومنازل فيها افراس وهجين ، فيستبدل عمـال البريد بدوابهم

دواب مستريحة فى كل محطة او منزل . وبلغ عـدد طرق البريد فى الدولة العباسية ٩٣٠ طريقا ، ونفقات الدواب واثمانها ورجالها ١٥٩ر١٠٠ دينار ، وانفق بنو اميه على البريد أكثر من هذا القدر من المال .

طرق التخابر بالبريد :

كانت الرسائل تنقل فى خرائط وهى أكياس من الجلد تختـم بخاتم المرسل ، ويحملها عمال البريد على الدواب او فى البحارحتى يؤدوها الى المرسل اليه . والسعاة كذلك من رجال البريد ، وهم رجال خفاف الحركة تعودوا الجرى والصبر على ان يطووا ثلاث مراحل فى مرحلة واحدة .

ومن وسائل المخابرة حمام الزاجل ، والتخابر به معروف عند الامم القديمة ، وكذلك المخابرة بالنـيران توقد على المرتفعات ورءوس الجبال .

الجيش

تمهيـد :

استفاد العربى من بيئته صفات الشجاعة الفردية وقوةالحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظمأ وشدة الحر والبرد ، فاذا تشبت حرب بين قبيـلة وأخرى ، أو اذا غزا قوم قوما آخرين ، وجد العربى القادر على القتال ميدانا لاظهار صـفاته هذه فى خدمة قبيلته او قومه . على أن قتال العرب فى حروبهم

وغزواتهم فى العصور القديمـة كان أدنى الى السذاجة فيبدأون المعركة عادة بالمبارزة الفردية ، تكون بين بطلين من ابطال القبيلتين ثم يكون الالتحام ، فيكرون على العدو فاذا آنسوا منه قوة أو من أنفسهم ضعفا ارتدوا ، ثم يكرون وهكذا حتى تتم المعركة بنصر احد الجانبين . وهذا هو الأسلوب المعروف بالكر والفر ، وهو قتـال أهل البداوة على العموم . واعتاد العرب أن يخرجوا للحرب معهم ذراريهم ونساءهم واموالهم ويجعلون كل ذلك وراء صفوفهم ليكون ذلكأدعى الى الاستماتة والأنفةمنالهزيمة ، محافظة على الاعراض والاموال . هكذا كان شأنهم فى حروبهم المعروفة « بأيام العرب » .

على أن هذه الحال تغيرت اذ فرض الاسلام الجهاد على المؤمنين دفاعا عن الدين والنفس والوطن والمال ، ووعد المجاهدين احدى الحسنتين ، اما النصر والعزة فى الدنيا أو الشهادة ودخول الجنة فى الآخرة . ومن ناحية أخرى حل النظام فىالقتالمحلالسذاجة الحربية القديمة ، فاستعرض الرسول الجيش قبل المعركة ، وسوى الصفوف ، ووضع الخطة العامة التى يجرى عليـها القتال ، واخذ الجند باتباعها . ثم ان أسلوب القتال تغير من الكر والفر الى قتال الصف أو الزحف . وهو الذى وردت فيـه الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيـان مرصوص » وعملا بهذه التعليمات سار المجاهدون الى لقـاء العدو صفوفا متراصة مستوية كصفوف المصلين فى الصـلاة ،

منقسمين الى قلب وميمنة وميسرة وساقة ، وكل قسم عدة كراديس ، وكل كردوس يتألف من صفوف رجالها من جنس واحد ومتعارفون فيما بينهم . وبهذا النظام الذى أخذه المسلمون عن الدولة البيزنطية قاتل خالد بن الوليد جيش البيزنطيين فى وقعة اليرموك ، وقاتل سعد بن أبى وقاص جيش الفرس فى القادسية. واستمر القتال يتراوح بين أسلوبى الصف والتعبئة الى أواخر العصر الاموى ، حين أبطل مروان بن محمد سنة ١٢٨ هـ قتال الصف ، وعدل عنه الى قتال التعبئة . وظل نظام الجيوش على ذلك فى الدولة العباسية ، مع تعديلات فى أشكال التعبئة .

المعسكرات والاجناد والثغور والربط :

وعرف العرب كيف يحتفظون بالفتوح التى تمت لهم على قلة عددهم وكثرة أعدائهم المحيطين بهم ، ومرجع ذلك الى خطتهم فى اتخاذ معسكرات يقيمونها فى المواقع ذوات الاهمية الاستراتيجية ، ويشحنونها بالعتاد الحربى والجند المستعدين للحرب ، ومن هذه المعسكرات : البصرة والكوفة وواسط فى العراق ، وأجناد الشام : حمص وقنيسرين ودمشق ، والاردن وفلسطين ، وهى التى أطلق عليها المسلمون أم أجناد الشام ، والفسطاط والاسكندرية فى مصر ، وبرقة وطرابلس والقيروان فى المغرب .

وعنى المسلمون بتحصين أطراف فتوحهم مما يلى أرض العدو ، من أطراف الصين الى ساحل المحيط الاطلسى فأقاموا الحصون

والقلاع والربط عند كل مكان يخشى ان ينفذ منه العدو ، وسموا هذه بالثغور وشحنوها بالرجال والعتاد ووسعوا على أهلها الارزاق حتى يتفرغوا لحراسة حدود الدولة . وأهم مناطق الثغور الاسلامية منطقتان : الأولى منطقة ثغور الشام والجزيرة مما يجاور الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وهى منطقة كان الغزو فيها يكاد لا ينقطع فى سنة من السنين صيفا أو شتاء زمن الامويين والعباسيين . والمنطقة الاخرى هى شمال الاندلس عند أطراف الدولة الفرنجية (فرنسا) وأسبان الشمال . وظلت هذه الثغور كلها منيعة حتى اذا ضعفت الخلافة وذهبت وحدة الدولة انثلمت الثغور ونفذ منها العدو الى الاراضى الاسلامية أبان الحروب الصليبية فى الشرق والغرب على السواء .

السلاح :

سلاح العربى فى الأصل القوس والرمح والسيف ، فالقوس للرمى بالسهام أول القتال ، فاذا تدانت الصفوف بدأ التطاحن بالرماح فاذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف وهى أشهرها عندهم . ومن الاسلحة الوقائية عند العرب الخوذة والبيضة لوقاية الراس والعنق ، والدرع لوقاية الجذع والأطراف ، والترس لاتقاء ضربات الخصم . واستعمل العرب الجمل والحصان فى حروبهم ، فالجمل أداة انتقالهم فى الصحارى ، والحصان وسيلة السرعة فى السهول ، حينما كانت السرعة الكبيرة مطلوبة فى الحرب .

ولم يعرف العرب غير ذلك أول الامر ، غير أنهم أخذوا عن البيزنطيين آلات المنجنيق والدبابة والكبش ، وكلها لدك الحصون والاسوار ، كما أخذوا عنهم النار الاغريقية . واقتبس العرب من الفرس انشاء الخنادق حول المدن والمعسكرات وأول خندق حفره المسلمون هو الذى احتفره الرسول حول المدينة باشارة سلمان الفارسي ، فى الغزوة المعروفة باسم غزوة الخندق . ويؤخذ من كلام لابن خلدون أن عرب المغرب اخترعوا البارود واستخدموه فى حروبهم سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) أى قبل أن تعرفه أوروبا بنحو نصف قرن من الزمان .

رواتب الجند والاقطاع العسكرى :

لم يكن للجند عطاء معين على عهد الرسول ، بل قسمت الغنائم خمسة أقسام ، واحد منها للرسول واربعة الأخماس تقسم بالسوية بين رجال الجيش . وكذلك كانت الحال زمن أبى بكر . فلما جاء عمر لم يأخذ بمبدأ التسوية فى العطاء ، بل وضع للجند ديوانا رتبهم فيه بحسب قبائلهم وميز بينهم فى العطاء بحسب بلائهم وسابقتهم ، فأعطى للمهاجرين والانصار الذين شهدوا غزوة بدر ٥٠٠٠ درهم فى السنة أى نحو ٢٠٠ جنيه ذهبا . وكان عطاء الجندى العادى نحو ٦٠٠ درهم فى السنة أى نحو خمسة جنيهات ذهبا فى كل شهر ، وهو عطاء سخى بالنسبة الى عطاء الجندى البيزنطى وقتذاك . فلما جاء الأمويون زادوا فى عطاء الجند تألفا للقبائل والاحزاب . أما

العباسيون فلضخامة جيوشهم وتعويلهم على الفرس والترك دون العرب اضطروا الى نقص العطاء عما كان عليه من قبل . فلما ذهبت وحدة الدولة بتغلب المتقلبين على الاقاليم والنواحى اضطر الخليفة الى أن يعهد الى كل متقلب جباية أموال ناحيته فيطرح منها نفقات الادارة وأعطيات الجند ويرسل الى بغداد كل سنة مبلغا معينا من المال . وجرى بنو بويه على هذا النهج ، ثم جاء السلاجقة الاتراك فوزعوا الاراضى بين أمراء الاسرة ، وأصبح كل أمير سلجوقى أميرا اقطاعيا فى ناحيته ، وبذلك أصبح الشرق الاسلامى شبيها بالغرب الأوروبى من هذه الوجهة ، واستمر طوال العصر المغولى والتركى حتى أوائل القرن الماضى .

رتب الجيش ، وعرضه ، ولواؤه وموسيقاه :

وفى العصر العباسى صار الجند رتبا ، فصار على كل عشرة رجال عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء بجنودهم (أى ١٠٠ رجل) نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء بجنودهم (١٠٠٠ رجل) قائد ، وعلى كل عشرة قواد بجنودهم (١٠,٠٠٠ رجل) أمير ، وربما كان الطراز الذى تطرز به ملابسهم مبينا به رتبة لابسه على نحو ماهو حاصل فى أيامنا .

وجرت العادة منذ أيام الرسول عليه السلام على استعراض الجيوش قبل سيرها الى الحرب ، فاستعرض الرسول جيشه قبيل غزوة بدر ، وعنى بنو أمية وبنو العباس بالعرض ، وعينوا له يوما سموه « يوم العرض » يجلس فيه الخليفة وعليه درعه وخوذته

وسلاحه ، ويمر به الجيش على رتبه . فاذا انتهى العرض عقد الخليفة اللواء لأمير الجيش عندمسيره للحرب ، ويدعوله بالنصر وهو يسلمه اياه . ومن دون اللواء كان للجيش رايات وأعلام وبنود ينشرها اذا سار للقتال . وعنى الخلفاء الامويون والعباسيون كذلك بفرقة الموسيقى للجيش ، وهى مؤلفة عادة من الطبول والابواق ، فاذا أدرك الجند التعب من طول السير دقوا الطبول ونفخوا فى الابواق ، فيسرى ذلك عنهم ، كما انهم يفعلون ذلك أثناء القتال فيذكى من حماستهم .

الاسطول

قيام البحرية الاسلامية :

لم يكن ركوب البحر والايغال فيه من شأن العرب أهل البداوة والصحراء ، وظلوا على ذلك حتى زمن الفتوح الكبرى ، فلما استقروا فى الشام ومصر ، أدركوا خطر أساطيل البيزنطيين عليهم فأخذوا يعملون على أن تكون لهم قوة بحرية يدفعون بها عدوان الأعداء من ناحية البحر . وأول من عمل على ذلك معاوية بن أبى سفيان مدة ولايته الشام لعثمان بن عفان ، فانه استأذن الخليفة فى غزو البحر فأذن له فأنشأ أسطولا ركبه فى سنة ٢٨ ، وافتتح به جزيرة قبرص صلحا . وحذت مصر حذو الشام واشتركت أساطيل الاقليمين فى غزو القسطنطينية .

واستخدم العرب عمال القبط والشاميين والبيزنطيين التابعين لهم فى صناعة السفن وتجهيزها واجرائها ، وشحنوها بالمقاتلة

من العــرب ثم صار رجال الاسطول كلهم من المسلمين وسمى العرب مجموعة السفن الغازية فى البحر « أسطولا » وهو لفظ يونانى الأصل عربوه واستعملوه .

ثم أكثروا من انشاء ذور لصناعة السفن فى سواحل الشــام ومصر وأفريقية ، ومن كلمة « دار صناعة » العربيةأخذت أوربا كلمة (ARSENAL) وهى تحريف للفظ العربى ثم حرف اهل الشام ومصر هذا اللفظ الاوربى العربى الاصل فقالواترسانة .

وبلغت البحرية الاسلامية مبلغــا عظيما من القوة فى البحر المتوسط فى القرون الاربعة الهجرية الاولى ، فغزت أساطيــل المسلمين قبرص وردوس واقريطش ثم غزت أساطيل الدولة الاموية الاندلسية على عهد عبد الرحمن الناصر وأساطيل الدولة الفاطمية بأفريقية صقلية ومالطة وجنوب ايطاليا وسردانيـــة وجزائر البليار حتى أصبح البحر المتوسط فى القرن العــــاشر الميلادى بحيرة عربية ، وانحسرتعنه أساطيل البيزنطيين وغيرهم الى السواحل الشماليـــة لاتبرحها سفينة منها الا بحســاب كبير .

فلما ذهبت ريح الدولة الاموية بالاندلس أوائل القرنالخامس الهجرى ، وضعف أمر الدولة الفاطمية فىمصر كذلك ، ضعفت البحرية الاسلامية وانحسرت أساطيلها عن معظم جزر البحــر المتوسط ، فتجرأت الاساطيل الاوربية عــلى الظهور ، وغزت السواحل الاسلامية نفسها ابان الحرب الصليبية .

نعم ان أهل المغرب حافظوا على العناية بأساطيلهم زمن الدولة الموحدية وبنى حفص بتونس وبنى مرين بمراكش ، لكن بذهاب هـــذه الدول ذهبت قوة البحرية الاســـلامية فى غرب البحر المتوسط ، وانفسح المجال أمام البحرية الاسبانية والبرتغاليـة أبان الاستكشافات الجغرافية الكبرى .

وبنى المسلمون سفنهم على أمثلة السفن البيزنطية والرومانية بين كبيرة وصغيرة وشحنوها بالمقاتلة وبآلات الحرب من مجانيق ودبابات وأدوات الرمى بالنار الاغريقية .

وكان للاسطول قائد يدبر أمر الحرب والقتـــال فى البحر ، ورئيس يدبر أمر اجراء السفن وارسائها ، ونواتية يعملون بأمر الرئيس . فاذا اجتمعت جملة أساطيل لحرب أو غرض آخر ولوا عليها كبيرا من رجال الدولة يسمونه « أمير البحر » ومن هذا الاسم جاء لفظ (أميرال) الاوروبى .

وبنى المسلمون فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ســـفنا وأساطيل اكثرماكانت للتجارة مع ممالك الشرقالاقصى ولاسيما الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ومع سواحل افريقيـــة الشرقية . وكانت لها قواعد بحرية مثل القــلزم (السويس) وعدن وسوفالا والبصرة وسيراف على ان معظم هـذه السفن لم تكن للدولة ، بل لافراد من التجار وكبـــار المولين فى تلك الجهات .

حكومة الولايات

الولايات على عهد الخلفاء الراشدين :

لم يتقرر نظام الولاية على الاقاليم الا زمن عمر بن الخطاب ، وذلك عندما كثرت الفتوح واتسعت الدولة الاسلامية ، فولى عمر على الاقاليم أمراء أو ولاة ينوبون عنه فى الاشراف عليـــها وتدبير أمورها . وكان عمال الأقاليم زمن الخلفاء الراشدين على وجه التعميم هم قادة الجيوش الذين افتتحوا تلك الاقاليم . وعملهم فى أغلب الاحوال مراقبة سير الامور واقامة الصــــلاة وجباية الخراج . واشـــتد الخليفة عمر فى مراقبـــة الولاة ، وحاسبهم عند انتهاء مدة ولايتهم ، وربما قاسم الوالى ماله اذا ثبت عنده أنه استغل نفوذه فى كسب ذلك المال .

ولايات الدولة الاسلامية على عهد الأمويين والعباسين :

اشتملت الدولة الاسلامية على ست ولايات كبيرة زمن الامويين وهى (١) الحجاز (٢) العراق والمشرق (٣) الجزيرة وارمينية (٤) الشام (٥) مصر والمغرب (٦) الاندلس .

أما زمن الدولة العباسية ، فصارت الدولة اربع عشرة ولاية ، وهى (١) الحجاز (٢) العراق (٣) الجزيرة (٤) الشـــام (٥) مصر (٦) المغـــرب (٧) خراســـــان وما وراء النهر (٨) الديلم (٩) اقليم الرحاب وهو اران وأرمينية وآذربيجان (١٠) اقليم الجبال (١١) خوزســـتان (١٢) أقليم فارس

(١٣) كرمان (١٤) السند . وانقسمت كل ولاية الى عدد من الكور واختلف هذا العدد قلة أو كثرة باختلاف الاقاليم .

حكومة الولايات على عهد الأمويين والعباسيين :

وتنوعت ولاية الاقليم فى الدولة الاسلامية نوعين :

(١) ولاية عامة وهى التى يعقدها الخليفة لمن يختـاره من رجاله الاكفاء ، فيفوض اليـه ولاية الاقليم نيـابة عنه فيقيم للمسلمين صلاتهم ، ويقود الجند أو يختـار من رجاله قائدا للجيش ، ويعين جانبا للخراج يصرف منـه حاجات الادارة واعطيات الجند ، ويرسل مايبقى الى الخليفة . ويعين من شاء للقضاء بين الناس .

وتصرف الولاة الذين كانت اليهم هذه النيابة العامة فى كل شىء . وأظهر ما كان الاستقلال الادارى فى العراق فى عهد زياد ابن أبى سفيان وابنه عبيد الله ، والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد القسرى . وكان الحجاج أكثرهم استقلالا للثقـة التى حازها عند الخليفة عبد الملك وابنه الوليد . ومثـل ذلك كانت أمارة عمرو بن العاص الثانية على مصر ، وأمارة عبد العزيز ابن مروان على مصر كذلك .

ومع قيام أولئك الولاة بحل المشاكل والمنازعات فى حواضر الامارات ، كان لكل ذى ظلامة أن يرفعها الى الخليفة بعـد ذلك فيقضى فيها . وضيق عمر بن عبـد العزيز عـلى الولاة بعض

التضييق ، فحتم عليهم ألا ينفذوا حدا من الحدود الشرعية من قتل او قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه .

(٢) أما الامارة الخاصة فان يقصر الوالى على الصلاة والحرب والقضاء ، ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه رأسا . واغلب ولاة الاقاليم فى العصر العباسى الاول من هذا الصنف ؛ لاضطلاع الخلفاء العباسيين الاوائل بأمور الدولة بأنفسهم . ولذلك كثر عدد عمال الاقاليم فى ذلك العصر ، وقصرت مدد حكمهم بالقياس الى ما كانت عليه الحال فى الدولة الاموية .

فلما ذهبت وحدة الدولة العباسية ابتداء من أوائل القرن الثالث الهجرى ، وتغلب بعض الولاة على أقاليمهم بالقوة ، وأقاموا بها دولا شبه مستقلة ، من طاهرية وسامانية وبويهية وطولونية واخشيدية ، ظهر نوع جديد من الولاية العامة على الاقاليم وهو الذى يسميه الفقهاء « ولاية الاستيلاء » لأن الامير استولى بالقوة على الامارة ، ولا يسع الخليفة لضعفه الا أن يقر ما حصل ويبعث الى الامير المتغلب بعهده ، وبتثبيت الولاية فى أسرته من بعده .

الفصل الثاني

الحضارة الاسلامية فى أزهى عصورها

اصــولها

انشأ المسلمون حضارة جديدة هى أبهى حضارات العــالم فى العصور الوسطى ، وهذه الحضارة الاسلامية التى بلغت أوج كمالها فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعــاشر الميلاديين) هى التى جعلت العصور الوسطى ، لا عصورا مظلمة كما سماها بعض المؤرخين ، بل عصورا مضيئة بالقيـــاس الى ماسبقها فى غرب أوروبا منذ أواخر أيام الدولة الرومانية القديمة الى أواخر القرن العاشر الميلادى. ومن الواضح أن المجال الذى نهضت فيه الحضارة الاسلامية هو موطن معظم الحضارات فى الشرق القديم ، فلامناص من حدوث تجاوب بين القديم والجديد فى مثل هذه الحال . ومع أن المسلمين أخــذوا من الحضارات التى سبقتهم أو عاصرتهم شيئا غير قليل ، فانهم تناولوا ما أخذوه من هذه الحضارات بالتغيير والتبديل والحذف والاضــــافة . ونجم عن هذا كله حضــارة جديدة قامت ، لها طابعها الخاص ، هو طابع الاسلام واللغة العربية .

ويمكن ارجاع الحضارة الاسلامية الى أصول أربعة استمد المسلمون من كل منها قدرا واضحا ، وهى (١) الاصل الاسلامى (٢) الاصل العربى (٣) الاصل الفارسى (٤) الاصل اليونانى.

١ — الاسلام :

الاسلام هو الدين الرسمى للدولة الاسلامية ، وهو عقيدة السواد الاعظم من سكانها ، وهو قسمان : عقائد واعمال . فالعقائد تنتظم الايمان بالله واحد هو رب العالمين والايمان بالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب فى الدار الاخرة . وأما الاعمال فمنها اعمال تتنزل منزلة العقائد ، وهى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومنها أعمال تتصل بالأخلاق وهى التحلى بمكارم الاخلاق ، وآداب اللياقة ، والوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدائد ، والعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفة النفس ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومنها أعمال هى عبارة عن تطبيق ماجاء به الشرع خاصا بالاسرة ، أو المعاملات التى تجرى بين النـاس ، والجنايات التى تقع فى المجتمع ، وشئون السلم والحرب ... الخ .

وللاسلام أثر بالغ فى الحياة الفكرية للمسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب علوم التفسير والحديث والفقه ، والسير والمغازى أو علم التاريخ. والاسلام يحث على النظر والتفكير فى الكون الذى نعيش فيه ، وفى ظواهره المختلفة ، فأدى ذلك الى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهى

الجغرافيا والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) والفلك والطب والرياضيات . فانت ترى ان الاسلام هو الينبوع الاول والاعظم للثقافة الاسلامية ، وهو الذى انطبعت حياة المسلمين بطابعه ، سواء فىذلك نظمهم العامة والسياسية والادارية والمالية وأحوالهم الخاصة والعامة وكذلك فنونهم وآدابهم .

٢ — الثقافة العربية :

يأتى بعد الاسلام ينبوع ثان اقل منه شأنا بطبيعة الحال ، ولكنه ذو اثر كبير فى بناء الحضارة الاسلامية. ذلك هو الثقافة العربية ، اذ المعروف أن العرب هم العنصر الفعال فى الدولة الاسلامية ولاسيما فى صدر الاسلام . ولهؤلاء العرب ثقافة انفردوا بها ، ومثال ذلك أن حرصهم على انسابهم أدى الى قيام علم النسب لمعرفة إنساب القبائل والافراد ، وظهرت فى الانساب كتب كثيرة لابن الكلبى وابن حزم وغيرهما . وللعرب فى الجاهلية والاسلام شعراء هم حملة لواء الشعر العربى على العموم ، وهذا الشعر فوق كونه الفن العربى الممتاز ، هو كذلك ديوان أخبار العرب وسجل أحداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم . ومن أجل ذلك جمعه أهل الادب وشرحوه لبراعته الفنية من جهة ، وللاستشهاد به فى تحديد معانى الالفاظ الغامضة ، فضلا عن جلاء الحوادث التاريخية من جهة أخرى . وللعرب حظ موفور من الامثال والكلم الجامعة ، يوردونها فى المناسبات. وعنى العلماء بجمع هذه الامثال العربية فى كتب خاصة ، ومنها كتاب الامثال للميدانى ،

كما عنيت طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب فى الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام ، وفتوحهم العظيمة بعد أن أضحوا مسلمين .

وأسهم العرب فى بناء الحضارة الاسلامية بالآداب والعادات التى اتصفوا بها ، من حيث الشجاعة ، والانفة من الضيم ، وحفظ الجوار ، واحترام المرأة ، واكرام الضيف ، والولع بالشعر وفصاحة اللسان . وشاعت هذه الاداب فى المجتمع الاسلامى ، حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسى ، وعنهم انتقلت الى أوروبا فى أعقاب الحرب الصليبية ، فامتزجت بالنظام المعروف فى أوروبا بالفروسية .

٣ ــ الثقافة الفارسية :

وهناك ينبوع ثالث عظيم استمدت منه الحضارة الاسلامية ، وهو حضارة بعض الامم القديمة المتحضرة التى دخلت فى الاسلام ، ولا سيما الفرس .

والفرس أمة عريقة فى القدم وذات حضارة عظيمة ازدهرت زمن الدولة الساسانية . ونبغت دولة الساسانيين فى فنون السياسة والادارة والحرب ومظاهر الترف والرفاهية . وكان لها دين رسمى هو الدين الزرادشتى ، ولغة ذات ادب وحكمة هى الفهلوية . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية ، دخل الفرس فى الاسلام أفواجا ، وصاروا موالى للفاتحين من العرب . وبدخولهم فى الاسلام اطرحوا الزرادشتية

والفهلوية ، واقبلوا على الاسلام يدرسونه ، وعلى اللغة العربية يحصلونها . ولم يمض طويل زمن حتى اضحوا هم أغلب القائمين على الحركة العلمية والتأليف فى مختلف العلوم. وافادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة ، فكثير من الالفاظ الفارسية التى تعبر عن مظاهر الحضارة والتى ليس لها مقابل فى العربية نقلت بذاتها الى اللغة العربية ودخلت فى بنيتها . كذلك فن الغناء الذى لم يكن للعرب منه حظ يذكر قبل الاسلام ، انتقل من الفرس الى العرب فى صدر الدولة الاموية ، ونبغ كثير من موالى الفرس ، ومنهم عبد الحميد الكاتب وابن المقفع فى الكتابة ، واسماعيل بن يسار وبشار وأبى نواس فى الشعر . وكل هؤلاء أدخلوا على النثر العربى والشعر العربى أساليب وتعبيرات وأخيلة لم تعرفها العرب من قبل . ثم أستفاضت فى العصر العباسى حركة تأليف الموالي فى مختلف العلوم الاسلامية على الاطلاق .

ويمكن القول فى هذا المقام ان الفرس اضفوا على المجتمع الاسلامى آدابا ومواصفات رققت من حواشيه ، ومن هذه مجالس الغناء والمنادمة ، والتأنق فى الطعام والشراب ، والزحرف فى الملبس والمسكن .

٤ ـ الثقافة اليونانية :

والمؤثر الاجنبى الثانى هو الثقافة اليونانية (الهلينية) . واليونان أمة عريقة فى الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر

فيها اساطين الفكر فى العالم القديم ومنهم سقراط وافلاطون وارسطو. وانتشرت ثقافتهم فى الشرق على اثر فتوح الاسكندر وقيام اسر يونانية حاكمة فى الشام ومصر خاصة . وفى القرون السابقة على مجيء الاسلام نقل السريان فى الشام وجزيرة العراق الى لغتهم السريانية كثيرا من تآليف اليونان فى الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافية ، وعلقوا عليها وشرحوها . ثم انهم انشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم فى الحواضر الكبرى ومنها انطاكية وقيسرية ونصيبين والرها ، كما قامت بالاسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى واخرى بجنديسابور فى اقليم خوزستان. وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم اليونانية فى اقطار الشرقين الادنى والاوسط ، بل جاوزتها على ايدى مهاجرة النساطرة الى بلاد الهند نفسها .

وفى العصر العباسى عهد خلفاء العباسيين ولاسيما المأمون الى طائفة من السريان ان ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة فى العلوم المذكورة الى اللغة العربية . فنقلوا الكثير منها الى العربية عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية رأسا . وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية الى المسلمين وهى اساس علوم الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية عندهم. ومما يحسن التنبيه اليه انهم لم ينقلوا شيئا من ملاحم الاغريق ومسرحياتهم العظيمة ، ذلك لان العرب اعتزوا بشعرهم واعتقدوا انه فوق كل شعر آخر وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ما فيها من

ذكر آلهة اليونان واساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربى المسلم فى ذلك الزمان .

(٢) الاحوال الاجتماعية والاقتصادية

أولا — الحياة الاجتماعية

عناصر المجتمع :

تألف المجتمع فى ازهى عصور الدولة الاسلامية من عناصر او طبقات مختلفة الاقدار الاجتماعية ، فالطبقة الاولى تشمل الخليفة وأهل بيته ، وكبار رجال الدولة ، وأفراد البيت الهاشمى ؛ ثم جمع غفير من اتباع هذه الطبقة من الجند والحراس والاصدقاء والندماء والموالى والخدم .

وغالبية الخدم فى الدولة الاسلامية من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الاسلامية ،وهم اما اسرى حرب ضرب عليهم الرق أو اشتروا بالمال زمن السلم . وجاء معظم الرقيق الابيض من بلاد اليونان والصقالبة والأرمن والبربر . وبعض هؤلاء كانوا خصيانا يقومون بخدمة الحريم داخل قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة .

أما الاناث من الخدم فكن جوارى يحسن الغناء والرقص وعلى قدر موفور من الثقافة . واتخذ الخلفاء والامراء منهن السريات والمحظيات ، وغدا لبعض هؤلاء الجوارى نفوذ على مواليهن . واقتنيت الجارية لجمالها او لما تحسن من فن او علم او رواية ،

وربما بلغ ثمن الجارية الموفورة الحظ من هذه الصفات نحو ١٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو ٨٠٠٠ جنيه ذهبا .

ويلى هذه الطبقة الاولى طبقة أخرى تشبه أن تكون طبقة ارستقراطية وهى تتألف من العلماء والادباء والشعراء ورجال الفن وكبار التجار واصحاب المهن والصناعات الكبرى . وكان لافراد هذه الطبقة رجحان فى الميزان الاجتماعى بما اوتوا من مواهب أو من ثراء عريض .

ثم تأتى الطبقة الثالثة وهى طبقة العامة وسواد الامة من الفلاحين وسكان القرى ، والغالب على هؤلاء أول الامر انهم كانوا من اهل الذمة ثم شاع فيهم الاسلام .

اهل الذمة :

ويقال لهم أيضا « اهل العهد » وهم الذين بقوا على دينهم سواء كان النصرانية او اليهودية على شريطة ان يؤدوا الجزية للدولة . اما النصارى فكان أغلب اهل القرى منهم ، وكما سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم سمح كذلك لهم بالاحتفاظ بلغتهم ، من آرامية وسريانية فى الشام والعراق ، وايرانية فى فارس ، وقبطية فى مصر ، ثم غلب عليهم الاسلام واللغة العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين . وكان من يعتنق منهم الاسلام يهجر الريف وينتقل الى المدن الكبيرة .

وعاش اهل الذمة فى مستوى اجتماعى من جهة الواقع دون

مستوى المسلمين، غير ان ذلك لم يمنع بتاتا من وصول بعضهم الى منصب الوزارة او مناصب اخرى هامة فى شئون الدولة الماليا والكتابية، بل يكاد يكون جميع الاطباء المختصين بالخلفاء العباسيين الاوائل من النصارى . وأثرى كثير من أهل الذمة ثراء كبيرا الى درجة اثارت غيرة العامة من المسلمين ، وادى ذلك احيانا الى وقوع حوادث وفتن أدت الى التضييق على أهل الذمة من النصارى مثلا ، ولاسيما فى أوقات الحروب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ؛ اذ كان يظن انهم مع البيزنطيين كما حدث زمن المتوكل العباسى . على أن ذلك لم يؤثر فى الحرية الدينية ورعاية شئون النصارى حيثما كانوا ، وكان لهم رئيسهم الروحى الذى يسمونه الجاثليق ؛ وهو تعريب كلمة لاتينية تطلق فى العصر الحاضر على الكاثوليك .

اما أهل الذمة من اليهود ، فكانوا أقل عددا واحسن حالا من التصارى على وجه التعميم ، لانهم تعاطوا اعمال الصرافة المالية ، ولان بعضهم شغل مناصب كبيرة فى الدولة فى كثير من العهود . وكان لليهود فى بغداد جالية مشهورة وكثيرة العدد ، وتولى شئونهم الدينية ربانيهم الاكبر فى كثير من الحرية والاستقلال ، فاذا أراد هذا الرئيس لقاء الخليفة ركب اليه فى كوكبة من الفرسان ، وعليه ثياب الحرير المطرزة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، وبين يديه مناد يفسح له الطريق .

طوائف اخرى من أهل الذمة :

الصابئة اول هذه الطوائف الاخرى وكانوا ينزلون سواد العراق ولهم عقيدة مختلطة من اليهودية والنصرانية ولا تزال بقيتهم فى العراق الى اليوم . والطائفة الثانية المجوس ، وهم اتباع الدين الزرادشتى ولا يزالون موجودين فى الهند . والطائفة الثالثة البوذيون اتباع بوذا وكانوا فى السند والهند . وانزلت الدولة الاسلامية هؤلاء جميعا منزلة اهل الذمة ، من النصارى واليهود وتقاضت منهم الجزية وتركتهم احرارا فى ممارسة عقائدهم وشئونهم الدينية .

لكن طائفة واحدة لم تظفر بهذه المعاملة السمحة ، وهى طائفة المانوية اتباع مذهب مانى الذى ينزع باصحابه الى الزهد المطلق فى الحياة والى عدم الانتاج المطلق . واطلق المسلمون على اتباع هذا المذهب فى العصر العباسى خاصة اسم الزنادقة ، وحاربوه كما حاربه الساسانيون من قبل ، واشتد عليهم الخلفاء المهدى والهادى والرشيد ، وأنشىء لذلك ديوان خاص يعرف بديوان الزنادقة للبحث عنهم والضرب على ايديهم .

الاسرة الاسلامية :

ظلت المراة فى العصر العباسى الاول تنعم بالحرية التى نعمت بها المراة العربية المسلمة فى العصر الاموى ، بل انا لنسمع عن نساء من أهل الطبقة العليا فى العصر العباسى الاول امتزن بقوة الشخصية وسعة النفوذ فى شئون الدولة امثال الخيزران زوجة الخليفة

المهدى ، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وبوران زوجة المأمون . بل نسمع عن نساء عربيات قدن الجيوش وباشرن القتال ، ومنهن الفارعة اخت الوليد بن طريف الخارجى الذى خرج فى زمن الرشيد . كما نقرأ عن نساء اخريات يقرضن الشعر ، ويتقن الغناء ومنهن عبيدة الطنبورية التى اشتهرت زمن المعتصم بجمالها وبراعتها فى فن الغناء .

لكن هذه الحرية اخذت تتناقص شيئا فشيئا بتكاثر الاماء والجوارى وانتشار التسرى وانحطاط الآداب ، فضرب الحجاب على المراة ولم يأت عصر الدولة البويهية حتى امسى الفصل تاما بين الجنسين . وانحطت سمعة المرأة بصفة عامة حتى غدت توصف بالمكر والخديعة وبغير ذلك من الصفات التى نجدها موصوفة بها فى قصص الف ليلة وليلة .

ومهما يكن من شيء فقد ظل الزواج فى المجتمع الاسلامى امرا واجبا على الرجل ، واحب المسلمون كثرة النسل ، وفضلوا كعرب الجاهلية البنين على البنات وكانوا يمتدحون الزوجة التى تقوم على خدمة زوجها ، ورعاية أولادها ، وتدبير شئون بيتها ، فاذا بقى لها بعد ذلك شيء قضته فى العمل بمغزلها أومنسجها .

وكانوا يعدون الرجل ظريفا مهذبا اذا كان وافر الادب ، جم المروءة ، قليل الضحك والمزاح ، نظيف الثياب ، حسن الاكلة اذا اكل ، وفيا بوعده ، كتوما للسر ، متجنبا لقرناء السوء .

ثانيا - الاحوال الاقتصادية

احتوت الدولة الاسلامية فيما احتوت عليــــه من الاراضى الشاسـعة بضـعة أقاليم تعد من أخصب أقاليم العـالم تربة وأكثرها انتاجا ، وهى أولا مصر وبقاع الشـــام التى استولى المسلمون عليها من البيزنطيين ، وثانيـــا العراق وخراسـان وما وراء النهر وسجستان التى كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبيل ظهور الاسلام . وساءت الاحوال الاقتصادية فى هذه الاقاليم جميعا بسبب الحـروب الكثيرة بين الدولتـين البيزنطية والساسانية ، وما ترتب على تلك الحروب من قلة الايدى العاملة فى الزراعة ، واهمـال شـــئون الرى ، وندرة المحاصيل ، مع ثقل الضرائب وشدة وسائل جبايتها من الناس . فلما فتح العرب هذه الاقاليم ، واخـذوا فى تأمين أحوالهـــا الاقتصادية ، كى تصبح الدولة الاسلامية غنية بمرافقها ومنابع ثروتها ، قاموا فى كل من هذه الاقاليم باصلاح طرق الرى خاصة . مثال ذلك ان عمرو بن العاص استخدم نحو ١٢٠,٠٠٠ عامل من المصريين فى اصلاح طرق الرى فى مصر صيفا وشتاء ، وان العباسيين الاوائل جددوا حفر قنوات قديمـــة واستحدثوا قنوات جديدة بالعراق ، وذلك فيما بين الفرات ودجلة ، حتى اضحى مابين هذين النهرين شبكة من القنوات ، بعضها قـديم مجدد ، وبعضها الآخر جديد مستحدث ، وأطلقوا عليها كلهـا اسم النواظم ، لانهـا نظمت توزيع الميـاه بين الاراضى . وبذلك

أعاد العباسيون الى العراق شهرته القديمة بالخصب والنماء ، ولاسيما الجزء الجنوبي المعروف عندهم بالسواد .

وأنتجت مصر من الحبوب الشعير والقمح والارز والسمسم والعدس والفول ، ومن الأليـاف القطن والكتان ، ومن الثمار اللارنج (البرتقال) وقصب السكر ومختلف أصناف الفاكهة والعسل والتمور ، وأنواع المقاتي (الخيار والقثاء) .

وأما العراق فأهم حاصلاتها التمور والقمح والشعير والمقاتي والفاكهة ، والارز والكتان والورد والبنفسج .

ونافست خراسان ومعها ماوراء النهر أراضي مصر والعراق في تقدم الزراعة ووفرة الحاصلات وكثرة السكان ، ولا عجب فرجال هذا الاقليم هم الذين أقاموا دولة بني العباس . ويقول الجغرافي ابن حوقل في وصف المنطقة التي تحيط بمدينة بخارى انه لم ير بلدا تحيط به المروج الخضراء والمزارع والحدائق مثل احاطتها بمدينة بخارى بحيث لايقع البصر « الا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر » .

ويقال ان البطيخ حمل من خوارزم الى بلاط المأمون والواثق في أوعية من الرصاص مبطنة بالثلج ، فتباع الواحدة منه في بغداد بثمن يبلغ بضع مئين من الدراهم . والحق أن أكثر الفاكهة والخضر التي تنمو في غرب آسيا في وقتنا هذا كانت

معروفة فيه اذ ذاك ، عدا المانجو والبطاطس والطماطم التى جاءت من العالم الجديد فى أمريكا أو من المستعمرات الاوربية فى آسيا . ففى ذلك الزمن انتقلت شجرة اللارنج (البرتقال) من شمال الهند الى غرب آسيا ، ومن ثم نقلها العرب الى الاندلس . وزرع الفرس قصب السكر وصنعوا منه السكر ، فانتقل منها الى مصر وسواحل الشام ، حيث عرفه الصليبيون فيما بعد . ونقلوه وصناعة السكر كذلك الى أوربا ، وأصبح مادة لايستغنى عنها الانسان المتحضر فى غذائه اليومى .

وعنى المسلمون عناية فائقة بتربية الازهار ، فزرعوها فى مزارع واسعة بقصد تصدير اعطارها وأدهانها ومياهها . وراجت من أجل ذلك فى دمشق شيراز وغيرهما صناعة استخراج الادهان العطرية من الورد والنيلوفر ، وزهرالبرتقال والبنفسج . وحمل المسلمون ماء الورد من أقليم جور فى فارس الى الصين شرقا ومراكش غربا ، ومن ماء الورد وعطره جاء فى خراج فارس كل سنة ٣٠,٠٠٠ زجاجة الى قصر الخليفة فى بغداد .

الصناعة :

لم تكن الصناعة أقل تقدما من الزراعة فى هذه الاقاليم ، ولا سيما بعد ان خلقت الحياة الاجتماعية فى الدولة الاسلامية انواعا من الترف ، فانتشرت فى غرب آسيا صناعة البسط

والطنافس ، والمنســوجات الحريرية والقطنيــة والصوفيــة ، وأغطيـــة الارائك والوسائد . وانتجت أنوال فارس والعراق بسطا ومنسوجات نفيسة غالية الثمن ، ومنها النسيج المخطط الذي يقال له « العتابى » الذى اشتهر به حى عتاب ببغداد ، نسبة الى أمير أموى اسمه عتاب . وأعجب هذا النسيج العتابى أهل اسبانيا وفرنسا وايطاليا وغـيرها من بلاد أوربا حتى صـار معروفا عندهم باسمه العربى ، ومنه لفظ (TAPIS) ومعناها البساط فى اللغة الفرنسية فى العصر الحاضر .

وصنعت الكوفة مناديل الحرير (الكوفية) التى تتخذ غطاء للراس ، واشتهرت مدن فارس مثــل شيراز وأصفهان بصناعة البسط والمطرزات والثيــاب السلطانية الخاصــة . واشتهرت سوريا ومصر بصنع الاوانى الخزفية وادوات الطبخ والمصابيح ، وبصنع المنســوجات الحريرية المعروفة بالدميــاطى والدبيقى والتنيسى نســبة الى دميــاط ودبيــق وتنيس ، وهى المــدن الصناعية المصرية التى اضحت ذوات شهرة عالمية اذ ذاك .

واشتهرت مدن صيدا وصور وغيرهما من مــدن الشـــام بصنع الزجاج الذى ضرب به المثل فى الصفاء والرقة ، واشتهرت دمشق بصناعة الفسيفساء والقاشانى الذى تزين به جــدران الجوامع والبيوت الكبيرة من الداخل والخارج .

وانتقلت صناعة ورق الكتابة أواسط القرن الثامن الميلادى

من الصين الى سمرقند ، ومنها الى بغداد ، ومن بغـــداد الى مصر ومراكش والاندلس . وبمكتبة جامعة ليدن أقدم كتــاب عربى مكتوب على الورق ، وهوكتاب غريب الحديث لابى عبيد القاسم بن ســلام ، وتاريخ نســخة الكتـــاب ســنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) . وفى القرن الثـــانى عشر والثــالث عشر الميلادي انتقلت صــناعة الورق من البــلاد الاســلامية الى ممالك أوربا المسيحية حيث غدا الورق مستعملا للكتابة لاول مرة .

وبازدياد الثروة فى الدولة الاسلامية صارت صناعة الحــلى وصقل الاحجار الكريمة ذات شأن كبــير فى كثير من المــدن ، فصار اللؤلؤ واليــاقوت الازرق والاحمر والزمرد والمــاس من الجواهر المفضلة عند الخلفاءوالامراء وعلية الناس . أما الطبقة الدنيا ، فرغبت فى الفيروز والجزع (أو العقيــق اليمــانى) . ومن أشهر الجواهر فى التاريخ الاســلامى ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديما ملوك فارس الساسانيين ، ثم صارت الىالخليفة الرشيد حين اشتراها بمبلغ ٤٠,٠٠٠ دينـــار ونقش عليهــا اسمه ، وقيل ان هذه الياقوتة من الكبر واللمعــان بحيث لو وضعت فى الليل فى حجرة مظلمة لاضاءت كالسراج .

واستخرج المسلمون الذهب والفضــة والمرمر من جبــال خراسان ، والزئبق والياقوت من جبال ماوراءالنهر ، والرصاص والفضة منكرمان ، واللؤلؤ منالبحرين والحديد منجبللبنان .

التجـــارة :

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشـــأت تجارة عالمية واسعة على يد أهل الذمة من النصارى واليهود ومن فى حكمهم كالزرادشتيين ، ثم تحولت هــذه التجارة العالمية شيئا فشيئا الى المسلمين ولا سيما العرب الذين عرفوا التجارة قديما وكانت لها عندهم مكانة مرموقة ليست للزراعة ولا للصناعة . وسرعان ما استحــالت مرافىء برية وبحــرية الى مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى ، وأهمها بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية .

ووصل تجار المسلمين شرقا الى الصين من أجل المشـــاركة فى تجارة الحرير ، وسافروا اليها عن « طريق الحرير العظيم » الذى يمر من سمرقنــد وتركســتان . وورد فى بعض الوثائق الصينية القديمة اسم أمير المؤمنين ابى العباس واسم الخليفة هارون الرشيد ، مما يدل على قدم الصلة بين الدولة الاسلامية والصين . ووصل تجار المســـلمين الاولين غربا الى مراكش واسبانيا ، وجنوبا الى ســواحل أفريقيــا الشرقيــة وجزيرة مدغشقر وأخبر السعودى المؤرخ ان الخليفة هارون الرشــيد فكر فى الوصل بين البحرين الاحمر والمتوسط بقناة وذلك قبل ديلسبس بأكثر من ألف ســنة . وأما شــمالا فوصل تجــار المسلمين فى القرن العاشر الميلادى الى الاقاليم التى يجرى فيها نهر الفلجــا ، وغــدا بحر قزوين والجهــات المحيطة به مجــالا لنشاطهم بصفة خاصة .

وحملت قوافل التجار المسلمين واساطيلهم التجارية احمال التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والسيوف وآنية الزجاج الى أقاصى آسيا وبفريقيا ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافوروالحرير من أقاصى القارة الاسيوية ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من القارة الافريقية .

وقصص السندباد البحرى وغيرها من قصص كتاب الف ليلة وليلة تعطى صورا لمغامرات هؤلاء التجار فى سبيل الثراء ، كما تلقى ضوءا على أسواقهم ومعاملاتهم التجارية . وظهر غير واحد فى الدولة الاسلامية من كبار التجار ممن بلغت ثروتهم بملايين الدنانير ، وذلك فى بغداد والبصرة خاصة ، على نحو مانشهد فى الولايات المتحدة الامريكية فى العصر الحاضر .

النظم المالية

الاموال التى استحقتها الدولة الاسلامية من رعاياها نوعان :

١ — مال تتقاضاه الدولة من المسلمين خاصة ، وهو الزكاة . ولا حق للدولة فى مال المسلم غير الزكاة .

٢ — مال تتقاضاه الدولة من اهل الذمة ومن اعتبروا فى حكمهم من الطوائف ، وهى جزية الرءوس وخراج الارض وضرائب اخرى ثانوية . ومطلق على هـذه كلها اسم (الفىء) ، تمييزا لها من أموال غنائم الحرب .

الزكاة :

ويقال للزكاة أيضا الصدقة ، وهى تؤخذ من الاغنيـاء فى كل جهة اسلامية وتفرق فى فقرائها .

والاموال التى تكون فيهـا الزكاة أربعـة انواع (١) المـاشية (٢) والذهب والفضة (٣) والثمار (٤) والزروع .

والماشية تشمل الابل والبقر والغنم . ولها حد أدنى لا تؤخذ فيما دونه زكاة ثم تزداد الزكاة فيما فوق الحد الادنى بزيادة عدد الماشية . وكل ذلك وارد بالتفصيل فى أحكام السنة .

أما الفضـة فليس فيمـا دون ٢٠٠ درهم زكاة ، وأما ما بلغ ٢٠٠ درهم فأكثر فتؤخـذ زكاته بنسبة ٥ر٢ ٪ . ومثـل ذلك الذهب ، فليس فيما دون العشرين مثقالا زكاة ، وما زاد فيؤخذ عن كل عشرين مثقالا نصف مثقال . ومثـل الذهب والفضـة أموال التجارة .

واما الثمار وتشمل ثمار النخل والكرم والزيتـون وغيرها من أشجار الفـاكهة فتختلف زكاتها باختـلاف نوع سقايتها . فاذا سقيت بغـير مشقة ، أى بماء المطر أو الأنهر الجارية ، فزكاتها العشر . واذا سـقيت بمشقة فنصف العشر . وعلى كل حال لا تستحق الزكاة على الثمار الا اذا بلغت كمية معينـة ، وهى خمسـة أوسق فأكثر .

واما الزروع ، وهى الحبوب بانواعها من القمح والارز واللوبيا والحمص والعدس ونحوها ، فحكمها فى الزكاة حكم التمار .

المستحقون للزكاة :

عين القرآن الاوجه التى تصرف فيها أموال الزكاة ، وذلك فى قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ؛ وفى سبيل الله وابن السبيل » . ولذا جرى تقسيم مال الزكاة ثمانية أسهم : السهم الاول للفقراء وهم الذين لا يملكون شيئا ، بشرط أن يأخذ الفقير الواحد أقل من ٢٠ درهم ، حتى لا تستحق عليه الزكاة . والسهم الثانى للمساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم ، وقيل بل هم فقراء أهل الذمة ، كما ورد عن عمر بن الخطاب . والسهم الثالث للعاملين على الزكاة اى الذين يتولون جبايتها ، فيأخذون أجورهم منه . السهم الرابع يفرق فى المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين تتألفهم الدولة ، اما لكف أذاهم عن المسلمين أو لترغيبهم أو ترغيب عشائرهم فى الاسلام . والسهم الخامس يذهب فى شراء الارقاء وعتقهم . والسادس للغارمين وهم العاجزون عن وفاء ديونهم ، فيعطون منه ما يقضون به ديونهم . والسابع ينفق فى سبيل الله ، أى يعطى منه للغزاة المجاهدين نفقة ما يحتاجون اليه من عدة الحرب . والسهم الثامن لابناء السبيل وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

الضرائب التى تؤخذ من أهل الذمة :

فانت ترى مما تقدم أن الدولة مقيدة فى جبـاية أموال الزكاة وانفاقها بالـكتاب والسـنة ، فمن أين تأتى الدولة بالمـال اللازم للمصالح العامة من عمارة المساجد وصيانة الطرق ، وحفر الابار وكرى الترع وانشـاء الخلجان ؟ ومن أين تأتى بنفقات الجنـد ورواتب العمال ؟ والجواب أن الدولة حصلت على المال اللازم لكل ذلك من الضرائب التى تتقاضاها من أهـل الذمة من اليهـود والنصارى ، ومن جرى مجراهم من المجوس والصائبين . وهذه الضرائب نوعان هما : الفىء والغنائم ، أى غنائم الحرب .

والفىء لفظ يطلق على الاموال التىتجبيها الدولة منأهل الذمة واشباههم من الطوائف ، على هيئة جزية أوخراج بصفة خاصة. ذلك انه لما فتح العرب العراق وغيره من الاقطـار ، أراد الجنـد تقسيم الارض الزراعية عليهم قسمة أموال الغنائم ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك. وجـرى فى الامر جدل ونقـاش كثير ، ثم استقر رأى كبار الصحابة على أن تكون الارض ملكا للدولة ، وأن يعهد الى من عليها من أهل الذمة باستغلالها على أن يؤدوا عنها للدولة الجزية عن رءوسهم ، والخراج عن الارض التى يزرعونها. وأن يعوض الجند باعطيات أو رواتب تصرفها لهم الدولة .

وعلى ذلك وضع عمـر الجزية عـلى الرءوس والخـراج على الارض ودون ذلك فى سجلات ، كما فعل الفرس والبيزنطيين ، وهو المعبر عنه بتدوين الدواوين . وكانت السجلات تكتب أول

الامر باللغـات الاجنبية ، ثم عربت زمن عبد الملك بن مروان .

ويطلق لفظ الجزية على عهد الرسول وأبى بكر وصدر خلافة عمر على المال الذى يؤديه أهل الذمة للدولة ، سواء كان ضريبة رءوس أو ضريبـة أرض . فلما فتح المسـلمون أقاليم الفـرس والبيزنطيين ، ووجدوا أن لكل من النوعين اسما خاصا ، تخصص لفظ الجزية بضريبة الرءوس ، ولفظ الخراج بضريبة الارض .

ولم تكن الجزية أول الامر محددة المقدار ، ثم تعين مقـدارها على الرجل الغنى ٤٨ درهما فى العام ، وعلى المتوسط الحال ٢٤ درهما ، وعلى الفقير ١٢ درهما . وأعفت الجزية أبناء أهل الذمة من الخدمة العسكرية ، فاذا اعتنق الذمى الاسلام سقطت عنـه الجزية ، وصار مطلوبا للخدمة العسـكرية . ولم تطلب الدولة ضريبـة الجزية على النسـاء أو الصبيان أو ذوى العـاهات أو الشيوخ أو الرهبات المنقطعين للعبادة .

أما الخراج فالغالب أن المسلمين اتبعوا فى تقديره النظام الذى كان متبعـا فى كل اقليم قبل أن يفتحوه ، وهو فى بعض الجهات نظام المقاسمة للمحصول بعد تمام نضجه ، اى أن تأخـذ الدولة حصة لا تزيد على النصف ولا تقل على الخمس ، وتترك الباقى لصاحب الزراعة . وفى جهات أخرى جرى تقـدير الخراج على نظام خراج المساحة ، اى أن تأخذ الدولة الخراج باعتبار مساحة معينة ، وهى الفدان فى مصر ، والجريب فى العراق . وقد يكون الخراج على نظام خراج القاطعة ، اى تقدر الدولة حصتها تقديرا

ثابتا لا يتأثر بزيادة المحصول أو نقصانه ، بخلاف الحال فى النوعين الآخرين على ما يظهر .

وفرضت الدولة عدة ضرائب أخرى ثانوية تلحق بالخراج ، ومنها أعشار السفن التى تمر ببعض الثغور الاسلامية ، فيؤخذ منها العشر أما عينا أو نقدا ، واخماس المعادن المستكنة فى باطن الارض ، فيؤخذ عنها الخمس .

أما غنائم الحرب ، فهى ما يستولى عليه المسلمون من أعدائهم بالحرب ، أى (١) الاسرى (٢) والسبى (٣) والاموال المنقولة (٤) والاراضى .

فأما الاسرى ، وهم رجال العدو المقاتلون الذين يقعون فى الاسر ؛ فولى الامر مخير بين أن يمن عليهم ويطلقهم ، وبين أن يأخذ الفداء عنهم ، والمال المأخوذ على هذه الصورة يضم الى باقى الغنيمة . وأما السبى فالمقصود به النساء والاطفال الذين يقعون فى أيدى المسلمين اثناء الحرب ، فلا يجوز قتلهم وانما يفرقون فى جملة الغنيمة ، ويجوز قبول الفداء عنهم . وأما الاموال المنقولة ؛ وهى الماشية وعتاد الحرب الذى يصير بعد الوقعة الى المسلمين ؛ فيدخل فى جملة الغنيمة ويفرق كما سيأتى . وأما الاراضى التى يكسبها المسلمون بالحرب فلا تدخل فى جملة الغنيمة ، بل تعامل على نحو ما تقدم فى الكلام عن الفىء .

تقسيم الغنائم :

وعين القرآن طريقة تقسيمها ، وذلك فى قوله تعالى «واعلموا أن

ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وسرسرب . ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » فتقسم اموال الغنيمه من فداء وسبى وأموال منقولة خمسة اقسام ، أربعة منها للمقاتلة توزع عليهم بالسوية ، ثم يقسم الخمس الباقى ، الذى هو للرسول ، الى خمسة أسهم ، سهم ينفق منه على نفسه وعلى ازواجه وفى مصالح المسلمين ، وسهم يفرق فى ذوى قربى الرسول وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو مناف ، وسهم لليتامى من ذوى الحاجات ، وسهم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لابناء السبيل ، وهم الذين لايجدون نفقة السفر .

ديوان الجند :

تنفيذا لما تقرر من جعل الارض الزراعيةفى البلاد المفتوحة ملكا عاما للدولة ، وصرف اعطيات الجند مما يتبقى من مال الفيء بعد طرح جميع نفقات الادارة ، أنشأ عمر بن الخطاب ديوان الجند ، ودون فيه اسماء جميع الذين يستحقون عطاء ، ورتب الاسماء بحسب القبائل ، وجعل عطاء كل مستحق بحسب قرابته للرسول أوبحسب سابقته فىخدمةالدولة والدعوة الاسلامية أومبلغ حفظه للقرآن . وهو احصاء طريف حقا ، ويعتبر الاول من نوعه فى التاريخ . ولذا جاء أزواج النبى عليه السلام فى راس السجل ، وبلغ عطاء كل منهن يختلف بين ١٢،٠٠٠ درهما فى العام وهو عطاء السيدة عائشة ، ١٠،٠٠٠ درهم ، وهو عطاء كل من سائر

ازواجه . ثم المهاجرون والانصار ، واختلف عطاء كل منهم باختلاف سبقه الى الاسلام ، وبلغ متوسط ما يأخذه الواحد من هذه الطبقة بين ٤٫٠٠٠ ، ٥٫٠٠٠ درهم فى العام ، ثم بقية المستحقين من سائر القبائل العربية ، مرتبين بحسب سابقتهم أو علمهم بالقرآن . وتراوح أقل عطاء للجندى العادى بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ درهم فى العام ، وأقل عطاء حتى للنساء والاطفال والموالى بين ٢٠٠ ، ٦٠٠ درهم .

اعتبار الخراج حقا عينيا على الارض :

حدث فى أثناء القرن الاول الهجرى أن دخل كثير من أهل الذمة فى الاسلام ، وأصبحوا من الموالى ، فسقطت عنهم الجزية وصارت أرضهم الزراعية أرض زكاة لا أرض خراج . وهجر كثير من أولئك الموالى الداخلين فى الاسلام الريف الى المدن الكبرى ليلتحقوا بالجيش وصار لهم عطاء ، بمقتضى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب . وترتب على ذلك أن تناقص دخل بيت المال من الجزية والخراج ، وهما أهم موارد الدولة المالية . ثم حدث ابتداء من عهد الخليفة عثمان أن سمحت الدولة للعرب بأن يضعوا أيديهم على أراض زراعية خراجية فى الاقاليم المفتوحة ، فأصبحت بتمليكهم لها تؤدى الزكاة فحسب ، وهى فى الجملة أقل من الخراج فازداد تأثر المال بتلك الحال . فلما جاء الحجاج عمل على تلافى كل ذلك بأن الزم الموالى العودة الى الريف وأداء الجزية برغم اسلامهم ، كما ذهب الى فرض الخراج على العرب الذين وضعوا

أيديهم على أراض فى الاقاليم المفتوحة. غير أن الشكوى عمت من هذه المعاملة. فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عمن أسلم من الموالى ، واعتبر الخراج حقا عينيا ثابتا على الارض لا يتأثر باسلام صاحبها ، وذلك بأن تضم الارض الى أرض القرية ولصاحبها أن يستأجرها بعد ذلك على شريطة أن يؤدى عنها الخراج ، كما نهى عن أن تصير أرض خراجية الى عربى بعد سنة ١٠٠ هـ . وبذلك أصبحت الارض الزراعية فى الدولة الاسلامية من ذلك الوقت اما خراجية يؤدى عنها الخراج ، واما عشرية يؤدى عنها الزكاة .

ويمكن أن يقال بوجه عام أن الارض فى الدولة الاسلامية كانت ملكا للدولة ، وأن الناس استغلوها على قاعدة أن يكون للحكومة نصيب من غلتها ، وذلك الى أوائل القرن الماضى ، اذ تقرر تمليك الفلاح الارض التى يزرعها ، على نحو ما حدث فى مصر خاصة .

ارتفاع الخراج :

المقصود بهذا التعبير مقدار ما يجبى من خراج كل اقليم سنويا ، ومع أنه ليس لدينا احصاء واف بما جبى من الخراج فى العصور الاسلامية الاولى ، فمن المعروف أن العراق بلغ ارتفاع خراجه زمن عمر بن الخطاب ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى العام ، وفى زمن الحجاج ١٨٨٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وفى أواخر الدولة الاموية ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، واما مصر فجباها عمرو بن العاص

١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وبلغت جبايتها زمن هشام بن عبد الملك ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، ثم انحط خراجها فى الدولة العباسية الى ٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار . غير أنه زاد زمن بن طولون الى ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار ، استمر خراجها نحو ذلك . وأما الشام فبلغ خراجها زمن عبد الملك ابن مروان ٧٢٠,٠٠٠ دينار .

ثروة الدولة الاسلامية فى أزهى عصورها :

ولدينا ثلاث قوائم لايرادات الدولة العباسية فى عصور ثلاثة ، وهى عصر المأمون وعصر المعتصم ، ومنتصف القرن الثالث الهجرى والقائمة الاولى أوردها ابن خلدون ، ومنها نعلم أن ماوصل الى بيت المال ببغداد زمن المأمون بلغ ٣٩٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم بما فى ذلك الضرائب العينية . والقائمة الثانية أوردها قدامة بن جعفر فى « كتاب الخراج » ومنها نعلم أنه وصل الى بيت المال على عهد الخليفة المعتصم بالله ٣٨٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، بما فيها الضرائب العينية . والقائمة الثالثة أوردها ابن اخراذ ذبة فى كتابه ، وتتعلق بجباية الدولة العباسية فى أواسط القرن الثالث ، ويبلغ مقدارها ٢٩٩,٢٦٥,٠٠٠ درهم . وصفوة القول أن الدولة الاسلامية كانت فى أزهى عصورها من أغنى دول العصور القديمة والعصور الوسطى ، ان لم تكن أغناها على الاطلاق .

الحيـــاة الفكرية

غلبت الأمية كما غلبت البداوة على العرب فى جاهليتهم ، فلم يكن لهم علوم بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، بل كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهد والتجربة ، أو اقتبسوها من جيرانهـم من الفرس والبيزنطيين والسريان ، ومن هـــذه معلومات بدائية فى طب الانســـان ومعرفة أجزاء جسمه وعلله وعلاجها ، وطب الحيوان ولا ســيما الخيل والابل ، ومعلومات اخرى تتعلــق بالظواهر الجوية ، وهو ما عبروا عنـــه بالانواء ومهاب الرياح ومساقط الغيث ، ومعلومات فلكية تتصل بمواقع النجوم الثوابت والكواكب السيارة واوقات طلوعها وغروبهـــا ، وهذه افادتهم فى أسفارهم خاصة . واشـــتغل العرب بمعرفة ما كان أو يكون من الحوادث ، وهو ما يسمونه العرافة والكهانة ، ومهروا فى قدرة تتبع آثار الانسان والحيوان ، والاستدلال بها على أصحابها ، وهو ما أطلقوا عليه قيافة الاثر ، أو تبين النسب بين شخصين من علاقات خلقية مشتركة بينهما ، وهو قيافة البشر .

فلما جاءهم الاسلام نقلهم من هذه الحال البدائية الى حال جديدة ، اذ فتح لهم آفاقا فسيحة من العلم والمعرفة ، ومهد

لهذه الحال الجديدة أمران جليلان تم كل منهما فى عهد الخلفاء الراشدين :

(١) جمع القرآن من الصحف التى كتب فيها الوحى زمن الرسول ، ومن صدور الرجال ، وذلك بتدوينــــه فى مصحف واحد ، ارسلت نسخ منه الى الامصار الــكبرى ؛ وبذا أصبح للمســـلمين نص واحد معتمد لكتابهم المقــدس يستنسخونه ويقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف فيه .

(٢) نمو الخط العربى وانتشاره بين المسلمين ، وأخذ العرب الخط أصلا عن الحيرة القريبة من الكوفة ، ولذا اشتهر هـــذا الخط باسم الكوفى ، ثم أخذوا عن الانباط بشمال شبه الجزيرة نمطا آخر ، وهو المسمى بخط النسخ . وبذلك لم يعد العرب اميين ؛ بل أصبح أكثرهم يقرأ ويكتب ؛ وهو مالا بد منــه فى التمهيدلكل حركة فكرية عامة .

ومن الطبيعى أن يأخذ العرب من علوم الحضـــارات التى امتدت اليها فتوحهم ما تمس اليه حاجتهم من تلك العلوم ، وأن تنمو بينهم علوم اقتضاها الاسلام نفسه ، من تفســير للقرآن وجمـــع وتدوين للحديث ، واستنباط للاحــكام الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو المسمى بعلم الفقه . فلما دخل كثير من الاعاجم فى الاســلام ، وصاروا موالى فى الدولة الاســـلامية ، اقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف فيه ، ونشأ عن اشـــتغال

العرب والموالى بمختلف العلوم حركة فكرية أخذت تقوى وتعظم حتى بلغت الغاية حوالى منتهى القرن الرابع الهجرى ، وهى فى الواقع من أعظم الحركات فى تاريخ الفكر الانسانى بوجه عام .

واتخذت هذه الحركة مراكز مختلفة باختلاف محور الارتكاز السياسى والفكرى فى الدولة الاسلامية وأقاليمها ، وهذه المراكز بحسب ترتيبها الزمنى هى : (١) فى الحجاز مكه والمدينة (٢) وفى العراق البصرة والكوفة وبغداد (٣) وفى الشام دمشق (٤) وفى مصر الفسطاط . وازدادت هذه الحركة نشاطا وقوة منذ القرن الثالث الهجرى ، حين ظهرت مراكز أخرى فى فارس وخراسان وما وراء النهر وفى شمال أفريقية والاندلس .

علوم اللغة

علم النحــو :

ينبغى ان يكون واضحا كل الوضوح فى هذا الموضوع أولا أن العــرب الذين غلبت عليهم الأميــة والبداوة فى جاهليتهم ؛ أسهموا فى الحضارة الاسلامية وعلومها كلها فى العصور المختلفة بسهم عظيم هو اللغة العربيـــة الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، واحتواها الادب العربى القديم وما فيه من نظم ونثر يشرح كل منهمـــا مستويات الفـــكر والذوق الفنى والخلق والسلوك عند العرب .

ثم اختلط العرب بالاعاجم من الفرس والبيزنطيين والسريان ،

ودخل كثير من أولئك الاعاجم فى الاســـلام ، فظهر اللحن فى اللغة ، ومست الحاجة الى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ ، وهذا هو الباعث على وضع علم النحو . والرأى السائد ان ابا الاســود الدؤلى الذى وضـــع علم النحو ، أو انه بوجه أصح هو البادىء بوضعه . وصحب أبو الاسود الامام على بن أبى طالب ، ويقال أنه بدأ بوضع النحو باشارة الامام على نفسه. وعاش ابو الاسود الدؤلى فى البصرة ، والظـــاهر أنه اطلع على نحو السريان ، فنسج على منواله فى وضع النحو العربى .

واشتغل علماء البصرة بالنحو فى العصر الاموى وصدر الدولة العباسية ، ثم جاراهم فى الاشتغال به علماء الكوفة ، غير أنهم خالفــوا البصريين فى بعض قواعده ، وصار لــكل من الفريقين مذهب فى النحو ينسب اليه .

ثم استوى النحو علما جليلا مستقلا بنفسه ، بعد أن وضع فيه سيبويه (توفى سنة ١٨٣ هـ) كتابه الكبير الذى هو عمدة هذا العلم وأساسه ، واخذ العلماء يؤلفون فيه بعده ، فى البصرة والكوفة وغيرهما من الامصار ، ولا سيما الاندلس .

علم اللغة :

واستحدثت الشريعة الاسلامية والنظم السياسية والادارية فى الدولة والمجتمع ألفاظا ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه الالفاظ والمصطلحات بما نقل المسلمون عن اليونانية والفارسية من مختلف العلوم الطبية والرياضـــية

والفلسفية . ثم أدى ذلك السيل من المفردات الجديدة فى لفظها واستعمالها الى البحث فى مفردات اللغة العربية ، من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها وطرق تعريب الدخيل عليها . وتناول المسلمون ذلك أول الامر على شكل مجموعات منها مصطلحات موضوع واحد ، كالخيل ، والشجر ، والنخيل ، والكرم ، وخلق الانسان ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمياه ، والجبال ، فحصلت عندهم بذلك مادة لغوية عظيمة استغلها واضعو المعاجم اللغوية .

واكبر واضعى المعاجم العربية فى عصر النهضة الاسلامية الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، ومعجمه يسمى « كتاب العين » ، لانه بداه بالالفاظ المبدوءة بحرف العين . وتبعه ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وله « الجمهرة » ، ثم الازهرى المتوفى سنة ٣٧٠ ، وله « كتاب التهذيب » ، ثم الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ وله معجم « الصباح » ، ولخص محمد بن أبى بكر الرازى من أهل القرن الثامن هذا المعجم فى كتاب سماه « مختار الصحاح » ، وهو متداول فى المدارس المصرية . وآخر أصحاب المعجمات فى عصر النهضة ابن سيده ، وله كتاب « المخصص » ، وهو معجم مواده مرتبة على المعانى لا الالفاظ ، ثم كتاب « المحكم فى اللغة » ، وهو أساس القاموس المحيط . وتشهد هذه المؤلفات بأن العرب أسبق الامم الى وضع المعاجم للغتهم فى التاريخ كله ، ما عدا أهل الصين فيما يقال .

علوم الدين

تفسير القرآن :

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ، ومع ذلك لم يكن القرآن كله فى متناول جميع الصحابة ، يستطيعون فهمه اجمالا وتفصيلا ، بل احتاج بعضهم أن يسأل عن معانى بعض الفاظه أو اشاراته أو عن سبب نزول آية من آياته . واشتدت هذه الحال بدخول الاعاجم فى الاسلام ، فلم يلبث ان اشتهر بعض كبار الصحابة بالقول فى تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنهم تفسير له على بن ابى طالب ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وابى بن كعب . ثم اشتهر بعض التابعين بالرواية عن هؤلاء الصحابة . وبعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين أخذ العلماء يؤلفون الكتب فى تفسير القرآن ، وأعظم تفسير للقرآن هو تفسير ابن جرير الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) ثم تعددت التفاسير وتنوعت بين موجزة ومفصلة ، ولكل منها مزية معروف بها .

علم الحديث :

يراد بالحديث ما يروى عن رسول الله عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، واخذ الناس الحديث عن الصحابة ، ولا سيما الذين طال اتصالهم بالرسول ، ومنهم السيدة عائشة زوجه ،

وعمر بن الخطاب ، وابى هريرة ، ثم ظهرت طبقة من التـابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث أول الامر ، كما دون القرآن ، بل ظل غير مدون فى الجملة مدة القرن الاول ، يتناقله المحدثون مشافهة وحفظا فى الذاكرة ، لانهم كرهوا ان يكون الى جانب القرآن كتاب اخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . فلما ظهرت أحاديث موضوعة لايعرفها اعلام الصحابة والتابعين ، وتجرأ الواضعون على رسول الله فنسبوا اليـه احاديث غير صحيحة ، اشتدت الرغبـة فى تدوين الاحاديث الصحاح . ثم أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بعض من يوثق به من علماء الحديث بجمع الاحاديث ، فكتبت ودونت فى دفاتر ، وأرسلت منها نسخ الى أنحاء الدولة الاسلامية . ثم استفاض التأليف فى علم الحديث ، وهى كتب السنة وأهل الاجماع وأشهرها وأكثرها تداولا « الجامع الصحيح » لابى عبـد الله محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وافادت اللغة العربية من تدوين الحديث فائدتين كبيرتين ، وهما ان لغة الحديث النبوى طبقة عالية من البلاغة ، ثم أن السنة هى المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن ، وتدوينها هو الذى سهل لرجال الفقه والتشريع عملهم .

علم الفقه

وهو العلم بالاحكام الشرعيـة العملة المستنبطة من الادلـة التفصيلية ، والمراد بالاحـكام الشرعيـة العملية كل ما يتعلق

بالعبادات والمعـــاملات والاحوال الشخصيـــة والجنايات والنظم العامة . واستنبط كبار الصحابة أحكام الشريعة من الكتـــاب والسنة ، فان لم يجدوا نصا صريحا لجأوا الى القياس أو الرأى أو الاجماع ، وعبروا عن ذلك بالاجتهاد . غير أن فقهاء الحجاز مالوا الى الاستمساك بالكتاب والســـنة ، لاستفاضة الحديث عندهم ، ولم يجنحوا الى الاخذ بالقياس والاجماع الا عنـــد الضرورة القصوى . أما فقهاء العراق ، فلقلة رواية الحـديث عندهم صاروا الى الاخذ بالقياس والرأى فيما ليس فيـــه نص صريح فى كتاب او سنة مشهورة . ولذلك عرف فقهاء الحجاز بأهل الحديث ، وفقهاء العـــراق بأهل الرأى والقياس ، وزعيم الأولين الامام مالك بن أنس ، وزعيم الاخرين الامام أبو حنيفة .

وفى القرن الثانى من الهجرة ابتدأ ظهور نوابغ الفقهاء ، ومـــن آرائهم نشأت المذاهب السنية الاربعة المعمول بها حتى يومنـــا هذا . وأصحاب هذه المذاهب على حسب ترتيب وفياتهم هم : الامام أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، والامام الشافعى الذى مزج فى مذهبه بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق ، وأتم مذهبه فى مصر حيث توفى سنة ٢٠٤ هـ ، والامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو امام أهل الحديث فى عصره . ولكل من هؤلاء الائمة تلاميـــذ أخذوا الفقه عن امامهم ، وألفوا الكتب على مذهبه ، وعملوا على نشره فى البـــلاد .

علم أصول الفقه :

ولم يكتف الفقهاء باستنباط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، بل وضعوا لذلك من القواعد ما يضبطها ويحكمها ، واطلقوا على مجموع هذه القواعد أسم « علم أصول الفقه » ، وأول من كتب فى هذا العلم الامام الشافعى .

والخلاصة ان المسلمين استنبطوا الاحكام والشرائع ، ودونوا فقههم قبل انقضاء القرن الثانى الهجرى من قيام دولتهم وهو مالم يتفق لدولة من الدول السابقة ، فالقانون الرومانى مثلا لم يستقر أمره ويضبط الا زمن الامبراطور جستنيان ، أى بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون ميلادية .

التاريخ

عنى المسلمون عناية شديدة بالتاريخ ؛ فألفوا فيه كتبا كثيرة ؛ وصلنا منها ما يعد بالمئات ، فضلا عما ضاع ولم يصل الينا . ونشأت رغبتهم فى التاريخ من حرصهم على معرفة سيرة الرسول واخبار الفتوح ، ونهجوا أول الامر فى تدوين التاريخ منهج المحدثين ، فأوردوا الخبر مسبوقا بسلسلة أسناده ، ثم صاروا يرتبون الحوادث بالسنين مع استبقاء الاسناد ، كما فعل الطبرى . ثم أسقطوا الاسناد ، ورتبوا الحوادث بالسنين ، كما فعل ابن الاثير . ثم اخذوا يؤرخون لكل دولة من الدول على حدة ، كما فعل ابن خلدون وتلميذه المقريزى المصرى .

ومن أشهر الكتب التاريخيه « سيرة الرسول » تاليف محمد ابن اسحق المتوفى سنه ١٥٠ هـ ، وهذه السيره وصلت الينا مهذبة على يد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وسميت لذلك باسم سيرة ابن هشام . ومن هذه الكتب كذلك سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم من اهل القرن الثانى الهجرى ، « وكتاب فتوح البلدان » للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو افضل كتاب فى موضوع الفتوح . وألف المسلمون فى الطبقات ، وأشهر كتبهم فى ذلك « كتاب الطبقات الكبير » لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وهو فى طبقات الصحابة والتابعين . أما مؤلفات المسلمين فى التاريخ العام فأولها تاريخ ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وهو أوسع وأعظم تأليف فى تاريخ الدولة الاسلامية فى القرون الثلاثة الاولى ، وكتاب « مروج الذهب » للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، ثم كتاب « تجارب الامم لمكسوبه المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ولهذا الكتاب ذيل من تأليف الوزير أبى شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ومن المادة المتجمعة فى هذه الكتب وكثير غيرها استقى ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ كتابه المسمى بالكامل فى التاريخ ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فى كتابه المسمى المختصر فى تاريخ البشر ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فى كتابه المسمى المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر .

ويؤخذ على مؤرخى المسلمين عامة أنهم قصروا همهم على أخبار الخلفاء والملوك والامراء والحروب والفتن ، وانهم لم يتعدوا

ذلك الى وصف الاحوال الاجتماعية والشئون الاقتصادية والادبية ، وانهم قلما ينقدون خليفة أو حاكما مهما بلغ من الظلم والطغيان ، على أنهم على العموم توخوا الصدق فى روايتهم ؛ وهى مزية لهم ولا شك عظيمة .

الاجتماع

الاجتماع هو دراسة ما تتصف به الجماعات والشعوب من مواصفات فى معايشها ومحافلها ؛ واعيادها ومواسمها ، وفى كتب الرحلات والخطط والمجموعات التاريخية والجغرافية معلومات كثيرة عن هذه الاحوال ، فوصف ابن حوقل احوال جزيرة صقلية وطباع اهلها عندما زار هذه الجزيرة ، وفعل مثل ذلك ابن جبير للاقطار التى زارها فى رحلته ، وكذلك وصف ابن بطوطة فى رحلته ما شهده من عادات الشعوب التى زار بلادها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب . وأسهب المقريزى (توفى سنة ٨٤٥ هـ ؛ فى كتاب الخطط الشهير ؛ الاعياد والمواسم والاحتفالات الدينية للمصريين ؛ زمن الفاطميين خاصة . وكذلك أورد المقرى (توفى سنة ١٠٤١ هـ) فى كتابه « نفح الطيب » فصولا متنوعة فى عادات أهل الاندلس ، فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومختلف أحوالهم .

واذا أردنا بالاجتماع العلم الذى يبحث فى تطور الجماعات ، ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها ، ثم عوامل ضعفها واضمحلالها وسقوطها ، وبعبارة أخرى « فلسفة التاريخ »

فابن خلدون فى مقدمته العظيمة خاض غمار هذا العلم ، وكتب فيه بتفصيل تام فى أسلوب علمى ، فأوفى على الغاية ، وهو فى الواقع المؤسس لعلم الاجتماع فى الشرق والغرب ، اذ سبقت آراؤه فى هذا المجال معظم ما جاء به علماء أوربا الحديثة من نظريات علمية مستمدة من دراسات طويلة .

تقويم البلدان

بلغ تجار المسلمين فى أسفارهم خلال القرنين الثانى والثالث من الهجرة بلاد الصين برا وبحرا ، وجزيرة زنجبار وأقاصى سواحل أفريقية الجنوبية ، وأوغلوا فى روسيا شمالا ، ووصلوا الى سواحل المحيط الاطلسى غربا . ورجع أولئك التجار بكثير من أخبار الاقطار والشعوب التى زاروها ، فأثارت هذه الاخبار رغبة واسعة فى معرفة هذه الاقطار وشعوبها . ومن هؤلاء الرائدين المسلمين سليمان التاجر ، وأصله من سيراف الواقعة على الخليج الفارسى ، اذ سافر غير مرة الى الصين وسواحل الهند ، ودون وصف أسفاره مؤلف مجهول الاسم فى كتاب مشهور ، وذلك فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند .

ثم أن الخليفة المقتدر بالله العباسى أوفد أحمد بن فضلان سنة ٣٠٩ هـ الى ملك البلغاريين النازلين على ضفاف نهر الفلجا ، وكتب ابن فضلان وصف رحلته هذه ، وأورد هذا الوصف

ياقوت الحموى فى معجمه فى مادة « بلغار » ، وهو أقدم نص عربى عن روسيا فى العصور الوسطى .

هكذا ابتدأت كتب الجغرافية الاسلامية المتعلقة بالاقطار والشعوب الاجنبية ، أما جغرافية الاقاليم الاسلامية نفسها ، فانشأتها عوامل أخرى ، وهى الحاجة الى وصف الطرق المتشعبة التى تسلكها قوافل الحجاج والتجار وغيرهم ، والى معرفة ابعادها ، ومراحلها ومنازلها ، والمدن التى تمر بها . ثم أن توظيف الخراج على كل اقليم اقتضى مسح هذا الاقليم وبيان غامرة وغامرة ، وأنواع غلاته وحاصلاته ، فبعث ذلك على الكتابة فى وصف اقاليم الدولة الاسلامية فى تفصيل . ولذا دار اكثر الكتب الجغرافية التى كتبت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة حول الوصف الطبغرافى لكل اقليم ، ومن هذه كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذية ، و«كتاب الخراج» لقدامة بن جعفر .

ثم نقل بعض المترجمين كتاب « الجغرافية » لبطليموس من اليونانية فى صدر الدولة العباسية ، فتأثرت الجغرافية الاسلامية به تاثيرا كبيرا . ونسج على منوال بطليموس محمد بن موسى الخوارزمى فى كتابه « صورة الارض » ثم طلب الخليفة المامون الى الخوارزمى أن يضع لكتابه هذا مصورا جغرافيا ، فقام بهذا العمل مع تسعة وستين عالما فيما يروى ، وهو أول مصور جغرافى عربى للدولة الاسلامية واقاليمها . وأثر كتاب الخوارزمى

بدوره فى جغرافيى العرب فى القرن الرابع الهجرى ، ولا سيما الاصطخرى فى كتابه « مسالك الممالك » ، وابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » وكذلك المقدسى فى كتابه « احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » ، وزين هؤلاء الجغرافيون كتبهم بالخرائط ، وذكروا العروض والاطوال ، والاقاليم السبعة ، وغير ذلك مما هو مقتبس من كتاب بطليموس .

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ خاتمة كبار الجغرافيين الاسلاميين بالشرق ، فهو مؤلف « معجم البلدان » الذى يعتبر اعظم قاموس جغرافى فى العصور الوسطى ، لانه كنز معلومات جغرافية واسعة ، وذلك فضلا عما فيه من معلومات تاريخية وأدبية فريدة .

واعتنى أهل الاندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافية والرحلات خاصة ، وظهر فيهم جغرافيون لا يقلون شأنا عن جغرافى المشرق .

علم الكلام

قام الى جانب المحدثين والفقهاء طائفة ثالثة من علماء الاسلام هى جماعة « المتكلمين » ، أصحاب علم الكلام ، وسرعان ما ظهر الخلاف واشتدت الخصومة العلمية بين فريق المحدثين والفقهاء من جهة وفريق المتكلمين من جهة أخرى . وقيل فى تسمية هذا العلم الجديد انه سمى بذلك ، لانه علم نظرى لا عملى ، وسمى

أيضا بعلم التوحيد ؛ لانه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى . ويسمى علم الكلام أيضا بعلم أصول الدين ؛ لانه يبحث فى أصل العقائد من اثبات وجود الله ، ومسألة القضاء والقدر وغيرهما .

والمعتزلة هم مؤسسو علم الكلام وهم الذين حملوا لواءه قرابة قرن ونصف قرن من الزمان (١٠٠ — ٢٤٠ هـ) . ويرجع أصل تسميتهم الى واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس استاذه حسن البصرى بمسجد البصرة ؛ لاختلافه معه فى الرأى ، ولزم هـذا الاسم اتباع واصل بن عطاء وفرقته الجديدة ؛ وأطلق عليهم فى صدر الدولة العباسية اسم المتكلمين . وتتلخص آراء المعتزلة فى القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر ، واعتباره فى منزلة بين المؤمن والكافر . وقالوا بالقدر ، اى ان الله لا يخلق افعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون افعالهم ، وانهم من اجل ذلك يثابون أو يعاقبون على عكس ما قال به خصومهم من المحدثين والفقهاء الذين تغالوا فى سلب الانسان قدرته وحريتـه فى التصرف . ولذا قال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ودعاهم الى وضع هذا المبدأ ما رأوا من جمود بعض الفقهاء على ما ورد من حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النصوص ، فاذا لم يجدوا نصـا لم يجرءوا على ابداء رأى فيما هم فيه .

وقال المعتزلة كذلك بالتوحيـد المحض ؛ فنفوا ان يكون لله تعالى صفات ازلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ؛

بل ان الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ؛ وليست هناك صفات زائدة على ذاته ؛ وربما دعاهم الى هذا القول ما شاع فى عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيم الله تعالى ، واثبات صفات له كصفات المخلوقين من بصر وسمع ومكان وغير ذلك .

ونزل الاضطهاد بالمعتزلة أول الامر فى الدولة الاموية ، غير أنهم أخذوا يعملون على نشر آرائهم بدعاة لهم ، فتقدمت حالهم حتى اعتنق مذهبهم الخليفتان الامويان يزيد بن الوليد ومروان بن محمد الذى لقب بالجعدى ؛ لاخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلى ، وذلك أواخر الدولة الاموية .

ثم انتشر الاعتزال من البصرة الى سائر العراق ؛ وصار له فى العصر العباسى الاول فرعان ؛ أحدهما بالبصرة نفسها بزعامة واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٨١ هـ) وأبو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ ، وثانيهما ببغداد بزعامة بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) ، وثمامة بن الاشرس ، وأحمد بن أبى داود ، واستمد هؤلاء جميعا من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التى ترجمت فى العصر العباسى الاول ، وانتفعوا بها فى الجدل والاحتجاج لارائهم ؛ وفى الانتصار للاسلام والرد على الملاحدة ، والزنادقة الذين رفعوا رءوسهم وقتذاك . وبلغ أولئك المتكلمون المعتزلة قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسين الثلاثة ، المأمون والمعتصم والواثق . ذلك أن المأمون أخذ بقولهم بخلق القرآن ، أى أنه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله ؛ وذلك ردا منهم على

المحدثين والفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله ، وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وبالغ المأمون فى الاخذ بنظرية المتكلمين واضطهد وعذب من لم يقل بخلق القرآن ، وتابعه فى ذلك المعتصم والواثق ، وعظمت الفتنة واشتدت المحنة . ثم وضع الخليفة المتوكل حدا لتلك المحنة ؛ اذ نهى الناس عن الخوض فى هذه المسألة ؛ وامرهم بالعود الى السنة والجماعة ، والاخذ بالتسليم والتقليد .

والخلاصة ان المعتزلة وعلماء الكلام اطلقوا لعقولهم عنان البحث فى حدود الدين ؛ وانهم قاوموا بذلك جمود خصومهم ؛ وانهم ردوا على الثنويه والدهرية والملاحدة ؛ وانهم فى سبيل اقناع خصومهم والزامهم الحجة اسسوا قواعد البحث والمناظرة ، ووضعوا أصول علم البيان والبلاغة العربية . غير أنه يؤخذ عليهم انهم صدموا العامة بآرائهم فى مسائل قصرت عقولهم عن فهمها ، فلم يجتذبوا أحدا منهم الى جانبهم ، ومات مذهب المعتزلة نهائيا عندما انفصل عنهم احد كبرائهم ، وهو أبو الحسن الاشعرى (المتوفى ببغداد ٣٣٣ هـ) ، اذ عاد الى السنة ، وحمل على المتكلمين حملة شعواء ؛ فلم تقم للاعتزال أو علم الكلام قائمة بعد ذلك .

الفلسفة

تأخر نضج الفلسفة عند المسلمين بالقياس الى العلوم الاخرى ؛ لان الفلسفة اليونانية التى استندوا اليها فى فلسفتهم لم تنتقل

كتبها الى اللغة العربيـة الا فى عصر المأمون على وجه العمـوم .
وحرص فلاسفة المسلمين عـلى التوفيق عموما بين الفلسـفة والدين ، لا الانتصار لاحدهما على الآخر ، واشهر فلاسفة الاسلام فى المشرق الكندى ، والفـارابى ، وابن سينا ، وجماعة اخـوان الصفا .

فالكندى(المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث)هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق ، العربى الاصل ، يتصل نسبه بملوك العرب الاقدمين من كنـدة ؛ ولذلك سمى « فيلسـوف العـرب ». ونشأ الكندى بالكوفة مسقط رأسه ؛ وانزله المـأمون والمعتصم والواثق عنـدهم منزلة عظيمة . وحاول الـكندى فى مذهبـه الفلسـفى أن يجمع بين آراء افلاطـون وأرسـطو ، واعتبـر الرياضيات الفيثاغورثية أساس العلم كله . ولم يكن الكندى فيلسوفا فحسب ؛ بل اشتغل بالنجوم والكيمياء والموسيقى النظرية والبصريات

أما أبو نصر الفارابى (المتوفى سـنة ٣٣٩ هـ بدمشـق) ، فهو تركى الاصل ؛ أصله من مدينة فاراب ، باقليم ما وراء النهـر ؛ وازدانت به حاشية سيف الدولة الحمدانى بحلب ، ومذهبـه الفلسفى هو المزج بين الافلاطونية والارسطوطاليسية والتصوف الاسلامى ، مما جعل العلماء يسمونه المعلم الثانى (والاول هو ارسطو) . وللفارابى فى السياسة « رسالة فى آراء أهل المدينة الفاضلة » ، و « كتاب السياسة المدنية » ، وكلاهما متـأثر

كتاب الجمهورية لافلاطون ، وكتاب السياسة لارسطو .
وتتلخص آراء الفارابى السياسية فى أن المدنية الفاضلة تشبه فى تكوينها جسم الانسان ، فالحاكم يشبه القلب يخدمه موظفون دونه ، وهؤلاء يخدمهم من دونهم ، والغرض من الاجتماع فى المدينة الفاضلة هو اسعاد أهلها . والفارابى مثل الكندى كتب فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى ؛ ويحكى عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة ، فاخرج عوده وعزف عليه ، فأضحك كل من فى المجلس ، ثم عزف ثانية فأبكاهم ، ثم عزف ثالثة فأنامهم ، ثم تركهم نياما وانصرف .

وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ بهمذان) هو الشيخ الرئيس ابو على الحسين امام الفلسفة والطب كذلك فى عصره ، ومولده بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠ هـ . واتفق أن مرض نوح بن منصور ملك الدولة السامانية ، فاستقدم الطبيب ابن سينا فبرىء على يده . وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة ، فاستوعب ابن سينا ما فيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم جعل يتنقل فى البلدان ويؤلف التآليف المتنوعة ، واشهرها كتاب «القانون» الذى حوى أهم ماعرف من علوم الطب وخصائص العقاقير والتشريح وغيرها عند العرب . ومن تآليفه الفلسفية شرح كتاب النفس وما بعد الطبيعة لارسطو ، وله كتاب الاشارات ، والقصيدة العينية المشهورة فى الروح . واشتهر ابن سينا عند

الاوربيين باسم افيسنا ، وذاعت مؤلفاته بينهم فى الطب والفلسفة بعد ترجمتها الى اللاتينية .

واما جماعة اخوان الصفا ، فهى جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية . وتكونت هذه الجماعة فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم صار لها فرع فى بغداد ، ومن أخبارها ان أعضاءها وضعوا اثنتين وخمسين رسالة فى الرياضيات والفلك والجغرافية والموسيقى والاخلاق والفلسفة. وتعتبر هذه الرسائل خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على مايقتضيه الاسلام . ولكتابات هذه الجماعة تأثير كبير فى أبى العلاء المعرى ، وأبى حيان التوحيدى ، وأبى حامد الغزالى ، وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس من الهجرة .

وتجرد ابو حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) لمحاربة الفلاسفة والرد عليهم بحججهم ومنطقهم ، بعد ان أحاط بكل علوم عصره ، فهاجمهم دون هوادة فى كتابيه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم كتاب « تهافت الفلاسفة » ، ولم تقم للفلسفة بعد ذلك قائمة فى المشرق برغم لمعان وميضها فى المغرب والاندلس ، بفضل ابن رشد وغيره من الفلاسفة الاندلسيين ؛ وابن رشد هو الذى سماه الاوربيون أفيروس ، وأطلقوا على مذهبه اسم الافيروسية ذات الاثر الكبير فى التطور الفكرى فى جامعة باريس وغرب أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى .

الفلك والرياضيات

ابتدأ اشتغال المسلمين بالفلك بعد ان اطلعوا على ترجمة كتاب « سند هند » الذى جلبه عالم هندى الى بلاط المنصور العباسى (حوالى ٧٧١ م) ، وأصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين فى الفلك ، بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزارى ؛ الذى يرجع اليه الفضل كذلك فى استخدام الاسطرلاب اليونانى الاصل فى رصد الكواكب والاجرام السماوية ، ثم وصلت التقاويم الفهلولية الى المسلمين مترجمة الى العربية فى عصر الدولة السامانية ، ولكن المسلمين تأثروا بالفلك اليونانى بعد ترجمة كتاب المجسطى لبطليموس فى القرن التاسع الميلادى .

وانشأ المسلمون المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية عملية ، وأولها مرصد جند يسابور أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ثم انشأ الخليفة المأمون دارا للرصد فى بغداد ؛ لدراسة حركات الاجرام السماوية . فحقق الفلكيون المسلمون مسائل كثيرة واردة فى المجسطى ، واستطاعوا تقدير الدرجة العرضية الارضية بمسافة طولها ٢/٣ ٥٦ ميل . وأمكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الارضية ونصف قطرها ، وأسهم الخوارزمى العالم الرياضى المشهور فى هذه العملية

ثم تعددت المراصد الفلكية فى الدولة العباسية ، فصحح أبو عبد الله البتانى ؛ وهو من صائبة حران ، فى مرصد مدينة الرقة ، حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب ، وحدد طول

السنة المدارية والفصول ، ومدارالشمس الحقيقى والمتوسط .

ويعد ابو الريحان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) ، الذىعاش فى مدينة غزنة بافغانستان ، أعمق المفكرين الاسلاميين فى ميدان العلوم الفلكية والطبيعية ، فألف لمولاه السلطان مسعود بن محمود الغزنوى كتابا فى الفلك سماه « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » . وألف البيرونى كذلك كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وهودراسة فى تقاويم الشعوب القديمة ، وبحث فى غير هذا الكتاب من مؤلفاته نظرية دوران الارض حول محورها ، ووصل الى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض . وطاف البيرونى فى بلاد الهند ، ودرس أحوالها وعادات أهلها وعقائدهم ، ووضع فى ذلك كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من مقوله » ، وهو الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى أى لغة من اللغات غير العربية .

أما عمر الخيام (١٠٣٨ — ١١٢٤ م) الذى اشتهر بانه شاعر عظيم ، فهو الى جانب نبوغه فى الشعر رياضى وفلكى من الطراز الاول ، وعهد اليه السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى اصلاح التقويم الفارسى القديم ، فى مرصده الذى انشاه بمدينة الرى سنة ٤٦٧ هـ . وأسفرت بحوث الخيام وأعوانه عن اخراج تقويم سماه « التاريخ الجلالى » نسبه الى السلطان جلال الدين ، وهو يفوق فى دقته التقويم الجريجورى .

واما الارقام العددية والحساب ، فكان وصولهما من الهند

زمن الخليفة العباسى المنصور ، مع كتاب السند هند ، وبذا دخل علم الحساب الهندى بنظامه وأرقامه المعروفة فى العربية بالارقام الهندية ، وكذلك نظام الصفر . غير أن المسلمين ظلوا زمنا يعبرون عن الارقام بالحروف ، ثم اهتدوا الى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية ؛ فأحلوا الارقام الهندية نهائيا لسهولتها محل الحروف .

وأعظم علماء المسلمين فى تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠ — ٨٥٠ م) ، وهو مؤلف اقدم كتاب عربى فى الحساب ، وكذلك أقدم كتاب فى علم الجبر ، وهو معروف « بكتاب الجبر والمقابلة » الذى حمل معه اسمه العربى وهو « الجبر » الى الجامعات الاوربية ، بعد ترجمته الى اللاتينية . وتأثر الخيام بالخوارزمى فى علم الجبر ، وزاد عليه حلولا لكثير من المعادلات الهندسية والجبرية من الدرجة الثانية ، وبواسطة مؤلفات الخوارزمى انتقلت الارقام العربية الى أوربا .

العلوم الطبيعية

الكيمياء :

ابتكر العرب فى الكيمياء نظام التجربة ، بيد انهم لم يصلوا فى الكيمياء الى نظريات ونتائج حاسمة كالتى وصلوا اليها فى الرياضيات . واسس علم الكيمياء العربى جابر بن حيان بمدينة الكوفة حوالى سنة ٧٧٦ م واتضح من الكتب التى الفها بنفسه انه ادرك قيمة التجربة فى الكيمياء وانه

وصف كلا من التكليس والتحويل وصفا علميا ، وانه ادخل تحسينات جديدة على الطرائق القديمة للتبخير والتصعيد والاذابة والبلورة ، وانه عرف تركيب حمض الكبريتيك وحمض النيتريك ، وكيف يمزجها ليخرج منهما ما يعرف بالماء الملكي الذى يمكن أن يذاب فيه الذهب والفضة . وبالاختصار عدل جابر بن حيان نظرية ارسطو فى تركيب المعادن، وظلت طريقته قائمة مع شيء من التغيير حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة فى غرب أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى . وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيمائيين المصريين واليونانيين فى افتراض أن المعادن الخسيسة يمكن تحويلها الى ذهب أو فضة ؛ ولم يزد الكيمائيون المسلمون بعد جابر بن حيان على ذلك وغيره على الكيمياء العربية الا اليسير ، وظلوا يواصلون البحث عما كانوا يرجون تحقيقه وهو حجر الفلاسفة واكسير الحياة من مختلف المعادن والعقاقير .

الفنون والعمارة

لم تكن للعرب فى جاهليتهم فنون بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، ماعدا الشعر والخطابة فى اللغة العربية الفصحى ، اذ تدل اوصاف قصورهم فى اليمن ، وأوصاف مبانيهم فى الحيرة على أنها جميعا شيدت على الفن الفارسى أو الفن البيزنطى . ثم شهد العرب خلال فتوحهم الكبرى من آثار الفرس والروم ما ادهشهم ، ومن هذه ايوان كسرى بالمدائن ، وكنائس الشام

ومصر : فحفزهم كل ذلك الى ان يشيدوا فى حواضر دولتهم افخم المبانى على نحو ما يلائم مزاجهم العربى ويوافق دينهم الاسلامى ، فانشأ الوليد بن عبد الملك المسجد الاموى بدمشق ، واختط سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة بفلسطين ، وبنى جامعها المشهور . وسبق على هذا وذلك تشييد عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس ، ونشأ فى كل اقليم اسلامى كبير مسجد جامع على نموذج المسجد النبوى بالمدينة وذلك من حيث التصميم والتكوين لا من حيث الزخرفة واحكام البناء . والملحوظ فى عمارة الامويين عموما انها تأثرت بالفن البيزنطى ، بل تذكر المصادر التاريخية صراحة ان الخلفاء الامويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيزنطيين فى انشاء المساجد والقصور ، ومن هذه القصور القبة الخضراء التى شيدها معاوية بدمشق ، وقصور المشتى وقصير عمرة والرصافة التى بناها خلفاء معاوية فى شرق الاردن وبادية الشام بالقرب من مدينة الرقة ، وهى القصور التى اكتشفت مواضعها وآثارها من عهد قريب .

ولم يكن العباسيون اقل اهتماما من الامويين بالعمارة ، فبنى المنصور بغداد وابتنى فيها هو ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسى الاول عددا من المساجد والقصور ، وجميعها زال ولم يبق منه شيء الا وصف المؤرخين . أما سامرا التى اختطها المعتصم ، ونزلها بجنده التركى ، فلا يزال مسجدها قائما

بمئذنته الشهيرة للدلالة على مدى تأثير الفن العراقى القديم فى مبانى العباسيين ؛ وذلك فضلا عن الفنون الساسانية والهندية والصينية .

التصوير والنحت :

والمعروف ان علماء المسلمين الأولين اعتبروا تصوير الانسان والحيوان مكروها ، دون ان يفتوا بتحريمه . والظاهر ان خلفاء بنى امية وبنى العباس ترخصوا فى ذلك ، اذ توجد بجدران قصر المشتى صور آدمية متقنة ؛ وكذلك بجدران القصر الذى بناه المعتصم فى سامرا حسبما ورد فى أوصاف المؤرخين . وبنى الخليفة الامين قوارب لنزهته فى دجلة على هيئة الاسد والنسر والدلفين ، كما اشتمل قصر المقتدر بالله على تماثيل فرسان متحركة بخيلها تتقدم وتتاخر كما فى الحرب ، بل وصل الينا بعض الكتب العربية موضحة بالصور ، ومنها كتاب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى .

الزخرفة والخط العربى :

استعاض جمهور المسلمين عن النحت والتصوير بالزخرفة التى لم يكن عليهم فيها جناح ، احتراما لتزمت الفقهاء فى هذا الصدد ، فزخرفوا المساجد والمبانى بأشكال هندسية أو نباتية مؤلفة على نحو يجعلها جميلة فى عين الناظر اليها ، كما وجدوا عوضا ثانيا فى الخط العربى بعد أن صار فنا جميلا على يد خطاطين مشهورين ، ومنهم ابن مقلة وابن هلال وابن البواب وياقوت

المستعصمى . وبفضل العناية بالخط العربى لاغراض الزخرفة اصبح نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنا قائما بذاته ؛ واستمر ذلك الى أوائل القرن الحالى .

الفنون الصناعية :

وبرع المسلمون فى النسج وصناعة الخزف والقاشانى والزجاج وغير ذلك من صناعات البلاد التى تم لهم فتحها . وفى متاحف العالم الكبيرة ؛ والمتحف العربى بالقاهرة ، ومتحف دمشق ؛ مجموعات من كل صنف رائعة ؛ وهى تدل على درجات متفاوتة من تأثير الفنون الصناعية البيزنطية والفارسية والقبطية فى فنون المسلمين ، فى عصر ازدهار الدولة الاسلامية .

الموسيقى :

عرف العرب فى جاهليتهم نوعا من الغناءوهو الحداء يستعملونه فى أسفارهم فى البوادى والقفار ، استحثاثا للابل وطردا للوحشة ؛ كما عرفوا الانشاد لالقاء الشعر خاصة . وورد فى كتب السيرة انهم عرفوا كذلك النقر على الدف ؛ وهو لون بدائى من الموسيقى . فلما جاءت الأسرى من الفرس والبيزنطيين والسريان فى صدر الاسلام الى المدينة نقلوا معهم غناءهم وموسيقاهم ؛ فلقفها منهم بعض الرجال والنساء من العرب ؛ وانتقلت الألحان الفارسية الى الغناء العربى . وظهر فى العصر الاموى نوابغ فى الغناء على هذا النحوبين رجال وقيان ، ومنهم المغنى معبد ، والمغنية ذات الخال وكثير غيرهم .

وذاعت الموسيقى العربية حتى بلغت الغاية فى العصر العباسى الاول ؛ على يد إبراهيم الموصلى وابنـه اسحق ، وذلك بتشجيع الخلفاء لهذا الفن الجميل ، رغم معارضة الفقهاء . وتعددت آلات الموسيقى وتنوعت فى البلاد الاسلامية ، ومنها الدف والطنبور والعود والرباب والصنج والناى والقيثار والارغول . وبرع فى الموسيقى من المسلمين الكندى والفارابى ، واكتملت بهما الموسيقى العربية من الناحيتين العملية والنظرية . غير أنه مما يؤسف له أن هذه الموسيقى العربية ذهبت أسرارها ، ولم يبق منها الا رموز غامضة فى كتاب الاغانى ونحوه ، وذلك لان الموسيقيين المسلمين لم يدونوا ألحانهم « بالنوتة » ، كما هى الحال فى الموسيقى الحديثة .

حركة الترجمة فى الدولة الاسلامية

لم تقم الترجمة فى تاريخ الفكر الانسانى كله بمثل الدور الذى قامت فى الدولة الاسلامية ، فى مرحلتين متباعدتين من الزمن ؛ الاولى مدة العصر الاموى والعصر العباسى الاول ؛ أى القرنين الثامن والتاسع . والثانية مدة القرنين الثانى عشر والثالث الميلادى .

وفى المدة الاولى اتصل المسلمون بالسريان ، وشهدوا مدارسهم فى انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها زمن الامويين . فلما كان زمن العباسيين الاوائل ازداد اقبال المسلمين على دراسة العلوم المتركزة بهذه المدارس ، فترجمت للخليفة المنصور كتب فى الطب

والنجوم عن السريانية . ثم شجع البرامكة نقل المؤلفات الفارسية والسريانية الى العربية ؛ وجاء المأمون فسلك مسلكا جديدا بانشاء « بيت الحكمة » فى بغداد للدراسة والبحث على مثال مدارس السريان . ثم أنه احب أن تنقل كتب الفلسفة اليونانية راسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية او غيرها ، فارسل الى امبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك يسأله أن ينفذ اليه ما يختار من الكتب القديمة ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . وأمر المأمون بنقل هذه الكتب الى العربية فى أسرع وقت وجعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة .

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة ، وجماعة من أهل الوجاهة والثراء من المسلمين ، فتقاطر المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس الى بغداد ، ومنهم النساطرة والعاقبة والصائبة والمجوس والبيزنطيين والبراهمة ؛ وترجموا من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية الى اللغة العربية ؛ وأقبل الناس على الاطلاع على هذه الكتب والبحث فيها ايما اقبال .

وترتب على حركة الترجمة وذيوع الكتب المنقولة الى اللغة العربية أن أتيحت الفرصة للمسلمين تصحيح أغلاط القدماء فى كثير من المواضع ، كما أضافوا من عندهم اضافات وابتكارات قيمة ، ولا سيما فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وانتقل هذا التراث العربى الى الاندلس ، فقام كثير من اليهود الاندلسيين

بترجمة كتب المسلمين فى الفلسفة وغيرها الى العبرانية واللاتينية ، ولاسيما زمن الفونس السادس ملك قشتالة (باسبانيا) بعد استيلاء هذا الملك على مدينة طليطلة من بعض ملوك الطوائف المسلمين سنة ١٠٨٥م . وكان كبير أساقفه طليطلة رجلا واسع الفكر ، اسمه ريموند ، وأحب أن ينتفع المسيحيون من المسلمين ، فأنشأ فى طليطلة معهدا للترجمة العربية اللاتينية ؛ فترجمت كتب ابن رشد وفلاسفة المشرق .

وفى سنة ١٢٢٤ م أسس الامبراطور فردريك الثانى المعروف بشدة ميله الى الثقافة الاسلامية جامعة نابلى ؛ لنشر الكتب العربية الاسلامية فى العالم الغربى المسيحى . وانتشرت هذه الكتب فى ترجمتها اللاتينية بين أمهات الجامعات الفرنسية والايطالية والانجليزية ، واحدثت أثرا قويا فى تفتيق الاذهان وتحريرها من قيود رجال الكنيسة وخاصة فى ايطاليا ، وبذلك تمهد الطريق الى النهضة الاوربية الكبرى ، وحركة الاصلاح الدينى ؛ وبهما تبتدىء الحضارة العالمية الحديثة .

الفصل الثالث

الحركات الاستقلالية في الدولة الاسلامية

الفرق الاسلامية :

نشأت من مسألة الخلافة أهم الفرق الاسلامية ، ثم أثرت هذه الفرق تأثيرا كبيرا في سياسة الدولة ومصائرها . فالسنة والشيعة والخوارج اسماء اصطلاحية ظهرت في جوف الدولة الاسلامية نتيجة حوادث معينة وانقسامات في الرأى في زمن الخلفاء الاربعة .

السنة :

أما أهل السنة والاجماع فهم غالبية المسلمين ، وهم الذين رضوا بما تم في انتخاب الخلفاء الاربعة ، والتزموا أحكام القرآن ، وما سنه الرسول عليه السلام في حياته للدولة الاسلامية من القواعد الدينية والمدنية . ووضع أهل السنة والاجماع بذلك أسس الخلافة الاسلامية التي سار على مقتضياتها العامة خلفاء الامويين والعباسيين والاتراك العثمانيين ، برغم ما طرأ على الخلافة نفسها من نظام ولاية العهد وتوريث الحكم لابناء الخلفاء أو اخوتهم ، وما دخل عليها من مظاهر ورسوم غريبة على الاسلام .

الشيعة :

أما الشيعة فمنشؤها الرأى القائل بأحقية على بن أبى طالب

بمنصب الخلافة دون غيره من الصحابة ، اذ رأى بعضهم أنه أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان . ثم أخذ أتباع على بن أبى طالب وشيعته يضعون النظريات لتبرير آرائهم فى الخلافة وأحقية على وأبنائه من بعده بها ، حتى صارت الشيعة مذهبا دينيا مناهضا لمذهب السنة .

وتلمس الشيعة فى أحاديث الرسول وحياته ما يؤيد دعواهم ، فقالوا ان الخلافة أو امامة المسلمين أمر لا يمكن أن يترك للأمة لتبدى رأيها فيه ، وان الامامة ركن من أركان الدين حددها الرسول الكريم بنفسه ، وأن النبى أشار الى على بن أبى طالب باعتباره خليفة واماما من بعده . واستشهدوا بنصوص من الاحاديث والقرآن ينقلونها ويشرحونها ، فقالوا ان كلا من أبى بكر وعمر وعثمان مغتصب للخلافة ، وأن عليا هو الامام بعد محمد ، وأن عثمان كمية مجهولة . وغالى بعض الشيعة فى تبرير احقية على بالخلافة ، حتى أضفى عليه بعضهم صفات التقديس والالوهية .

واختلف الشيعة فى ترتيب الائمة بعد على بن أبى طالب ، ونشأت بينهم فرق عديدة ، لكل منها رايها الخاص . وكان أهم هذه الفرق الزيدية أتباع زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وفرقة الامامية الاثنا عشرية التى تقول باثنى عشر اماما بعد على بن أبى طالب ، والامامية السبعية المعروفة كذلك باسم الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهذه الطائفة من الشيعة هى التى يتزعمها أغا خان فى العصر الحاضر . وانضم الى هذه الفرق أحيانا بعض العناصر

المعادية للدولة الاسلامية ، متخذة من الدعوة لآل البيت ستارا تخفى وراءه أهدافها الحقيقية ، وتفكيك عرى الدولة .

وناضلت فرق الشيعة الامويين والعباسـيين ، ونجحت فى تأسيس دويلات لها رغم مالقيته من عسف واضطهاد . فعلت شوكة الزيدية فى طبرستان واليمن ، وظل أتباع الائمة الاسماعيلية يكافحون سرا حتى قوى نفوذهم على عهد عبيـد الله المهدى ، مؤسس الدولة الفاطمية بشمال أفريقيا ومصر . اذ جهر بالدعوة الى الشيعة ، ونجح فى تأسيس دولة شـيعية جعلت الخلافة الاسلامية خلافتين متناضلتين زمنا طويلا ، احداهما الخلافة العباسية ومقرها بغداد ، والاخرى الخلافة الفاطميـة ومقرها القـاهرة .

الخوارج :

فى أثناء النزاع بين على ومعاوية ظهرت طائفة الخوارج ، عقب وقعة صفين سنة ٦٥٧م ، اذ اختلف أنصار على بن أبى طالب فى قبول تحكيم كتاب الله ، وهو التحكيم الذى طالب به معاوية بن أبى سفيان حسما للنزاع وايقافا للقتال ، وذلك عنـدما أحس بقرب الهزيمة فى واقعـة صـفين . ولذا لم يوافق فريق من المحاربين من جند على بن أبى طالب على اجتماع أبى موسى الاشعرى ، ممثلا لعلى بن أبى طالب ، مع عمرو بن العاص ، ممثلا عن معاوية ابن أبى سفيان ، للتفاوض والتحكيم فى الخلاف . واشـتهرت

هذه الفئة التى رفضت التحكيم باسم الخوارج ، لخروجها على صفوف جيش على بن ابى طالب .

ورفض الخوارج التحكيم بتاتا ، ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم حر ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأنه لا يجوز لخليفة أن ينزل عن منصبه بعد انتخابه ، ولكن يصح عزله أو قتله اذا جار او أساء استخدام سلطته . واشتهر الخوارج بالتعصب لمبادئهم والتحمس الشديد لها ، حتى حاربهم على بن أبى طالب ، وقضى على حركتهم مؤقتا فى وقعه النهروان سنة ٦٥٩ م . لكن احدهم واسمه عبد الرحمن بن ملجم اغتال عليا بن أبى طالب ، انتقاما لما حدث فى هذه الوقعة . وتفرق الخوارج فى البلاد الاسلامية ، ولا سيما فى البحرين والاحساء بجنوب شبه جزيرة العرب ، وأخذوا يدعون الى مبادئهم السياسة ودأبوا على قض مضاجع الدولة الاسلامية ، فثاروا فى وجه الخلفاء الامويين ، غير معترفين بأحقيتهم فى الخلافة ، وهاجموا الخلفاء العباسيين كذلك .

وظل الخوارج مصدر المتاعب للخلافة ، اذ انضم اليهم كثير من أهل الولايات ، اعجابا بنظريتهم الجمهورية فى انتخاب الخليفة ، واتخذوا من مبادئهم ستارا لتحقيق مآربهم فى الخروج على الخلافة . وغدا للخوارج فرق عديدة فى البلاد الاسلامية اهمها الازارقة اتباع نافع بن الازرق ، والاباضية اتباع عبد الله بن أباض التميمى ، والصفرية أتباع زياد بن الاصفر . واتسع نفوذ الفرقتين الاخيرتين فى تونس ببلاد المغرب (شمال افريقيا) ،

وتمهدت بثوراتهم المتكررة الطريق أمام الدول المستقلة التى قامت بتلك البلاد .

المرجئة :

ثم ظهرت فرقة المرجئة ، وهى حزب سياسى وسط معتدل . عف أصحاب هذا الحزب أن يغمسوا أيديهم فى الفتن والآراء التى أثارها كل من الخوارج والشيعة . وترجع نواة هذه الفرقة الى طائفة من الصحابة الذين امتنعوا عن الدخول فى النزاع الذى قام بعد مقتل عثمان بن عفان حول الخلافة ، فلم يميلوا الى جانب دون آخر . واشتهروا بالمرجئة لانهم أرجأوا الحكم على أتباع الخوارج والشيعة وأهل الفتنة والقتل من المسلمين الى يوم القيامة ، حين يفصل الله فيما شجر بينهم من خلاف .

وبحثت فرقة المرجئة أمورا دينية تهدف الى تحديد معنى الايمان والكفر ، والمؤمن والكافر . وجاءت أبحاثهم مخالفة للاراء الدينية التى نادى بها الخوارج والشيعة لتبرير دعوتهم السياسية . فلم يوافقوا الخوارج فيما ذهبوا اليه من تكفير الخلفاء ، ولم يؤمنوا بما قاله الشيعة من أن امامة على بن أبى طالب ركن أساسى من أركان الدين . واتفق رأيهم الدينى مع مذهبهم السياسى ، وهو عدم الجزم بكفر انسان أو ايمانه ، لان الله هو الذى يزن عمله فى الميزان .

المعتزلة :

ونشأت فرقة أخرى تنادى بتحكيم العقل فيما نشب بين المسلمين من خلاف حول الخلافة . واشتهرت هذه الفرقة باسم المعتزلة ، وبنت نظريتها السياسية على الآراء الفلسفية التى شاعت فى صدر الاسلام حول حرية الانسان ، وهل هو مخير أو مجبر فى أعماله . اذ انتشر بين الناس اذ ذاك مذهبان ، أحدهما ينادى اتباعه بأن الانسان حر الارادة ، له قدرة على أعماله ، ويطلق عليهم اسم القدرية . والآخر يرى أتباعه أن الانسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة وأن الله كتب عليه أعمالا لابد أن تصدر عنه ، ويسمون بالجبرية .

ثم ذابت هاتان الفرقتان فى معترك التفكير السياسى ، وقامت على اثرهما فرقة المعتزلة ، التى ترتبط تعاليمها بما نادى به القدرية . ولذا قال المعتزلة أن للانسان قدرة تدفعه على أداء الافعال دون قيد من الله تعالى . لكن شاع عليهم اسم المعتزلة عند ما تعرض زعيمهم واصل بن عطاء لمناقشة المسائل السياسية التى تداولها الخوارج والمرجئة حول معرفة المصيب والمخطىء فى الفتنة التى تلت مقتل عثمان بن عفان . اذ اختلف واصل بن عطاء فى آرائه عن قول استاذه الحسن البصرى الفقيه المشهور ، واعتزل هو واتباعه ، وانتبذوا بطائفتهم مكانا خاصا بالمسجد حيث قامت هذه المجادلات ، واشتهروا باسم المعتزلة .

والتزم واصل بن عطاء رأيا وسطا بين الخوارج والمرجئة ، لا هو يابس ولا هو لين . اذ قالت الخوارج أن مرتكب الذنوب كافر ، على حين قالت المرجئة انه مؤمن . فذهب واصل واتباعه الى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . فمرتكب الكبيرة لا يعد مؤمنا لأن الايمان صفة من صفات الخير التى لا تتوافر له ، وهو ليس بكافر ايضا ، لانه متمسك بسائر الشعائر الاسلامية الاخرى مثل الشهادة والصلاة وغير ذلك من الامور التى لا يمكن انكارها .

وطبق المعتزلة نظريتهم على المشاكل التى ثارت حول الخلافة ، فأباحوا انتقاد الصحابة واعمالهم ، ومناقشة صحة انتخاب الخلفاء وتوليتهم السلطة . وعلا مركزهم على عهد الخليفة العباسى المأمون (١٩٨ هـ — ٨١٣ م) الذى اعتنق مذهبهم وآراءهم . فاستخدم المعتزلة للقضاء على الآراء الجامدة التى كادت تخنق كل حركة اجتماعية أو سياسية ، وتهدد بتقويض دعائم الدولة .

اثر الفرق الاسلامية فى الاحوال السياسية والاجتماعية :

بلغت الفرق الاسلامية أقصى نشاطها زمن العباسيين ، وقسمت الناس طوائف وأحزابا حسب مذاهبها . وزاد فى هذا الانقسام أن كل فرقة من الفرق الكبيرة السالفة انقسمت بدورها فرقا فرعية صغيرة عديدة . فانقسم المعتزلة الى نحو ثلاث عشرة فرقة ، والخوارج الى عشرين ، والشيعة الى

ما يقرب من الثلاثين والمرجئة الى نحو سبع فرق . واشتد الجدل والنزاع بين طوائف الفرق السالفة ، وأصبح المجتمع الاسلامى ميدانا لصنوف الآراء المختلفة .

وأثر هذا الخلاف بين هذه الفرق الاسلامية فى الشئون الداخلية ، اذ وجدت الحركات الانفصالية المختلفة ولا سيما فى أطراف الدولة الاسلامية البعيدة متنفسا لها ، ذلك أن تعاليم هذه الفرق انتشرت فى كثير من أقاليم الدولة بعيدا عن السلطة المركزية ، وكذلك فى البلاد التى اشتهرت بتعصبها لقوميتها القديمة ، مثل فارس . وتعد ثورات الخوارج مثالا مبتكرا من هذه الحركات الانفصالية التى تولدت عن مسألة الخلافة وذلك أيام الدولة الاموية . ثم ان الخوارج نشروا بين أتباعهم ان الخلفاء العباسيين لا يصلحون للخلافة ، وان احدا من أولئك الخلفاء لم يستوف الشروط التى يجب استيفاؤها لهذا المنصب ، ولذا يجب الخروج عليهم وعزلهم . ووضحت هذه الآراء السياسية الانفصالية منذ عهد أول الخلفاء العباسيين ،وهو أبو العباس المعروف باسم السفاح ، اذ قامت عدة ثورات اقليمية ، ولا سيما فى عمان ، وخراسان وبلاد المغرب الادنى (تونس) .

واذا نجح الخلفاء العباسيون فى اخماد فتن الخوارج ، فان مابذلوه فى هذا السبيل استنزف من قوتهم ، وهيأ للفرق الاسلامية الاخرى أن يزداد نشاطها والخلافة العباسية مشغولة بهذه الفتن . فاستطاع الشيعة نشر تعاليمهم فى كثير

من بلاد الدولة الاسلامية ، مثل فارس ، وارسلوا الدعاة لنشر مذهبهم فى البلاد الاخرى التى مهدتها ثورات الخوارج لدعوتهم . وضرب الشيعة اوضح الامثلة فى أثر الفرق الاسلامية فى الشئون السياسية بنجاحهم فى تأسيس دولة لهم بالمغرب وامتدت هذه الدولة فيما بعد الى مصر والشام (الدولة الفاطمية) .

وهكذا أدى نمو الفرق الاسلامية الى انكماش الخلافة العباسية فى بغداد . وتأثرت الحماسة الدينية للجهاد والفتوح الجديدة . فوقفت الفتوح الاسلامية ، وانصرف جهاد المسلمين الى اخماد الفتن السياسية والدينية الداخلية . ولم تسلم الدولة الاسلامية من آثار الجدل السياسى والدينى ، وانتهى بها الامر الى التفكك والانقسام الى ممالك ودول عديدة .

وأحدثت الفرق الاسلامية آثارا إجتماعية كبرى فى المجتمع الاسلامى ، لأن كلا من الجدل والاختلاف فى الاراء ساعد على حرية الفكر ، ومران الناس على تقبل الآراء والنظريات بصدر رحب . وأفاد المجتمع الاسلامى من هذه الحرية الفكرية ، فان اتساع رقعة الدولة وتكوينها من عناصر مختلفة فى الجنس والعقليات وبقايا الديانات السالفة تطلب حرية الجدل والمناظرة لتفهيم الدين الى الناس ، والدفاع عنه دفاعا سلميا منطقيا أمام هجمات العقائد الناشزة .

وأثر المعتزلة تأثيرا كبيرا فى المجتمع الاسلامى بالقياس الى غيرهم من الفرق ، اذ وجد اتباع هذه الفرقة أناسا دخلوا فى

الدين الاسلامى من اليهود والنصارى والمجوس دون أن يتخلصوا تماما من معتقداتهم القديمة ، ولا عمل لهم الا اثارة الشكوك حول بساطة الدين الاسلامى . وانبرى المعتزلة لمجادلة أولئك الذين لم يريدوا للاسلام خيرا ، ونشأت عن مجادلاتهم أسس علوم الكلام والبلاغة والجدل والمناظرة . وفتح المعتزلة كذلك النافذة الاولى التى دخل منها فلاسفة المسلمين الى علوم اليونان . اذ دفعهم الجدل الى استقراء الكتب اليونانية المترجمة الى العربية مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وعملوا على فهم مافيها من منطق وفلسفة للرد على خصومهم الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانية .

ومهما يكن من شأن الفرق الاسلامية وأثرها الاجتماعى ، فان جدلها أثار بلبلة فى الافكار ، وأدى الى قيام مذاهب أخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية ، وهذه المذاهب وسعت هوة الخلاف بين أقاليم الدولة الاسلامية . ولم تستطع السلطة المركزية ببغداد القضاء على عوامل التفكك التى خلقتها هذه الفرق ، وانتهى الامر الى قلة نفوذها وسطوتها فى مختلف الولايات .

ب عوامل التفكك السياسى

الشعوبية :

ساعدت عوامل أخرى على تفكك الدولة الاسلامية ، ومن هذه ماهو معروف باسم الشعوبية . وهى كلمة تطلق على الروح

الانفصالية التى سادت الشعوب العريقة فى المدنية قبل الاسلام ، ومحاولتها الخروج على العرب المسلمين ، أصحاب السلطان .
والفرس أول الدعاة الى هذه الحركة الشعوبية ، اذ حقدوا على العرب سطوتهم وسيطرتهم على بلادهم ذات الحضارة القديمة ، ووجدوا متنفسا لتحقيق مآربهم السياسية فى الفتنة التى ظهرت عقب مقتل عثمان بن عفان ، بقيام الشيعة والخوارج . فاحتضن الفرس دعوة الشيعة المنادية بحق بيت الرسول فى الخلافة ، وخرجت من بلادهم الثورة التى أطاحت بالدولة الاموية ، وكفلت للعباسيين عرش الخلافة الاسلامية .

وأدرك الخلفاء العباسيون الأولون أهداف أهل فارس فلم يسمحوا لهم بتحقيق مطامعهم الانفصالية ، مع أنهم الذين ساعدوا الدعوة العباسية الاولى على الانتشار فى بعض جهات من بلادهم ، لا سيما فى خراسان ، وهى الجزء الشمالى الشرقى من فارس . بيد أن الفرس ظلوا ينافسون العرب ، وانتهزوا فرصة الشقاق بين بعض الخلفاء العباسيين لنشر دعوتهم . واتضح نشاط الفرس وعلو مركزهم على عهد الخليفة المأمون العباسى . اذ استعان بهم علنا فى التخلص من اخيه الامين وأنصاره من العرب (١٩٨هـ / ٨١٣م) وجعل منهم قادة للجيش واشتهر من أولئك القادة الفرس طاهر بن الحسين الذى عينه المأمون واليا على خراسان . ثم لم يلبث هذا القائد أن أغفل الخلافة العباسية وأسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، وأسس هو واخلافه الدولة الطاهرية

(٢٠٢ — ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ — ٨٧٢ م) التى غدت أول دولة فارسية مستقلة عن الخلافة العباسية فى آسيا .

ضعف الخلافة فى بغداد :

ثم أدى التنافس بين الفرس والعرب الى اتجاه الخليفة المعتصم العباسى الى التخلص من هذين الحزبين معـــا ، والاعتماد على الاتراك فى ادارة الدولة . فاشترى الاتراك من بلاد ماوراء النهر ، ولقنهم التعاليم الاسلامية واللغة العربية ، واتخذ منهم حرسه الخاص ، بعد أن أقصى الفرس والعرب عن خدمته وجيشـــه ، وقلد أرباب الكفايات منهم مختلف المناصب فى الدولة . وظن الخليفة المعتصم أن الاتراك أقل خطرا على الخلافة من الفرس والعرب .

غير أن نفوذ الاتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفسه ، فلم يحترموا الخلافة وضاقت بهم بغداد وأهلها ، فانتقل المعتصم بهم الى سامرا ، وجعل منها عاصمة الخلافة . واستخف الاتراك بالخلفاء بعد وفاة المعتصم ، فعزلوا الخليفـــة الذى لا يرضون عنه ، وقتلوا الخليفـــة الذى يعترض أعمالهم . وغدا الاتراك أصحاب الكلمة العليا فى سامرا وبغداد ، ومنحهم الخلفاء ادارة معظم الولايات الاسلامية ، وتركوا لهم الحرية فى تصريف شئونها . وأدى ذلك الى تفكك الدولة الاسلامية ، اذ فضل بعض الســـادة الاتراك البقاء فى بغداد ، وأوفدوا نوابا عنهم فى ادارة هذه الولايات

وصاروا بذلك ولاة متغيبين عن ولاياتهم ، وهو أسوأ أنواع الولاة . وتطلع أولئك النواب واشباههم من الولاة الى الاستقلال بهذه الولايات لضعف الرقابة عليهم ، ولم يلبثوا أن جعلوا مناصبهم وراثية فى أبنائهم . فنشأت دويلات عديدة لايربطها بالخلافة العباسية سوى تبعية أسمية ، وأخرى مستقلة عنها تمام الاستقلال أو تكاد . ومن أمثلة هذه الدويلات دولة الطولونيين ثم الاخشيديين بعدهم فى مصر .

مشكلة ولاية العهد :

ثم أن الخلفاء العباسيين دأبوا على نظام تولية العهد لاكثر من واحد ، سواء من أبنائهم أو من أقاربهم من آل بيت الرسول . وأدى ذلك الى كثير من النزاع الداخلى والشقاق بين الاخوة ، على نحو ماحدث بعد موت الخليفة الرشيد سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م ، ذلك أن الرشيد عهد بالخلافة من بعده الى أولاده : الامين ثم المأمون ثم المؤتمن — وثالثهم هذا هو الذى صار المعتصم فيما بعد ، كما قسم البلاد الاسلامية بينهم كأنما هى ارث من أب الى أبنائه . فلما تولى الامين عمد الى اقصاء أخيه المأمون عن ولاية العهد ، ونشب بينهما صراع قويت فيه شوكة الفرس أصحاب المأمون ، وضعفت سلطة العرب أصحاب الامين .

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين أفراد البيت العباسى ، ولا سيما بين ولى العهد واخوته واقاربه ، فلم يكد ولى العهد يصل الى عرش الخلافة حتى عمل على التنكيل بهؤلاء واولئك .

على أن ذلك لم يقطع دابر العداوة والبغضاء ، فضلا عن المنافسة ، بل أصبحت هذه المنافسة خطرا على كيان الدولة عندما استبد الاتراك بالسلطة من دون الخلفاء . اذ دخل الاتراك فى الدسائس والمؤامرات بين أبناء الخلفاء . وذاعت الفوضى عندما ولى الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢هـ/٨٤٧م) أولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، اذ قدم المتوكل ابنه الثانى وهو المعتز على المنتصر فى ولاية العهد . وافترص الجند الترك هذه الفرصة ، وشجعوا المنتصر على قتل أبيه فقتله . وتولى الخلافة بعده .

واصبح بذلك مركز الخليفة ضعيفا ، ولا هيبة له فى العاصمة نفسها . وغدا الخليفة نفسه تحت رحمة قادة الجند من الترك الذين اصبحوا وزراء الدولة ، وليس له فى الامر شىء سوى اطاعة أولئك الوزراء الذين استبدوا بالحكم والادارة معا ، وجعلوا مصالحهم الشخصية فوق وحدة الدولة .

صعوبة المواصلات :

ومما زاد فى ضعف الخلافة ضخامة الدولة الاسلامية وتعدد أجزائها وصعوبة اتصال هذه الاجزاء بالحكومة المركزية . فاستطاع ولاة العباسيين ، ولا سيما ولاة البلاد النائية عن بغداد ، أن يستقلوا بشئونهم دون خشية بطش سريع أو عقاب عاجل . ومن الواضح أن صعوبة المواصلات وطول المسافات

يساعد على تحقيق مطامعهم ، فلم تصل جيوش الخلافة فى كثير من الاحيان الا بعد فوات الاوان .

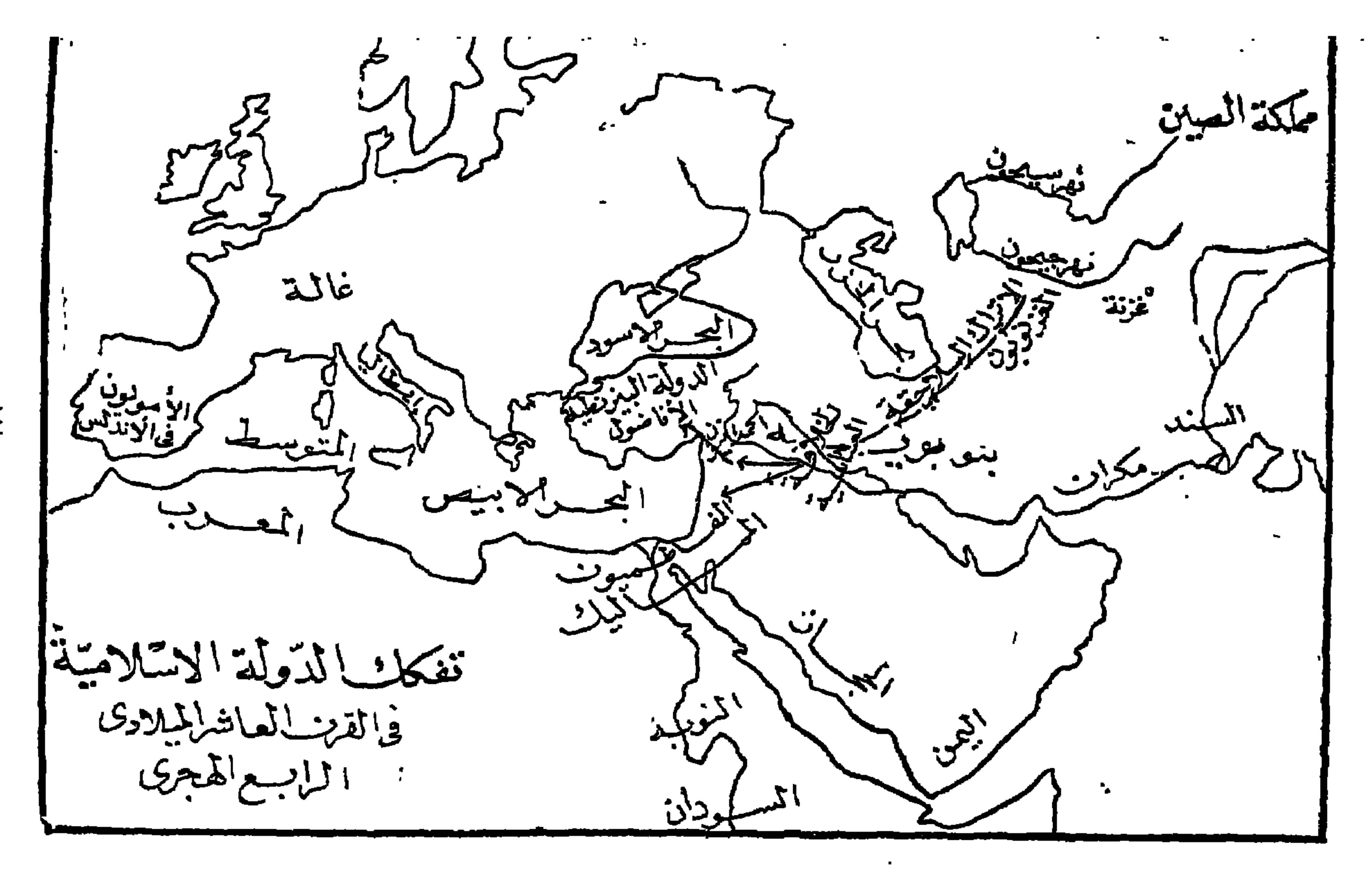
ثم أن الخلفاء العباسيين منحوا قادة الجيوش المتوجهة للقضاء على الفتن فى الولايات البعيدة سلطات واسعة ، واستغل بعض أولئك القادة هذه السلطات ، فعمل الواحد منهم على الاستقلال بالولاية الموفد اليها . ولذا غدا سلطان العباسيين ضعيفا فى معظم أطراف الدولة الاسلامية ، ولا سيما فى شمال أفريقيا وأرض الاندلس . وشهدت هذه الاطراف أول انفصال وتفكك مادى فى كيان الدولة الاسلامية منذ السنوات الاولى لقيام الخلافة العباسية ، وتعثرت جهود الخلفاء العباسيين فى ازالة ذلك بسبب صعوبة المواصلات ، فلم يستطيعوا القضاء على بذور الانقسام السياسى الاول الذى نبت فى أرض اسبانيا . ثم أضحى تفكك الدولة الاسلامية واضحا ، وسرت عدوى الانفصال والاستقلال من أرض اسبانيا الى غيرها من ولايات الخلافة العباسية .

قيام الدول المستقلة

الاندلس

الامارة الأموية فى اسبانيا :

رأى العباسيون منذ أول اعلان خلافتهم ، سنة ١٣١ هـ/ ٧٥٠م أن استمرارهم فى الخلافة يتطلب القضاء على أبناء البيت الاموى . غير أن أحد أفراد بنى أمية ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية — وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين — استطاع الهرب من المذبحة التى أقامها الخليفة أبو العباس لتنفيذ هذه السياسة . ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين ، ثم انتقل منها سريعا الى شمال أفريقيا ، حيث لجأ الى قبائل أخواله من أهل تلك البلاد ، وأخذ يتنقل من مدينة الى أخرى — من برقة الى مراكش ، حتى دخل مدينة سبتة سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م ، فاستقر بها قليلا . وفى سبتة ، على الطرف الغربى للبحر الابيض المتوسط ، أخذ عبد الرحمن الاموى يفكر فى احياء الدولة الاموية . وتطلع الى الاندلس الاسلامية لتحقيق ذلك ، وهى البلاد التى فتحتها جيوش اسلامية زمن الامويين منذ سنة ٧١١م . واستقرت بها بعد الفتح الاسلامى طوائف من أهل الشام وجنده الموالين للبيت الاموى . لذا أرسل عبد الرحمن أحد أتباعه ليجمع كلمة أنصار بنى أمية من أولئك الجند . ورحب الزعماء الاندلسيون


تفكك الدولة الإسلامية
فى القرن العاشر الميلادى
الرابع الهجرى
مملكة الصين
نهر سيحون
نهر جيحون
غزنة
غالة
البحر الأسود
الدولة البيزنطية
الأناضول
الأمويون فى الأندلس
المتوسط
البحر الابيض
المغرب
السند
مكران
بنو بويه
الحجاز
اليمن
النوبة
السودان

بدعوة عبد الرحمن الأموى ، ورأوا فيــه شخصاً جديراً بتولى زعامتهم بدلا من الحاكم العباسى البغيض اليهم .

وعبر عبد الرحمن البحر الى شاطىء الاندلس ، ونزل بمكان اسمه المنكب ، وهناك انضم اليه انصار بنى أمية ، فاســتولى على مدن البلاد الجنوبية دون مقاومة . ثم استولى عبدالرحمن على قرطبــة عاصــمة ولاية الاندلس ســنة ١٤١ هـ/٧٥٦م ، بعد فرار الحاكم العباسى منها . وأعلن نفسه أميرا ، كما أصدر عفوا عاما غداة دخوله قرطبة ليمكن لنفسه فى البــلاد . وتم بذلك ــ بعــد عشر سنوات فقط من اعتلاء العباسيين عرش الخلافة فى بغداد ــ انفصال ولاية الاندلس رســميا عن الخلافة العباســية .

تأمين الامارة المستقلة :

ظل عبد الرحمن الاموى يعمل دائبا مدة حكمــه التى بلغت ثلاثة وثلاثين عاما على تأمين مركزه فى أجزاء دولته . فأخمــد الفتن التى نشبت بين بعض القبائل العربية فى الاندلس ، وأعد البلاد لدفع محاولات العباسيين المنتظرة لاخراجه من الاندلس . والواقع أن الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٤م) عزم على اخراج عبد الرحمن الاموى والقضاء على دولته . ولذا عين العلاء ابن مغيث واليا على الاندلس ، وارسله على رأس جيش ســنة ١٤٦هـ/٧٦١م الى أسبانيا . ولــكن الامير عبد الرحمن الاموى

يهزم هذا القائد العباسي وقتله ، ووضع رأسه في ملح وكافور ، ولفها في علم العباسيين الاسود اللون ، وارفق معها كتاب التعيين العباسي . ثم أمر أحد التجار بالقاء هذه الرأس في طريق الخليفة المنصور الى الحج بمكة .

ولم يحـاول المنصور العبـاسي أن يعين أحدا آخر على الاندلس ، او يرسل جيشا لحرب الامير عبد الرحمن الامـوى . بل فضل أن يستميله اليه ، واعترف له بلقب « صقر قريش » . واكتفت الخلافة العباسية ببقاء عبد الرحمن الاموى بعيدا عنها في امارته ، اذ قال الخليفة المنصور « الحمد لله الذى جعل بيننا وبين ذلك العدو بحرا »

صد هجمات الفرنجة :

ولم تقتصر مشـاكل عبد الرحمـن الاموى على ما حاط امارته من خطـر من ناحيـة الخـلافة العباسـية ، بل هـددته دولة الفرنجـة (فرنسـا الحاليـة) ، فضـلا عن بقـايا المقـاومة المسيحية الاسبانية التى انكمشت الى حين في الشمال الغـربي من شبه جزيرة أيبيريا . ولذا عمد الخليفة المنصـور العباسي الى عقد حلف مع بين (Pepin) ملك الفرنجة للهجوم على بلاد الاندلس . وارسل اليه سفراء وهدايا عديدة ، ولكن الحلف لم يدخل في دور التنفيذ العملي . على ان الامير عبد الرحمـن لم يغفل خطورة مملكة الفرنجة على أية حال ، فاستعد لأى هجوم يأتي من جانبها . وتحققت مخاوفه عنـدما بعث شرلمـان ، ملك

الفرنجة ، بجيش الى اسبانيا سنة ٧٧٧ م لمساعدة زعماء العرب المناوئين لسلطان الامويين . لكن الجيش الفرنجي اضطر الى التقهقر بعد ان عجز عن فتح مدينة سرقسطة سنة ٧٧٨ م وقفل عائدا الى بلاده . وعند عبور جيش الفرنجة مضايق جبال البرانس هجمت على مؤخرته قبائل البسقاوية المسيحية سكان تلك الجبال وانزلت به خسائر فادحة . وسقط قائد الفرنجة المدعو «رولاند» قتيلا .

وخلد الفرنجة فيما بعد ذكرى هذه الهزيمة التى أنزلها المسيحيون بجيوش مسيحية فى اغنية رولاند التى تعد من طلائع الأدب الفرنسي فى العصور الوسطى ، وشاعت هذه القصيدة أيام الحروب الصليبية بين اوروبا والشرق ، وحلا لمؤلفها ان يعزو هزيمة رولاند ومقتله الى المسلمين . وهى فرية عمد مروجوها لاستثارة حماسة الاوروبيين ضد المسلمين .

على أن ارتداد الجيش الفرنجى عن أسبانيا أثبت لملوك أوروبا منعة الامارة الاسبانية المستقلة . وقضى على اية محاولة للهجوم عليها مرة اخرى . اما العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنجة فلم تنتج شيئا سوى تبادل الهدايا . اذ عمد الخليفة العباسى هارون الرشيد الى تجديد الصلات التى بدأها جده أبو جعفر المنصور مع دولة الفرنجة ، فكتب الى شارلمان بذلك . وظلت امارة الاندلس مهابة مدة عبد الرحمن الاموى ، وبدت دولته عند وفاته سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وطيدة الاركان ، وعاشت بعده قرنين وثلاثة

ازباع قرن من الزمان .

على ان اسبانيا الاسلامية دخلت فى القرن الحادى عشر الميلادى دورا طويلا من التفكك الداخلى بين اجزائها ،على يد ملوك مسلمين اطلق عليهم التاريخ اسم ملوك الطوائف . ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم الاسبانيون المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائيا من اسبانيا عندما انهزمت جيوش عبيد الله ملك غرناطة سنة ١٤٩٢م .

الحضارة الاسلامية الاندلسية

استطاع عبد الرحمن الاموى ان يكفل للاندلس حكومة اسلامية مستنيرةمستقرة،رائدها التسامح الدينى. فنعمت امارة الاندلس بادارة صالحة ، وتمتعت بحضارة زاهرة نافست حضارة العباسيين فى بغداد ،وفاقت حضارات الدول الاوروبية المعاصرة لها

وبدت مظاهر العصر الجديد عندما كفل الامويون لسكان الاندلس ، على اختلاف طبقاتهم ، وسائل الرخاء والطمأنينة ، وهيأوا لهم الجو الصالح للعمل والانتاج .

واظهر الامويون مقدرة عالية فى الادارة ، اذ اشتملت الاندلس على القبائل العربية التى جاءت مع الفتح الاسلامى ، كما اشتملت على جماعات من المسيحيين واليهود من سكان البلاد قبل الفتح الاسلامى ، وهؤلاء وأولئك فضلا عن جماعات من البربر المسلمين سكان شمال افريقيا ، وهذه جاءت الى اسبانيا مع الجيوش

الاسلامية . غير ان العرب والبربر مالبثوا ان تنازعوا فيما بينهم ، وأتاحوا للسكان الاصليين من المسيحيين فرصة النيل من المسلمين وسيادتهم على البلاد . ومع هذا ظلت الامارة الاموية بالاندلس مهيبة الجانب ، وقضى الامويون فى حزم على القلاقل الداخلية ، وكسبوا بتسامحهم ولاء السكان المسيحيين . وامعنت طائفة كبرى من اولئك السكان المسيحيين فى تقليد المسلمين فى حياتهم ونظمهم ، وصاروا طبقة اجتماعية عرفت باسم المستعربين ، واعتنق بعضهم الاسلام اقتناعا أو ضمانا للدخول فى وظائف الدولة .

نظم الحكومة :

وسار الامويون فى حكم الاندلس وفق نظم لاتختلف كثيرا عن نظم العباسيين ، فالامارة وراثية فى أبناء البيت الاموى ، واتخذ كل منهم لنفسه لقب أمير ، اذ لم يظهر لقب خليفة أو أمير المؤمنين للامويين فى الاندلس الا فى عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) . ذلك ان عبد الرحمن الثالث هذا رأى أن مركزه فى قرطبة لا يقل عن مركز خلافة العباسيين فى بغداد ، بل يفوق خلافة الفاطميين التى قامت فى شمال افريقيا قبل انتقالها الى مصر . ولذا عقد عبد الرحمن مجلسا من العلماء ورجال الدولة سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م للنظر فى هذا الرأى ، وتم اعلانه خليفة أمويا بالاندلس فى تلك السنة .

وسار الخليفة فى حكم البلاد عن طريق الوزراء ، واشتهر الوزير الاول فى الاندلس باسم الحاجب ، وهو الذى يتلقى التعليمات من

الخليفة ، ويبلغها الى سائر الولاة والموظفين . وتمتع القضـاة فى الاندلس بمركز كبير سام . وتسمى رئيس القضاة باسم « قاضى الجماعة» وأقام فى قرطبة . ومن أهم وظائف الدولة كذلك وظيفة المحتسب ، ومهمة صاحبها لا تختلف عن مهـام الحسبة فى الدولة العباسية ، أو غيرها من الدول الاسلامية .

وانقسمت الاندلس الى ست مقاطعات ، لكل منهـا حاكم له سلطة مدنية وعسكرية ، ويسمى بالوالى ، واختصت بعض المدن الكبرى بولاة يعينون لها وحدها . وغدت الاندلس بذلك تنعم بحكومة مستقرة ، وتقدمت أحوالها الاقتصادية والعلمية والفنية .

العاصمة الاندلسية :

ووضحت مظـاهر ذلك التقـدم العام فى قرطبة عاصـمة الاندلس . وتقع هذه المدينة فى سهل خصيب واسع ، على سفح جبال الشـارت (وهى سيراmorينا) ، بحيث تطل على الشـاطىء الأيمن لنهر الوادى الكبير . ونالت قرطبـة شهرة عالمية أثارت الاعجاب فى قلوب الوافدين عليها من الشرق الاسـلامى والغـرب المسيحى ، اذ ازدانت بشبكة من القنوات المائية لتغذية أحيائها بالمياه الجارية الي المدينة من المرتفعات المحيطة بها ، وكثرت بها ايضا المساجد والفنـادق والحوانيت والطرق المرصوفة ذات الاضاءة الحسنة .

وأفاض المعاصرون فى الاشادة ببهاء قرطبة ، فقال احدهم : « ان المسافر يستطيع ان يسير عشرة أميال فى طرقها على ضوء

المصابيح » . وذكر آخر « ان المدينة امتدت أربعة وعشرين ميلا طولا ، وستة اميال عرضا ، وامتلأت كل هذه المساحة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق ، على ضفاف الوادى الكبير . وتعددت ضواحى قرطبة حتى بلغت سبعا وعشرين ضاحية ، ونزل بهذه الضواحى أهل الطبقة الغنية ورجال الدولة ، ولكل ضاحية جوامعها وأسواقها وحماماتها » . وزارت راهبة سكسونية من المانيا مدينة قرطبة ، فوصفتها بأنها « جوهرة العالم » .

وحرص خلفاء بنى أمية على تجميل عاصمتهم بالمبانى الشاهقة والحدائق والجوامع كذلك . فأنشأ عبد الرحمن الداخل منية الرصافة خارج قرطبة ، وجلب الماء الى هذا القصر ، وأدخل فى حديقته أنواعا من أشجار الفاكهة ، لم تعرفها الاندلس قبلا ، مثل الخوخ والرمان . وأسس عبد الرحمن قبيل وفاته الجامع الكبير فى قرطبة ، ليباهى به حرم الكعبة بمكة والمسجد الاقصى ببيت المقدس . وأتم خلفاؤه بناء هذا الجامع ، حتى أصبح أعظم جوامع الاسلام .

قصر الزهراء :

واشتهرت قرطبة كذلك بالقصر الملكى المعروف بالزهراء ، وهو القصر الذى نمت حوله المبانى والعمائر حتى صار اسمه علما على مدينة كبيرة . وبنى الخليفة عبد الرحمن الثالث هذا القصر سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م ، وسماه بهذا الاسم ، نسبة الى محظية

من محظياته . وتابع الخلفاء الأمويون بعد عبد الرحمن تجميل القصر حتى غدا أروع بلاط بين دول أوربا ، تأتى اليه السفارات من امبراطور الدولة البيزنطية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرنسا .

وتولى حراسة الزهراء حرس الخليفة المكون من المماليك المجلوبين من شتى بلاد أوربا ، وهم من أجلاب البلاد الجرمانية والسلافية (الصقالبة) وغيرهم من الفرنجة ، يشترون بالمال ويلحقون بخدمة الخليفة . واشتهر هذا الحرس باسم « الصقالبة » لكثرة الجنس الصقلبى بينهم . وغدت جماعات هذا الحرس الملوكى أداة الخليفة فى المحافظة على أمن الدولة واستقرارها .

ودلت قرطبة بقصورها ومباهجها وضواحيها على غنى الدولة ، والمعروف أن ايرادات الخليفة عبد الرحمن الثالث بلغت ٦ر٢٤٥ر٠٠٠ دينار . وجاء هذا الايراد الوافر من الزراعة والصناعة والتجارة .

الزراعة :

أما الزراعة فى أسبانيا الاسلامية فنالت عناية كبيرة من المسلمين ، اذ حفروا القنوات وغرسوا الكروم ، وجلبوا من الشرق الاسلامى ولاسيما الشام ومصر أنواعا من النباتات والفواكه ، مثل الارز والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال وقصب السكر . ووصل العرب الى مستوى غال فى علم فلاحة

الارض بالاندلس بفضل مازرعوا من حقول تجريبية ، وما درس علماؤهم من علوم النبات . فلاءموا بين التربة والطقس لزراعة انواع النبات .

ولاتزال بعض حدائق أسبانيا فى الوقت الحاضر تشهد بالرقى الزراعى الذى تدين به البلاد الى المسلمين . ومن أروع حدائق اسبانيا زمن الامويين جنة العريف التى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى الحديقة التى نسقت على شكل مدرجات ترويها القنوات التى تهبط مياهها من مستويات مرتفعة ، ولا يزال فى موضع الحديقة بعض اشجار الريحان والسرو حتى العصر الحاضر .

الصناعة :

وازدهرت الصناعات فى أسبانيا كذلك على عهد المسلمين ازدهارا كبيرا . فانتقلت صناعة دبغ الجلود من مراكش الى اسبانيا ، وغدت قرطبة مقر هذه الصناعة الجديدة . وجلب المسلمون دودة القز الى أسبانيا ، وصارت صناعة الحرير رائجة فى كثير من المدن مثل مالقة والمرية ، فضلا عن قرطبة . وشجع المسلمون الصناعات الوطنية مثل صناعة الزجاج والنحاس والخزف .

واستثمر المسلمون مناجم الحديد والرصاص بالقرب من قرطبة ، ونشطت على أثرها صناعة السلاح . وكذلك أدخل المسلمون صناعة زخرفة المعادن وتذهيبها وتفضيضها . وغدت

مدن أسبانيا عامرة بالمنتجات الصناعية التى اقبل التجار على شرائها والمتاجرة فيها بأنحاء العالم .

التجارة :

ذلك أن منتجات أسبانيا الصناعية زادت عن حاجاتها المحلية فصدرت الفائض منها الى الخارج ، وغدت أشبيلية وهى احدى الثغور النهرية تصدر الزيتون والزيت ، وتستورد الاقمشة من مصر ، والدقيق والجوارى من أوروبا وآسيا . واشتملت صادرات مالقة على التين والسكر . وبلغت حركة النشاط التجارى أشدها مع الاسكندرية وبغداد والقسطنطينية . وقام الاندلسيون بكثير من الكشوف بحثا عن أسواق تجارية ، واتسعت حركة التجوال والرحلة .

التعليم :

وتجلى ازدهار الحضارة فى الاندلس فى ميدان العلم فبلغ عدد مدارس قرطبة سبعا وعشرين مدرسة ، تلقى فيها الناس العلم بالمجان . كما اشتهرت جامعة قرطبة التى اتخذت مقرها فى الجامع الكبير بعظمة علمائها وسعة معارفهم ، وهى تسبق فى تأسيسها الجامع الازهر فى القاهرة ، والمدرسة النظامية فى بغداد . ووفد الى جامعة قرطبة كثير من أساتذة الشرق التدريس بها ، فضلا عن أساتذتها من الاندلسيين ، مثل ابن القوطية المؤرخ وابو على القالى اللغوى .

واجتذبت جامعة قرطبة الطلاب من المسيحيين والمسلمين على السواء من أوربا وأفريقيا . وامتاز علماء الاندلس بحب البحث والارتحال فى طلب العلم . فرحل كثير منهم الى مصر والشام والعراق وفارس وبلغ بعضهم بلاد ما وراء النهر والصين فى طلب العلم والمعرفة .

فضل الحضارة الاسلامية الاندلسية على أوربا :

بلغت حضارة المسلمين فى اسبانيا مرتبة رفيعة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وأخذ تيارها يتدفق فى القرن التالى على أوروبا . ومعنى هذا أن التيارات الفكرية التى جلبها المسلمون الى اسبانيا من دمشق وبغداد والقاهرة جعلت أوروبا متصلة بمنابع العلوم والفنون فى الشرق . ذلك أن غرب أوروبا ظل منعزلا عن الحضارة البيزنطية بشرق أوروبا ، وهى الحضارة الوثيقة الاتصال باليونانيين والرومانيين الاقدمين ، - فضلا عن الحضارة الاسلامية - لان العداء المذهبى بين الكنيسة الكاثوليكية فى غرب أوروبا والكنيسة الارثوذكسية فى شرقها قلل الاتصال الحضارى بين أتباعهما ، وحجب حضارة اليونان القديمة عن ممالك غرب أوروبا ، ومن ثم غدا مجىء طلاب غرب أوروبا الى جامعات أسبانيا الاسلامية هو السبيل الى اطلاعهم على مؤلفات اليونان الاقدمين مترجمة الى العربية ، ومنها الى اللاتينية .

ومما ساعد على انطلاق الحضارة الاسلامية فى غرب أوروبا

ان ملوك أسبانيا المسيحيين عند ما استولوا على الاراضى الاسلامية وانتزعوا بعض مدنها الهامة مثل طليطلة ، حفظوا مافيها من نور المعرفة أملا فى بقاء التقدم الحضارى فى دولهم الجديدة . فشجع الفونسو السادس ملك قشتالة يهود طليطلة على تكريس جهودهم العلمية على نحو ما ساروا عليه أيام تبعيتهم للمسلمين . وشجع هذا الملك كثيرا من العلماء المسلمين كذلك على الانتقال الى ممتلكاته المسيحية وأتاح لهم بذلك نشر التفكير الفلسفى الاسلامى وايصال التراث اليونانى القديم الى غرب أوروبا .

الدولة المستقلة فى مصر

الفاطميون

ساعد موقع مصر الجغرافى وبعدها عن مركز الخلافة العباسية فى بغداد على تفكير بعض ولاتها فى العصر العباسى على الاستقلال بها . وأول أولئك السرى بن الحكم الذى استطاع أن يجعل ولاية مصر فى أبنائه من بعده ، مع بقائها تابعة اسميا للخلافة العباسية . واتخذ السرى بن الحكم لنفسه سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م عاصمة فى مدينة تنيس بشرق الدلتا وخطا احمد بن طولون بعد ذلك خطوة واضحة حين استقل سنة ٢٦٣ هـ\٨٧٧ م بشئون مصر الداخلية

والخارجية ، ما عدا الاموال التى ادتها الخزانة المصرية سنويا لبيت مال الخلافة العباسية فى بغداد . وبنى أحمد بن طولون لدولته عاصمة جديدة اسمها القطائع ، وهى جهة حى الصليبة بالقاهرة فى الوقت الحاضر ، وانشأ بها جامعا نسب الى اسمه ، وهو نموذج رائع من نماذج الفن المعمارى الاسلامى ، كما بنى مستشفى يبدو انه الاول من نوعه فى البلاد المصرية .

وظلت مصر على استقلالها هذا زمن أبناء أحمد بن طولون ، الذين يجمعهم اسم الدولة الطولونية ، ثم عادت مصر الى التبعية للخلافة العباسية سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م . غير أنها ما لبثت أن عادت الى الاستقلال مرة أخرى على يد محمد ابن طفج الاخشيد وأبنائه (سنة ٣٢٣ هـ — ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ — ٩٨٩ م) ومن الملحوظ أن الدولة الاخشيدية جعلت لنفسها كذلك عاصمة جديدة بين القطائع والقلعة الحالية .

قيام الدولة الفاطمية

وبينما تلك الحوادث تجرى ، قامت فى شمال افريقيا حركة شيعية تنتسب الى فاطمة بنت النبى ، حتى صارت هذه الحركة تنتسب الى اسمها . وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ ، ٩٠٩ م .

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سرية ، بسبب امعان معظم الخلفاء العباسيين فى اضطهادهم

واتخذ بعض دعاة الشيعة مقرا لهم فى اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفى أحد مواسم الحج تعرف احد أولئك الدعاة واسمه أبو عبد الله الشيعى بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال أفريقيا ، ونجح فى استمالتهم الى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم .

وتولى حكم شمال أفريقيا وقتذاك من قبل العباسيين أفراد أسرة الاغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩ م) ، التى لم تنجح فى تأليف القلوب حولها ، وآذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبد الله الشيعى ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقيا لدعوته ، وما زال يعمل سرا حتى أضحى قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للاغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبد الله اخيرا أن يقضى على الاغالبة نهائيا سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، وأن ينادى بأحد سلالة على بن أبى طالب ويدعى سعيد بن الحسين اماما ، ولقبه عبيد الله المهدى .

واتخذ عبيد الله المهدى عاصمة له فى رقادة عاصمة الاغالبة ، وهى ضاحية من ضواحى القيروان . ثم قويت شوكته وكثر أتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠ م عن رقادة الى مدينة بناها لنفسه وسماها المهدية نسبة اليه ، وهى على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهدى يعمل من عاصمته الجديدة على امتداد سلطانه

نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر. وأعلن نفسه خليفة فصار بالعالم الاسلامى ثلاث خلافات ، وهى العباسية ببغداد ، والامـوية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهدية .

وسار أبناء عبيد الله المهدى على نهج سياسته التوسعية ، حتى استطاع أحدهم وهو المعز لدين الله فتح مصر . وكانت مصر تعانى وقتذاك ضنكا وجدبا أواخر حكم الاخشيديين . فأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى ، وتم له الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ ، بفضل ضعف الاخشيديين الذين رحب بعضهم بالفاطميين ، وذلك فضلا عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها . وأسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة تلك السنة قبل قدوم الخليفة المعز لدين الله اليها سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣ م ، وغدت القاهرة بذلك عاصمة للدولة الفاطمية وأجزائها الممتدة من مراكش الى آخر الاطراف المصرية .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمى بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمى وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام ، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله (٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م) ، اذ ورث الفاطميون ممتلكات الاخشيديين فى الحجاز

والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الاطلسى الى البحر الاحمر واليمن ومكة ودمشق .

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفا شديدا فى ذلك الوقت ، حتى ان اسم الخليفة الفاطمى ذكر فى بعض مساجد العراق نفسها . اذ اغتصب البساسيرى أحد قادة الاتراك فى بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) فى مساجد العاصمة العباسية مدة اربعين جمعة متتالية ، نكاية فى العباسيين . وحذت مساجد واسط والبصرة حذو مساجد بغداد ، فأعلنت اسم الخليفة الفاطمى من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسى كاد يتنازل عن خلافته للفاطميين . وبذا وصلت الخلافة الفاطمية الى مركز الصدارة فى العالم الاسلامى ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان فى شرق البحر الابيض المتوسط . وبلغ أسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على اسطول الامبراطورية البيزنطية فى العدد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الامويين بالاندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربى من البحر الابيض المتوسط .

انهيار الدولة الفاطمية :

غير ان الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها

بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب اليها أهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى اذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وادعى الالوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها فى قلوب الناس . وأساء الحاكم بأمر الله الى نفسه والى دولة آبائه وابنائه بعده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التى أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده الى الاقباط واليهود . ويدل على ذلك اغتياله ليلا فى صحراء المقطم على يد رجل سنى ، بايحاء من سيدة الملك أخت الحاكم .

ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية أن تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، اذ عمدت الى استجلاب مختلف الاجناس من السودان والبربر والترك والارمن لتقوية جيوشها ، فهيأت بذلك أسباب كراهيتها ولا سيما فى مصر . ومع أن الرحالة الفارسى ناصرى خسرو شهد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥م بما فى القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المستنصر ، فان الاحوال لم تلبث ان تغيرت بسبب منافسة اجناس الجيش وثوراتهم ، واستهتارهم بالامن اللازم لنمو النشاط الاقتصادى والثقافى للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية غلاء فى عهد الخليفة المستنصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون ، حتى سمى المعاصرون هذا الغلاء باسم الشدة العظمى . ومع حدوث غلاء فى عهود سالفة لايام الشدة العظمى فانه يبدو أن ماحدث أيام

الغلاء على عهد المستنصر أزال مابقى من هيبة الدولة الفاطمية .

ولم ينقذ الدولة سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم الوزراء العظام ، وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفة المستنصر ، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد . ذلك ان خطرا خارجيا أخذيستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، اذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الشام ، وأتم الصليبيون القضاء نهائيا على نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد . وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال افريقيا ، لاستقلال ولاتهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر .

وزاد الموقف سوءا فى الدولة الفاطمية حين اخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها، مع بقاء الخطر السلجوقى ماثلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية ، التى تفرعت من الدولة السلجوقية بقيام الاتابك عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب . واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ١١٥٤ م ، وعمد الى سياسة منع الصليبيين من امتداد نفوذهم الى مصر ، ثم تطورت هذه السياسة الى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى فى مصر . ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغام سمح للصليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية، بل رضى بأن يدفع لهم مبلغا سنويا من المال ضمانا لمساعدتهم له ضد منافسه فى

منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى ، وأن يعد الوعـود الكثيرة نظير هذه المساعدة . ولم يستطع شاور الا أن يطلب بدوره المساعدة من نور الدين ، وسرعان ماأصبحت مصر ميدانا لحملات وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية. أما الصليبيون فقاد جيوشهم الملك آمورى الاول ، على حين قاد الجيوش النورية شيركوه الايوبى والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته الحوادث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين أيوب أخى شيركوه .

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام وطلب شيركوه من الوزير شاور ان يفى بما قدمه من وعود مقابل مساعدته على غريمه ، لكن شاور نكث بوعوده ، وراوغ وماطل حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح الدين . وراى الخليفة الفاطمى العاضد وقتذاك ان ينقذ الموقف بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفى بعدها سنة ١١٦٩ م . فرأى الخليفة العاضد أن يسند الوزارة الى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون فى ذلك تمهيد للتخلص من الجيوش النورية ، لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، اذ تولى صلاح الدين الوزارة ، وطلب الى سيده نور الدين أن يرسل اليه أهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين أن يعمل على الغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل الخطط التى حبكها أهله ولا سيما أبوه أيوب أن يلغى الخطبة

الفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، والخليفة العاضد مريض لا يدرى شيئا . وتوفى العاضد سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، ويقال انه توفى دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية فى غير جلبة أو ثورة أو حرب ، وهى الخلافة التى عجزت الدولة العباسية عن ازالتها بالحرب أو السياسة.

الحضارة الفاطمية

أما حضارة الدولة الفاطمية فأول مظهر من مظاهرها انشاء القاهرة . ووضع جوهر الصقلى أساس هذه المدينة الحصينة الى الشمال من الفسطاط والقطائع ومدينة الاخشيديين ، فبدأت من باب زويلة الى باب الفتوح فى العصر الحاضر ، واشتملت على ماهو الآن حى الجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وغيرها .

واحيطت القاهرة الفاطمية بسور تناوله التجديد مرات عديدة باتساع رقعتها ، وأصبحت دار خلافة تنافس دار الخلافة العباسية ، أى بغداد .

الجامع الازهر :

ولما أتم جوهر تأسيس القاهرة رأى أن يبنى جامعا تقام فيه شعائر المذهب الشيعى ، تجنبا لاثارة شعور أهل السنة . فوضع الحجر الاساسى للجامع الازهر المعروف سنة ٣٥٩هـ/

٩٧٠ م ، وانتهى جوهر من بناء هذا الجامع الكبير بعد سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لاول مرة فى رمضان سنة ٣٦١هـ . ولم يلبث أن تطور الجامع الازهر الى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات فى علوم الدين على المذهب الشيعى ، وذلك باشارة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، سنة ٣٧٨هـ ، ليكون للدولة الفاطمية مركزا علميا يفد اليـــه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادى الشيعة .

واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب الى جامعتهم وقدموا اليهم المأكل والمسكن . ولم يفقد الجامع الازهر مكانته العلميـــة بعد زوال الخلافة الفاطمية ، اذ تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية ، وحفظوا له هيبته وسمعته .

قصور الفاطميين :

وابدع الفاطميون فى بناء القصور الفخمة ، وتنظيم البـــلاط الخليفى على نسق فاخر . فبنى جوهر الصقلى اثناء تأسيس القاهرة قصرا للخليفة المعز لدين الله . واهتم ابنه الخليفة العزيز كذلك بتشييد القصور ، وبنى لنفســـــه قصرا غربى مدينـــة القاهرة . وبنت الملـــكة تغريد أم الخليفة العزيز قصر القرافـــة والحقت به بستانا وحماما فاخرا . وتردد الناس من علية القوم على هذا القصر طلبا للراحة . واسست هـــذه الملـــكة كذلك « منازل العز » ، وهو قصر فخم على النيل ، داب ابنها الخليفة العزيز وخلفاؤه على الاستجمام فيه طلبا للراحة .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتزيين قصورهم أبهى زينة ، فأنشأ الخليفة العزيز قاعة الذهب التى جعلهـا مقرا لمجلس الحكومة ، ومكانا لاستقبال الوفود ، وزينها بالستور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم ولون واحد . واتخذ الخليفة العزيز مقعـده فى صدر هذه القاعة خلف ستارة لا ترفع الا بعد انعقـاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين .

واشتهر الفاطميون فضلا عن ذلك ببناء « المنـاظر » ، وهى الاماكن التى تشرف على الجهات التى يقام فيها الحفلات الرسمية أو تقع فى نواح هادئة تصلح للاستجمام والراحـة . ومن أمثلة هذه المناظر ، منظرة المقس التى استعرض الخلفاء منها الاحتفال بسير الاساطيل الحربية فى النيل ، ومنظرة باب الفتوح لاستعراض الجيوش الفاطمية حين خروجها من القاهرة أو عودتها اليها .

الاعياد والمواسم :

وبالغ الفاطميون فى الاحتفال بالمواسم الاسـلامية والاعيـاد وغيرها من المواسم غير الاسلامية كذلك ، واشتهر احتفـال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبى وليلة النصف من شعبان . ويقال ان العرائس المصنوعة من السـكر ، والحلوى السمسمية والسكرية وغيرها من هدايا الموالد المصرية فى العصر الحـاضر ترجع الى أيام الفاطميين .

ومن أعيـاد الفاطميين غير الاسلامية خميس العهـد الذى

يحتفل به النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويوم الغطاس ، وعيد الميلاد عند المسيحيين .

واهتم الفاطميون كذلك باحياء المواسم المصرية القديمة مثل عيد النيروز ، وهو أول السنة القبطية . اذ داب النــاس فى مستهل شهر توت على ابقاء النيران مشتعلة ليلة النيروز ، مع رش الطرقات والبيوت بالماء تبركا بقدوم فيضــان النيل . ووزعت الحكومة الرواتب الاضافية على موظفيها احتفالا بهــذا العيد القومى .

غير أن القاهرة الفاطمية ظلت مدينة حربية ليس للمصريين فيها سوى أعمالهم فى الصناعة وخدمة قصورالخلفاء ، والوظائف الكتابية الصغرى ، والابتهاج بالمواكب الخليفية وليالى الوقود ، وهى ليالى أول رجب وليلة النصف منه ، وليلة أول شــعبان وليلة النصف منه كذلك وليالى رمضان .

ومما يدل على موقف المصريين من الدولة الفاطمية أن هــذه الخلافة زالت فى صمت وسهولة ، وأن صلاح الدين الايوبى لم يجد مقاومة عندما قام بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمى فى صلاة الجمعة . وعندما زالت الدولة الفاطمية ظل المصريون على موقفهم الهادىء ، أما بقايا الفاطميين فأخذت تدبر المؤامرات لاسترداد سلطانها . »

الدولة الايوبيــة

صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الايوبى سنة ١١٣٨م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالى بغداد وسامرا ، واتصل والده نجم الدين ايوب وعمه شيركوه بالاتابك زنكى ، فنشأ صــلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وتعــلم علوم أولاد الامراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمــه شيركوه فى الحملات التى انفذها الســـلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر اواخر أيام الدولة الفاطمية . واسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ؛ ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ؛ وهى قيامه وزيرا فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائبا لمملــكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤامرات . ثم توفى نور الدين ســنة ١١٧٤ م فاســـتطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع اجزاء مملكة نور الدين تدريجا . ووافق الخليفة العباسى على سلطنته . والتفت صلاح الدين الى كثير من الاعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفســطاط معا بسور واحد ؛ وشجع على أقامة معاهد الدراسة الفقهية التخصصية وهى المعروفة

بالمدارس ، ومنها مدرسة الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ١١٧٩ م ، ووصفها فى مذكراته وصفا طيبا . وأنشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور .

ثم اتجه صلاح الدين الى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما فى حطين سنة ١١٨٧ م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية .

ضعف الدولة الايوبية :

غير أن أبناء البيت الايوبى فى مصر والشام اختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين وتحاربوا حروبا انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الايوبيين سواء بالشام أو مصر بأجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الايوبى ، حتى أضحى أولئك الجند المماليك أصحاب الاراضى والاملاك والسلطة والنفوذ والحكم والادارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليك هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح أيوب (سنة ١١٤٩ م) .

ثم توفى السلطان الصالح أيوب وتولى شئون الدولة بعده زوجته شجر الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء

توران شاه بن الصالح أيوب ، واختلف مع زوجة أبيه ،
فحرضت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه بقتله حريقا غريقا فى فارسكور سنة ١٢٥٠ م . وبذا انتهت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك فى مصر .

دولة سلاطين المماليك

وأقام المماليك شجر الدر سلطانة ، وعينوا احدهم وهو أيبك التركمان الى جانبها . غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الاسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانة على البلاد ، فأقام المماليك أيبك سلطانا ، وخلعت شجر الدر نفسها ، وتزوجت من ايبك ، بعد أن انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت ثمانين يوما فقط . ويعد ايبك (١٢٥٠ م — ١٢٥٧ م) أول سلاطين المماليك وجرى المصطلح التاريخى على تقسيم عهد المماليك الى قسمين ، وهما دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٩٠ م) ودولة المماليك البرجية (١٣٨٢ — ١٥١٧ م) . والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الايوبى . أما البرجية فنشأوا حرسا للسلطان المملوكى قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) . وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة ، فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى والالمانى واليونانى .

وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا ، ومن المماليك المعروفين

باسم المماليك البرجية ثلاثة وعشرون ســــلطانا . ولم يحترم المماليك مبـدأ الوراثة للعرش لانهم اعتبروا أنفسهم اسوياء ، لا فضل لملوك على آخر الا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعين من المماليك .

وبلغت مصر مبلغا عظيما من القوة والثروة والأبهة على عهد سلاطين دولة المماليك الاولى والثانية ،وصدت كثيرا من الاخطار الجسيمة التى هددت البلاد الاسلامية عامة ، والشرق العربى خاصة . فقضى المماليك على الخطر المغولى الذى أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، واخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . واضحت دولة سلاطين المماليك هى القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الاسلامى ، وآخر الدول المستقلة التى عاشت بمصر .

وأصاب المماليك الترف والعافية بعد أن استقر الامر لهم وتدفقت عليهم الثروات الواســعة بسـبب التجارة . فدب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ، وتضاربت مصالح هذه الفئات والاحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية التركية فى ذلك الوقت من قوة الى قوة فى آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الاسلامى ، ولذا حاربت دولة سلاطين المماليك وقضت عليها فى مصر سنة ١٥١٧ م .

الحضارة المصرية زمن المماليك

نظـــام الحكم :

سار سلاطين دولة المماليك الاولى والثانية على وتيرة أسلافهم وسادتهم الايوبيين . فالســـلطان المملوكى رأس الادارة المصرية والموجه لشئون البلاد . واتخذ المماليك لفظ سلطان جريا وراء العرف الذى ساد الدولة الايوبية فى تلقيب حكامها بالسلاطين . على أن السلطان المملوكى لم يختلف عن سائر مماليك الدولة . اذ نشأ مثلهم وعاش فى نظامهم الحربى ، وكثيرا مانعت نفســـه بلفظ المملوك امعانا فى الدلالة على أن وظيفة السلطان لم ترفعه من سائر اخوانه من المماليك .

وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين أن يجعلوا منصب الســـلطنة وراثيا فى أبنائهم بعدهم ، لم ينجح مبدأ الوراثة الا احيانا . اذ أعتمد السلطان على قوته الحربية ، وكثيرا ما اغتصب قادة الجيش المملوكى الاقوياء منصب الســلطنة لانفســـهم . فالجيش المملوكى هو الاداة المحركة للشئون السياسية فى البلاد ، وهو جيش اقطاعى يأخذ الأمير المملوكى منه اقطاعا من الارض مقابل مايقـــدمه من الجند والخدمات الحربيـــة فى حروب السلطان . فيقوم أمير مائة مثلا بتقديم مائة جندى يكون هو على رأسهم ، ويقوم أمير خمســين بما يناسب اقطـاعه ، أى خمسين جنديا يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهكذا .

وسـار النظام الادارى فى السلطنـة المملوكية على قواعد المركزية الدقيقة ، فالسلطان هو الذى يختار رؤسـاء الدواوين الكبرى فى القـاهرة ، ويعهـد اليهم بالاشراف على الادارات المحلية فى الاقاليم . وتعددت الدواوين الحكوميـة على عهـد سلاطين المماليك ، وأهمها ديـوان الانشـاء الذى تشبهه وزارة الخارجية فى العصر الحديث ، وأهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة . وديوان الجيش وهو الديوان الذى يقـوم على توزيع الاقطاعات وضبطها ونقلهـا من أمـير مملوكى الى آخر . وديوان الاحباس وهو يقوم بما تقوم به وزارة الاوقاف اليوم . وديوان الخاص ويشرف على الشـئون الماليـة التى تتعلق بالسلطان . وديوان النظـر وتشـبهه وزارة الماليـة فى العهد الحاضر . ومن المعروف أن هذه الدواوين وغـيرها من أدوات الجهاز الحكومى قامت زمن الفاطميين ، غير أنه زاد عليها ما أدخـله سلاطين الايوبيين والمماليـك من تنظيـم فى ادارتهـا واختصاصاتها .

واشتهر رئيس كل ديوان باسم الناظر أو الصاحب ويليه نائب يسمى مستوفى الصحبة ، لملازمته الناظر فى أعماله ، ثم يليه موظفون آخرون وهم المعروفون باسم المستوفين وكتاب التوقيع وكتاب الدرج والمشدين والكشاف .

انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة .

دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع الى

الخلافة العباسية فى بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليكسبوا حكمهم صبغه شرعيه فى مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماما بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو وجنوده . وفكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك فى اعادة الخلافة العباسية الى بغداد . لكن حدث أن أغتيل السلطان قطز وتولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى بيبرس الى القاهرة أحد أبناء البيت العباسى ، واسمه أبو القاسم سنة ١٢٦١ م ، وعقد مجلسا عاما حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان امام ذلك الجمع أن ابا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسى ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلد الخليفة السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من البلاد . واخذ بيبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل أن يصل الى بغداد ، فعقد بيبرس النية على اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واستدعى عباسيا ثانيا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة ، وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر الله ، أمر السلطان بيبرس بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد من منابر دمشق والمدينة والقدس . وهكذا أحييت الخلافة العباسية بالقاهرة .

وأفاد المماليك من الوضع الجديد ، اذ صار سلاطنيهم منذ أيام السلطان بيبرس الى الفتح العثمانى لمصر يتمتعون بمقام سام فى العالم الاسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمعون ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتى اليها وفود الملوك من البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطة فى بلادها .

الاحوال الاقتصادية والاجتماعية :

وساعدت هذه الادارة على تنشيط التجارة التى أفادت من موقع مصر الجغرافى على الطريق العالمى بين الشرق والغرب واستطاع المماليك بذلك الحصول على أموال كثيرة بالقياس الى ما حصل عليه الفاطميون قبلهم من هذا الطريق .

أما العناية بالزراعة وأحوال الفلاحين فاقتصر اهتمام السلاطين والمماليك فيها على استغلال الارض دون مصلحة الفلاح ، وعاشوا بعيدين عن الاراضى ما عدا أيام الخروج للصيد أو تربيع الخيل فى الربيع ، شأن الملاك المتغيبين الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئا سوى محصولاتها من عرق الفلاح .

والواقع أن المماليك عاشوا طبقة منفصلة تمام الانفصال عن سائر سكان سلطنتهم بمصر والشام ، ووصفهم المعاصرون بأنهم أرباب السيف تمييزا لهم عن أرباب القلم ، اى طائفة الموظفين المدنيين فى مختلف دواوين السلطنة وولاياتها ودور

القضاء والحسبة ومعاهد العلم . وجاءت هـذه الطائفـة من الموظفين من المصريين والشاميين الذين ظلوا كذلك طبقة منفصلة عن المماليك وعامة السكان من التجار وأرباب المهن . وعاشت هذه الطبقات الثلاث بمعزل عن الفلاحين وأهل الريف الذين لم يعرفوا عن القاهرة أو الاسكندرية شيئا ، وقنعوا بتأدية أعمال الزراعة وواجبات النظام الاقطاعى السائد فى البلاد وربما عاش الفلاح طول حياته دون أن يرى صـاحب الارض التى يزرعها مـرة واحدة . على أن هذا النظام الطبقى ظل جـامدا ماعدا بعض حوادث الزواج والاختلاط بين بضعة من المماليك وأصحاب القلم من العلماء أو القضاة وغيرهم من كبار الموظفين المدنيين .

ومع هذا غلبت مظاهر القنـاعة عـلى أهل البـلاد ، بسبب ما أفادوا من أجور ومكافآت مقابل ما قاموا به للمماليك أرباب السيف وللموظفين أرباب القلم من صناعة الاسلحة والاقمشة والملابس والاوانى والأطعمة . ثم أن العصر المملوكى امتلأ بأنواع الملاهى مثل لعب الكرة بالصولجان (البولو) ، وسباق الخيل ، ومواكب النصر وحفلات الاعياد الاسلامية والمسيحية .

العـلوم والفنون :

واستطاع المماليك بفضل حصولهم على الاموال الكثيرة توجيه عنايتهم الى العلوم والفنون . وتجلى بذخ سـلاطين المماليـك وثراؤهم فى ميدان العمـارة ، حرصا على الظهـور بالتقـوى

والصلاح معظم الأحيان . اذ امتلأت مصر بالمساجد والمدارس والمدافن التى تزين مآذنها وقبابها سماء القاهرة والاسكندرية حتى العصر الحاضر . وعنى المماليك بتزيين عمائرهم وقصورهم بالمصابيح والنوافذ ذوات الزجاج الملون فى أشكال زخرفية بديعة .

وتجلى التقدم العلمى فى ميدان الطب والتاريخ . فاشتهر فى دمشق على عهد المماليك ابن أبى أصيبعة ، أعظم مؤرخى الطب فى العالم العربى (١٢٠٣ - ١٢٧٠ م) وهو طبيب باطنى درس الطب فى دمشق والقاهرة . وألف كتابه المشهور « عيون الانباء فى طبقات الاطباء » ويدل المستشفى الذى بناه قلاوون وهو « المارستان المنصورى » على مبلغ تقدم الطب على عهد المماليك . واحتوى هذا المستشفى على اجنحة خاصة لمعالجة الامراض المختلفة، مثل الحمى والرمد ، واقيمت به مدرسة لتعليم الطب . ولايزال مبنى مستشفى قلاوون قائما الى العصر الحاضر ، حيث جعلته وزارة الاوقاف مستشفى للعيون بالقاهرة .

وحفل عصر المماليك بطائفة من كبار المؤرخين ومنهم ابن واصل وابن ايبك الصفدى وابن دقماق والذهبى والمقريزى والعينى وابن حجر والسيوطى وابن اياس . وحفظت مؤلفاتهم الكثير من اخبار دولة المماليك والوان الحضارة فيها . وكثرت فى ذلك العصر المؤلفات المعروفة باسم الموسوعات وأشهرها « نهاية الارب » للنويرى ، « وصبح الاعشى » للقلقشندى .

نهاية دولة المماليك :

يرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن سلاطين المماليك الى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين اصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين . وادرك سلاطين المماليك اهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب الجمركية العالية على الصادرات والواردات . وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

ثم اخذت هذه التجارة تتحول تدريجا عن مصر والبحر الاحمر بعد أن كشف البرتغاليون طريق الوصول الى الهند والخليج الفارسى بالطواف حول افريقيا وراس الرجاء الصالح ، والسفر بحرا من اوروبا الى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك اعظم مواردهم المالية السهلة. فصارت الاحوال الاقتصادية تدريجا من رخاء الى ضيق ، ومن غنى الى فقر . وعجز السلاطين عن النهوض بمرافق البلاد ، فأصاب دولتهم الجمود وتمردت الجيوش على السلاطين ، واصبح كيان الدولة مهددا ، حتى اذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطة المماليك فى سرعة غير منتظرة .

الدول المستقلة فى فارس والعراق

تولدت فى فارس حركة استقلالية منذ ايام الفتوح الاسلامية الاولى . ووضحت هذه الحركة وضوحا متقطعا حتى اواخر الدولة الاموية . ثم اشترك الفرس فى الدعوة لبنى عباس ، لعلهم يصيبون بذلك شيئا من الاستقلال بشئونهم أوالسيادة على الدولة الاسلامية كلها . لكن هذه الحركة انتكست بافاقة أول الخلفاء العباسيين — وهو أبو العباس الذى أطلق عليه بعض المؤرخين اسم السفاح — لهذه المآرب الانفصالية فقتل أباسلمة الخلال ؛ كما قتل الخليفة الثانى ، وهو أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى ، والمعروف أن كلا من هذين الزعيمين الفارسيين كان من أركان اقامة العباسيين فى الخلافة . ثم تخلص رابع الخلفاء العباسيين ، وهو هارون الرشيد من النفوذ الفارسى كله ، وما انطوى عليه من روح استقلالية ، بقتل البرامكة ومصادرة أموالهم سنة ٨٠٣ م . وتم القضاء على ذلك النفوذ الفارسى حين استجلب المعتصم (٢١٨هـ/٨٣٣م) جنودا من الترك ليكونوا جيشه من دون الفرس أوالعرب وأسس لذلك سامرا سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م وجعلها عاصمة جديدة للخلافة العباسية ، بعيدة عن النفوذ الفارسى وبقاياه فى بغداد .

غير أن العباسيين لم يستطيعوا القضاء على الحركات الاستقلالية الفارسية وغيرها من الحركات الشعوبية ، نظرا لاتساع رقعة الدولة . ومن امثلة ذلك قيام طاهر بن الحسين ، الذى ولاه المأمون على خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م قبل خلافة المعتصم ، اذ استطاع هذا الوالى وأبناؤه من الطاهريين أن يؤسسوا لأنفسهم دولة شبه مستقلة دون ان ينفصلوا انفصالا تاما عن الخلافة العباسية . وظلت هذه الدولة قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ ، وقامت أشباهها بمختلف الأقاليم العباسية ، ومنها الدولة الصفارية والدولة السامانية ، والدولة البويهية ، وكلها قامت فى بلاد فارس .

بنو بويه

ورنا بعض أمراء هذه الدول المستقلة الى السيطرة على العراق نفسها مقر الخلافة العباسية وضمها الى سلطانهم ، متخذين لانفسهم لقب أمير الامراء . ومن أولئك بنو بويه ، وأصلهم فيما يقال يرجع الى ملوك ساسان الفارسيين ، الذين تشردوا الى اقليم الديلم الواقع فى المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين . وتزعم قبائل البويهيين فى خلافة الراضى العباسى أبو شجاع بويه . وفى سنة ٣٢٢هـ/٩٤٣م جمع أبو شجاع هذا رجال قبيلته وتوغل بهم فى جنوب فارس . وهدف الى تأسيس دولة له على حساب الولاة المسلمين المتنازعين فيما بينهم . ولم يستطع هؤلاء الولاة له دفعا ، فاحتل أبو شجاع شيراز ، وجعلها عاصمة لدولة

جديدة . ثم امتدت حركاته الى الاهواز (وهى الآن خوزستان) ثم الى اقليم كرمان .

وفى سنة ٣٢٤هـ/٩٤٥م — وهى السنة العاشرة لقيام الدولة الاخشيدية فى مصر — اتجه أحمد بن أبى شجاع بويه نحو بغداد بقوة حربية ، فلم تستطع حاميتها المكونة من الحرس التركى مقاومته ، ودخل أحمد المدينة فى سهولة ويسر . واستقبل الخليفة المستكفى زعيم بنى‌بويه وأنعم عليه بلقب « معز الدولة » تشريفا له وبرهانا على الاعتراف بسطوته . ولم يكتف أحمد بويه بهذا اللقب ، الذى لم يعد أن يكون مرادفا للقب « أمير الامراء » . فأصر على ذكر اسمه مع اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، وأن يسك اسمه فى العملة أيضا . وبلغ معز الدولة مركزا عاليا ، وأصبح الحاكم الفعلى فى بغداد دون أن يتعرض للخليفة ، غير أنه لم يلبث أن كشف عن نياته نحو المستكفى ، فقبض عليه وسمل عينيه سنة ٩٤٦م ، واختار بدله المطيع خليفة . ودل الخليفة الجديد على انه جدير باسمه ، اذ امسى مطيعا لكل ماأراده البويهيون منه ، وبات أداة طيعة فى أيديهم .

وبلغ البويهيون أقصى قوتهم أيام عضد الدولة الذى اتخذ لنفسه لقب شاهنشاه (أى ملك الملوك) ، على حين اكتفى بنو بويه قبله بألقاب التبجيل والتفخيم مثل عماد الدولة وركن الدولة . ومن‌ثم فاق عضد الدولة أسلافه قوة وعظمة ، وتزوج من ابنة الخليفة الطائع ، ودلت ألقابه وأعماله على نفوذ واسع

وجبروت شديد . وظلت شيراز عاصمة للبويهيين منذ وصولهم اليها . وبدت العراق كأنها ولاية تابعة لها ، بعد أن تحول محور الارتكاز والقوة فى الخلافة العباسية الى هذه المدينة .

ثم استطاع عضد الدولة أن يضم الى سلطانه مختلف الدويلات الصغيرة المجاورة التى ظهرت على عهده فى فارس والعراق ، وبذا غدا أعظم حاكم فى الدولة الاسلامية . واهتم عضد الدولة ببغداد رغم بقاء بلاطه فى شيراز فاتخذ لنفسه وخلفاؤه من بعده قصورا فى العاصمة العباسية القديمة ، وغدت هذه القصور بجمعها اسم « دار الخلافة » وأنشأ عضد الدولة كثيرا من العمائر فى بغداد ، مثل المستشفى المشهور باسم « البيمارستان العضدى » نسبة اليه ، واحتوى هذا المستشفى على أربعة وعشرين طبيبا ، وصارت هذه المجموعة هيئة للتدريس والأبحاث الطبية ، فضلا عن علاج المرضى . وتغنى الشعراء مثل المتنبى بعظمة عضد الدولة ، وأهدى المؤلفون مؤلفاتهم اليه ، مثل العالم النحوى أبى على الفارسى صاحب كتاب « الايضاح » .

وأورث عضد الدولة أبناءه بعده سياسة مرسومة لتشجيع العلم ، فبنى ابنه شرف الدولة دار الرصد ببغداد ، وأسس بها بهاء الدولة ، أخو شرف الدولة ، مجمعا علميا سنة ٩٩٣م بمساعدة وزيره الفارسى سابور بن اردشير . واحتوت مكتبة هذا المجمع على ١٠٠٠٠ كتاب ، انتفع بها ابو العلاء المعرى ايام تلمذته فى

بغداد . وازدهرت فى عهد شرف الدولة جماعة اخوان الصفا ، وهى احدى الفرق الفلسفية فى الدولة الاسلامية .

غير أن الدولة البويهية أخذت فى الانهيار بسبب النزاع على السلطة بين الاخويين بهاء الدولة وشرف الدولة . وامتد هذا النزاع الى سائر أفراد الاسرة ، وعجل بالقضاء على البويهيين ، لان مذهبهم الشيعى جعلهم بغيضين الى السنيين من اهل بغداد . ولذا اخذت هذه الدولة تنكمش تدريجا بسبب حركة السلاجقة وزعيمهم طغرل بك الذى لم يلبث أن قام بمثل ماقام به زعيم البويهيين ابو شجاع قبلا أزاء الخلافة العباسية حتى قضى على البويهيين سنة ١٠٥٥ م .

السلاجقة

والسلاجقة قبيلة من قبائل الغز التركية راسها زعيم اسمه سلجوق ، وقبيلته من برارى القرغيز فى التركستان ، واستقر به الترحال فى بخارى ؛ حيث اعتنق الاسلام على المذهب السنى . وانتشر الاسلام بين السلاجقة الذين لم يلبثوا أن أخذوا على أنفسهم الدعوة للسنة ضد الشيعة ، فأخذ سلجوق يغير على الدول الشيعية القائمة فى فارس مثل الدولة السامانية ـ ثم أعد سلجوق أبناءه وأحفاده للغزو والفتح ، واستطاع طغرل أحد أحفاده أن يستولى سنة ١٠٣٧ م على اقليم خراسان ، فى الشمال الشرقى من فارس . واستمر طغرل فى تقدمه فى بلاد فارس والعراق حتى

تصدع بيت بنى بويه فى شيراز وبغداد . وفى سـنة ١٠٥٥ م وقف طغرل على رأس جماعة من جنده الغز الأتراك أمام أبواب بغداد ، كما وقف أحمد بن ابو الشجاع بويه قبـله . فسلمت المدينة له دون مقاومة ، واستقبل الخليفة طغرل زعيم السلاجقة كما استقبل أحمد أبو شجاع من قبل .

الدولة السلجوقية فى عز أيامها : ــ

ولم يلبث الخليفة القائم العباسى أن اعترف بطغرل سلطانا ، ومنحه لقب « ملك الشرق والغرب » . وتدفقت القبائل التركية على العراق بعد نصرة طغرل وتوفيقه الذى جعله صاحب الامر فى بغداد . واستغل السلاجقة مركزهم فى بغـداد الى جانب الخلافة العباسية ، فعمدوا الى توسـيع سـلطانها . على أن السلاجقة لم يستهدفوا تقوية مركز الخليفة العباسى نفسه ، وانما عمدوا الى نشر المذهب السنى الذى دانت به الخـلافة العباسية ، ومحاربة الفاطميين الشيعة ، املا فى أعادة الوحدة للدولة الاسلامية .

وتولى ألب أرسلان السلجوقى ، ابن أخى طغرل ، سنة ١٠٦٣ م القيادة العليـا للجيوش السلجوقية ، فسير شعبة منهـا نحو الشام ، وشعبة ثانية الى بلاد العرب ، وكلاهمـا تابع للدولة الفاطمية الشيعية ، وسير شعبة ثالثة قام هو على رأسها نحو ارمينيا وآسيا الصغرى من أملاك الدولة البيزنطية ــ وآسيا الصغرى هى بلاد الروم على قول المؤرخين المسلمين . واستولت

الجيوش السلجوقية على حلب سنة ١٠٧٠ م ، وانتزعت مكة والمدينة بعد ذلك بقليل ، على حين انتصر ألب أرسلان على الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين سنة ١٠٧١ م فى وقعة منزكرت (ملازكرد) فى الشمال الشرقى من بحيرة فان ، وأباد معظم الجيش البيزنطى حتى باتت آسيا الصغرى تحت رحمته فانتشرت جيوشه فيها الى قرب البسفور والدردنيل . ومن هذه الفتوح تأسست دولة السلاجقة الروم فيما بعد .

ورغم اتساع الدولة السلجوقية ،واستئثار سلاطينها بالسلطة الفعلية فى بغداد ظل أولئك السلاطين فى مدينة أصفهان . ولم ينتقلوا الى بغداد ويتخذوها عاصمة الا سنة ١٠٩١ م على عهد ملكشاه السلجوقى . وفى عهد هذا السلطان بلغت الدولة السلجوقية أقصى عظمتها ، فبنى ملكشاه المساجد ، وانشأ الخانات (الفنادق) على طرق القوافل لراحة المسافرين ، وعبد طريق الحجاج الى مكة وزوده بالحراس . وأمر ملكشاه بتجميل بغداد وتنظيمها ، فحرم تصريف المياه المتسربة من الحمامات العامة الى نهر دجلة ، وجعل لهذه المياه اماكن لتصريفها .

وساعد ملكشاه فى ادارة مملكته ، التى أضحت ممتدة من مدينة قشغر الى بيت المقدس ، وزيره الفارسى « نظام الملك » ، وهو من أعظم شخصيات التاريخ الاسلامى . وألف نظام الملك كتابا فى فن الحكم يعرف باسم « سياسة نامة » ، ورعى الشخصيات المشهورة فى العلوم والآداب ، فتمتع عمر

الخيام ، الشاعر الفارسي والفلكي الكبير بعطفه ، وتوج الوزير مجده بانشاء المجامع العلمية فى بغداد ، واشهرها المدرسة النظامية التى تم بناؤها سنة ١٠٦٧ م . ومن تلاميذ هذه المدرسة السعدى الشاعر الفارسى الكبير ، مؤلف بستان السعدى ، وعماد الدين الاصفهانى وبهاء الدين بن شداد ، وهما اللذان خدما صلاح الدين والدولة الايوبية فى مصر ، وعبد الله بن تومرت ، الذى أسس دولة الموحدين فى أفريقيا ، وأبو اسحق الشيرازى مؤلف كتاب المهذب والتنبيه ، وهو أول شيوخ النظامية . ومن تلاميذ النظامية كذلك أبو حامد الغزالى ؛ وهو الذى تولى كرسى الاستاذية بها مدة .

تفكك دولة السلاجقة :

غير أن عظمة الدولة السلجوقية استندت الى شخصية سلاطينها ، ولذا أخذت هذه الدولة فى التفكك بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ م وعدم قيام شخصية تقربه ، هذا فضلا عن حروب أبناء البيت السلجوقى . ومن ثم تطلع ابناء البيت السلجوقى الى الاستقلال بما يملكونه من ولايات أقليمية ، كأن الدولة ارث ينبغى تقسيمه أنصبة بين ابناء الاسرة . وغدت الدولة السلجوقية مضطربة الاحوال لكثرة الحروب الداخلية فحلت محلها دول الاتابكة بالعراق وفارس كما حلت دولة الاتراك العثمانيين محل سلاجقة الروم بآسيا الصغرى سنة ١٣٠٠ م .

الدولة الحمدانية

الحمدانيون فى الموصل والشام :

تتطلب معرفة أحوال هـذه الدولة رجوعا الى أيام الاتراك أصحاب وظيفة « أمير الامراء » فى بغـداد ، واستبداد أولئك الأمراء بالسلطة من دون الخليفة العباسى . ذلك أن بعض القبائل العربية التى سكنت بادية الشام ووادى الفرات استغلت ضعف الخلافة العباسية واستقلت بالمدن والقلاع الواقعة فى أرضها ، ومن أمثلة ذلك ماقامت به قبيلة تغلب ، اذ استطاعت بفضل أبناء زعيمها حمدان بن حمدون أن تؤسس دولة لها فى شمال العراق ، وان تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها (٣١٧ – ٣٥٨ هـ / ٩٢٩ – ٩٩١ م) .

وتعصبت هذه الدولة للعروبة ، وساءها استبداد الاتراك بالخلافة العباسية . فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمدانى الى بغداد ، ومعه اخوه ، لمناصرة الخليفة المتقى بالله (سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) . وكافأ الخليفة هـذا الزعيم الحمدانى بأن عينه فى وظيفة « أمير الامراء » ومنحه لقب ناصر الدولة . ثم منح الخليفة المتقى أخا ناصر الدولة الحمدانى كذلك لقب سيف الدولة . على أن الاتراك استطاعوا بزعامة قائدهم توزون أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وان يحملوهم على العودة الى الموصل سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ م .

وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد الى القيام بمغامرة حربية تزيد من شأن دولته بالموصل . فسار سنة ٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م الى شمال الشام واستولى على حلب ، واخرج منها حاكمها التابع للدولة الاخشيدية ، صاحبة السيادة اذ ذاك على مصر والشام . وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب ، على حين أصبح البويهيون وقتئذ أصحاب الامر في بغداد . وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة فى شمال الشام حتى سنة ١٠٠٣ م .

وخلقت الدولة الحمدانية فى حلب آثارا جليلة فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، وفى مجد المسلمين ، رغم قصر مدتها . ويعزى الفضل فى ذلك الى مؤسسها سيف الدولة الحمدانى ، فهو من أنصار العلم ، شغوف بعقد المجالس الادبية الزاخرة بالفلاسفة والشعراء . ولذا اجتذبت مجالس سيف الدولة من المشهورين فى تاريخ الحضارة الإسلامية أبو الطيب المتنبى الشاعر ، والمؤرخ العظيم للأدب والموسيقى أبو الفرج الاصفهانى ، صاحب كتاب الاغانى ، والخطيب الفصيح ابن نباتة الذى ألهبت عظاته حماسة مستمعيها الى الاشتراك فى الجهاد ضد الدولة البيزنطية ، وهذا فضلا عن الفارابى الفيلسوف المشهور .

علاقة الحمدانيين بالبيزنطيين :

واتسعت دولة الحمدانيين سواء فى الموصل أو فى حلب على طول منطقة الأطراف الاسلامية المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية


البحر الاسود
القسطنطينية
آسيا الصغرى
قبادوقيا
مرعش
قليقية
الرها
منبج
حلب
بغداد
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
مصر
حروب سيف الدولة الحمدانى
مع البيزنطيين

فى جنوب آسيا الصغرى . وتكونت منطقة الأطراف بين الحمدانيين والبيزنطيين من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية . وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة لمساعدة جيوشهم على الهجوم أو الدفاع . واشتهرت هذه السلسلة من الحصون منذ أيام الخليفة هارون الرشيد باسم اقليم العواصم والثغور .

وانقسم هذا الاقليم الى قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى واسمه ثغور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق ، والآخر فى الجنوب الغربى واسمه ثغور الشام . وظلت الاغارات سنويا بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه المنطقة الهامة ، فلما ضعفت الخلافة العباسية طمع أباطرة الدولة البيزنطية فى الاستيلاء على أقليم الثغور ، والهجوم منه على سائر أراضى المسلمين . ومن ثم غدا قيام الدولة الحمدانية فى شمال العراق والشام حاجزا صد هجمات البيزنطيين فى وقت أضحت الدولة الاسلامية فيه نهبا للفوضى والقلاقل الداخلية ، وليست لديها قوة حربية كافية .

وخلد سيف الدولة الحمدانى أسمه فى حروبه المتكررة ضد البيزنطيين والتصدى لاعمالهم العدائية على أرض المسلمين . فبدأ سيف اغاراته على آسيا الصغرى سنة ٩٤٧ م دون ان يهمل سنة واحدة فى تجهيز حملة حربية لذلك الغرض ، وبذا

استولى على كثير من الحصون البيزنطية مثل مرعش وغيرها من مدن الحدود. وعاصرت حركات سيف الدولة قيام أعظم أمبراطورين عسكريين عرفتهما الدولة البيزنطية ، وهما نقفور فوقاس وحنا شميشق . وبلغت الدولة البيزنطية على عهد هذين الأمبراطورين أقصى قوتها الحربية . ذلك أن نقفور فوقاس استطاع أن يستولى على حلب نفسها عاصمة سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦١ م . غير أن القوات البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية أيام بسبب المقاومة الحمدانية . أما الامبراطور حنا شميشق فاتجه الى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتوغل كثيرا فى أراضى الشام . ولكنه عاد سريعا من اغارته الخاطفة بفضل مقاومة الحمدانيين فى حلب ومقاومة الفاطميين فى سائر الشام . وتولى شئون الدولة الحمدانية اذ ذاك سعد الدولة بن سيف الدولة (٩٦٧ - ٩٩١ م) .

لكن الدولة الحمدانية دخلت بعد ذلك فى مرحلة أسيفة من النزاع الداخلى ، وانتهت هذه المرحلة بانهيار الدولة الحمدانية بعد أن قامت حارسة على أطراف الدولة الاسلامية فى وقت لم يدرك الخلفاء العباسيون فى بغداد قيمة الدفاع عنها . ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدانيين الى الخلافة الفاطمية القائمة فى مصر والشام وقتذاك ، على حين ظلت الخلافة العباسية غارقة فى الضعف والفوضى .

الاسلام فى الهنـــد

الفتوح الاســلامية فى الهنــد :

امتدت الفتوح الاسلامية الاولى فى الهنــد زمن الأمويين الى مدينة الملتان باقليم السند ، ثم توقفت بعــد ذلك حتى قيــام الخلافة العباسية ، ووصلت الحملات الاسلاميةعلى عهد الخليفة المأمون واخيه المعتصم الى منطقة كشمير .

فتوح محمود الغزنوى :

على أن المرحلة الهامة فى فتح الهند على عهد العباسيين قامت على أيدى الغزنويين ، الذين استقلوا بشئونهم عن الخلافة العباسية فى بغداد (من ٩٦٢ — ١١٨٦ م) ، واتخذ الغزنويون عاصمة لهم فى مدينــة غزنة ببلاد الافغـــان ، الواقعة على هضبة مرتفعــة مشرفة على السهول الشمالية للهند عن طريق ممر كابل .

واستغل محمود بن سبكتكين الغزنوى (٩٩٩ — ١٠٣٠ م) هذا الموقع الجغرافى لعاصمته وعمد الى توسيع رقعة دولته فى الهند . وخاض فى المدة مابين سنتى ٣٩٢ ، ٤١٥ هـ (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) غمار مالايقل عن سبع عشرة حملة على الهند ، وبذا تم الاستيلاء على سائر اقليم البنجاب ووطد نفوذ المسلمين فى أرض السند وبلاد كشمير .

واستهل محمود بن سبكتكين انتصاراته بهزيمة جيبال ملك البنجاب ، ثم قضى فيما بعد على حركات المقاومة التى اضطلع بها ابن الملك جيبال . وعاد محمود الغزنوى من غزواته محملا بالغنائم التى جلبها من المعابد الوثنية . ونال شهرة عالية حسده عليها المعاصرون له ، لنجاحه فى نشر الاسلام فى بقاع جديدة . فأطلق المعاصرون عليه لقب (الغازى) ، وغدا هذا الاسم بعده علما للقائمين بنشر الاسلام . وأصبح محمود الغزنوى مؤسس دولة واسعة ضمت رقعة كبيرة من أرض الهند ، ومهد لحكم المسلمين الفعلى فى تلك البلاد الجديدة . ويوافق هذا مدة قيام السلاجقة فى فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى .

غير أن بلاد الهند تعرضت بعد موت محمود بن سبكتكين لما تعرضت له سائر بلاد الدول الاسلامية المستندة الى شخصيات مؤسسيها . فنشأت دويلات اسلامية مستقلة بأرض الهند ، واقتسم هذه الدويلات خلفاء محمود الغزنوى . ولما زال سلطان الغزنويين نهائيا من شرق الافغان وذهبوا من غزنة سنة ١١٥٠م ، اتجهت أسرة محمود الغزنوى الى مدينة لاهور بالهند وجعلتها عاصمة للبقية الباقية من ممتلكاتهم .

وتطلعت الدولة الغورية التى خلفت الغزنويين فى بلاد الافغان الى بسط نفوذها على الهند ، فاستطاع ملوكها بعد سلسلة من الحروب أن يستولوا على ممتلكات الغزنويين سنة ٥٩٩ هـ /

١٢٠٢ م . لكن الهند دخلت بعد زوال سلطان الاسرة الغورية فى دور جديد من حياتها ، قوامه استقلال بعض الحكام المسلمين بشئونها ، واتخاذهم ألقاب ملوك الهند . ونال بعض أولئك الملوك وثائق تفويض بالحكم من الخليفة العباسى فى بغداد ، ومن أولئك شمس الدين آلتماش الذى حكم الهند مستقلا مدة بلغت خمسة وعشرين عاما (١٢١١ — ١٢٣٥ م) .

المغـــل

قيام دولة المغل بالهند :

وتعرضت الدول الاسلامية التى قامت بالهند لهجمات تام بها المغل ، الذين يختلفون كل الاختلاف عن المغول ودولتهم التى اسسها جنكيزخان وخلفاؤه فى جـوف آسـيا والصين وايران وشمالى بحر قزوين . ومؤسس دولة المغل بالهند هو بابر ظهير الدين حفيد ميران شاه بن تيمورلنك المشهور . وتولى بابر حكم فرغانة بعد وفاة أبيه سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م . ثم أخذ يعمل على توسيع رقعة بلاده فى الجهات المجاورة لدولته ، فاستولى على سمرقند سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٨ . ثم اضطر بابر ازاء هجمات أعدائه من المغول فى تلك الجهات الى ترك الدولة التى ورثها من أبيه . فعبر جبال هندكوش الى الهند ، تحدوه الآمال لتأسيس دولة هناك ، تعوضه عما فقده من سلطان ، وزحف بما تبقى له من قوات على اقليم البنجاب

سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م ، واستولى على لاهور ، وأنزل بالسلطان ابراهيم صاحب دلهى هزيمة فادحة ، ادت الى استيلاء بابر على دهلى نفسها واخضاع الاجزاء الشمالية من الهندستان لسلطانه

واتخذ بابر مدينة اجرا حاضرة لدولته ، واضطر الى محاربة زعماء الاقاليم المجاورة له ، وتوفى سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م قبل أن يخضع مملكتى البنجاب وجوجارات .

وتابع همايون بن بابر حروب والده ، فعمد الى اخضاع مملكة جوجارات غير أن ملك البنجاب حمله على التقهقر نحو الغرب حتى اضطر همايون الى الهرب الى السند ، والتجأ الى فارس .

واخذ همايون يستعيد سلطانه فى الهند ، فاستولى على دهلى سنة ١٥٥٥ م حيث توفى هناك فى يناير سنة ١٥٥٦ م . وترك هومايون لابنه «اكبار» البالغ من العمر وقتذاك اربعة عشر عاما اتمام استرداد ممتلكات أبيه فى الهند . وفى سنة ١٥٥٦ م استرد السلطان اكبار سيادته على معظم الهندستان ، وتابع بعد ذلك اخضاع المدن الكبرى حتى استولى على كشمير كلها سنة ١٥٨٧ م .

وعمد السلطان أكبار الى تأمين حدود بلاده من الجنوب فاستولى على اطراف هضبة الدكن سنة ١٦٠١ م ، دون ان يتوغل داخل هذا الاقليم . واتجه أكبار بعد ذلك الى اصلاح

دولته داخليـا ، واشتهر باصـلاحاته المالية ، ومال الى جمـاعة الهندوس ، وعاملهم معاملة طيبـة ، واهتم بدراسـة الفرق الاسلامية ونظرياتها ، ولكن سرعان ماسئم جـدلها وانصرف الى ترجمةبعض الكتب الهندوسية المقدسة .

وبلغت دولة المغل الاسلامية فى الهند أوج عظمتها على عهـد جهان كير وشاه جهان ، فازدهرت بها فنون البناء والمعمار ، وآية ذلك القصر المعروف باسم تاج محل ، والمسجد الكبير فى مدينة اجرا ، فضلا عن القصور المرمرية فى دلهى . وفى سنة ١٦١٥ م أرسل جيمس الاول ملك انجلترا سـير توماس راو الى بلاط السلطان جهان كير ليطلب منح انجلترا حقوقا تجارية فى الهند ، فاعتذر جهان كير وقتذاك خوفا من سـيطرة الهولنديين عـلى البحار فى المحيط الهندى . ثم حـدث بعـد ذلك ان استجاب جهان كير لالحاح الانجليز ، بعد أن شـهد بنفسه صعوبة منـع السفن الانجليزية عن سواحل الهند للتجارة والاستعمار ، وهذا هو بداية دخول شركة الهند الشرقية الانجليزية فى ميـدان التجارة بالهند والشرق الاقصى ، بعد ان حصلت من حكومتهـا على امتياز بذلك .

وظلت رقعة دولة المغل تنمو وتتسع على عهد سلاطينها حتى ايام أورنجزيب (١٦٥٩ — ١٧٠٧ م)اذ اتجهت أنظار هذا السلطان الى هضبة الدكن، فقام بعددمن الحملات وأحرز انتصارات باهرة على أمرائها المسلمين ، لكنه رغما عن هذه الانتصارات ظلت معاقل

الدكن وجبالها الداخلية مستعصية على اورنجزيب. على ان دولة المغل بلغت عند وفاة أورنجزيب أقصى اتساعها اذ امتــدت من كابل الى مصبات نهر الكنج ، ومن سورات عبر حيدر اباد الى مدراس ، وبدت الهند جميعها عدا راس هضبة الدكن خاضعة اسميا للمغل.

ثم بدات دولة المغــل فى الانحلال بعد وفاة اورنجزيب ، اذ خلفه سلسلة من الاباطرة الضعاف الفاسدين . وثارت القوى الخاضعة للمغل واعلنت عليهم العصيان ، مثل الراجبوتيــين ، وابت الاعتراف بسلطانهم . واستقلت هذه القوى بالبــلاد التــابعة لهــا ، ومهـــدت الاحـوال فى مقـــاطعات كلكتا وبومباى ومدراس لاستقرار النفوذ الاوربى الذى مثلت طلائعه هناك شركة الهند « الانجليزية » . وفى سنة ١٧٥٧ م . وقعت وقعة بلاسى ، وكذلك وقعة بوكسار سنة ١٧٦٤ م ، اللتان وضعتا حدا لشبح سلطنة المغل ، وباتت هذه السلطنة ظلا لا قيمة له . وخضع اخر السلاطين الثلاثة فى دولة المغل لنفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية ، ونالوا منها العطاءات والاموال . وتوفى اخر اؤلئك السلاطين وهو بهادر الثانى فى المنفى سنة ١٨٦٢ م ، بعد ان فقد عرشه فى ثورة اشعلها ضد المستعمرين البريطانيين .

الفصل الرابع

العـــالم الاسلامى بين الصليبيين والمغول

أهميـــة العالم الاسلامى

الموقـــع :

يتضح مما تقدم هنا بشأن الدولة السلجوقية الكبرى أن قيام هذه الدولة فى القرن الحادى عشر الميلادى أعاد الى المسلمين بعض الهيبة التى بددتها مظاهر الضعف فى الخلافة العباسية . وبفضل السـلاطين السلاجقة غـدت دار الاسلام - وهو ماجرى عليـه المصطلح عند الفقهاء فى تسمية الدولة الاسلامية - قبلة أنظـار العالم مرة أخرى . فالناظر الى خريطة العالم الاسلامى على عهد السلطان السلجوقى ملكشاه (٤٦٦ - ٤٨٥ هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) يرى ارتباط أواسط آسيا حتى تركستان مع الجزء الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وانفراد هذه الرقعة الجغرافيـة بعودة الروح الاسلامية الاولى سواء من ناحية التوسع الحربى ، أو من ناحية النشاط العلمى .

وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربا دولة الخـلافة الفاطمية الشيعية ، التى سيطرت على جهات من العالم الاسلامى

لا تقل أهمية عن ممتلكات السلاجقة . فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام حيث يلتقى أعظم بحرين فى العالم القديم ، وهما البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . وعلى الرغم من العداء الذى استحكم بين السلاجقة والفاطميين لاختلافهما حول المذهب السنى والشيعى ، لم تستطع احدى الدولتين أن تقضى على جارتها مع كثرة الحروب بينهما ، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة فى العالم الاسلامى ، فضلا عن الدولة الاموية بالاندلس ، وهى دولة عظيمة الهيبة والمدنية فى الجزء الجنوبى الغربى من أوربا . وهكذا بدا العالم الاسلامى فى نظر العالم الاوروبى المسيحى على الاقل ، يقبض بطرفيه على أوروبا من الشرق والغرب .

أما اهم دول أوروبا وقتذاك ، فأولهما الامبراطورية الغربية الالمانية ، التى اشتملت على المانيا الحالية وايطاليا واجزاء من بلجيكا وهولندة والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وأمبراطورها وقتذاك هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦ م) . وقامت فى فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من اسرة هيوكابيه ، التى اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨) . وفى انجلترا اسس النورمانيون مملكة قوية تولى عرشها اذ ذاك الملك وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م) . وفى اسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار

وارجونة وقشتالة ، وهى الممالك التى نهضت لحرب المسلمين بالاندلس أجيالا عديدة .

وفى اقصى الشرق الاوربى قامت الدولة البيزنطية ، التى هزم السلاجقة امبراطورها رومانوس ديوجينيس فى وقعة منزكرت سنة ١٠٧١ م. وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الوقعة الفاصلة الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) . وهو الذى ارسل استغاثة للبابا جريجورى السابع لصد الزحف السلجوقى ، وعبأ الشعور فى غرب أوروبا للحروب الصليبية .

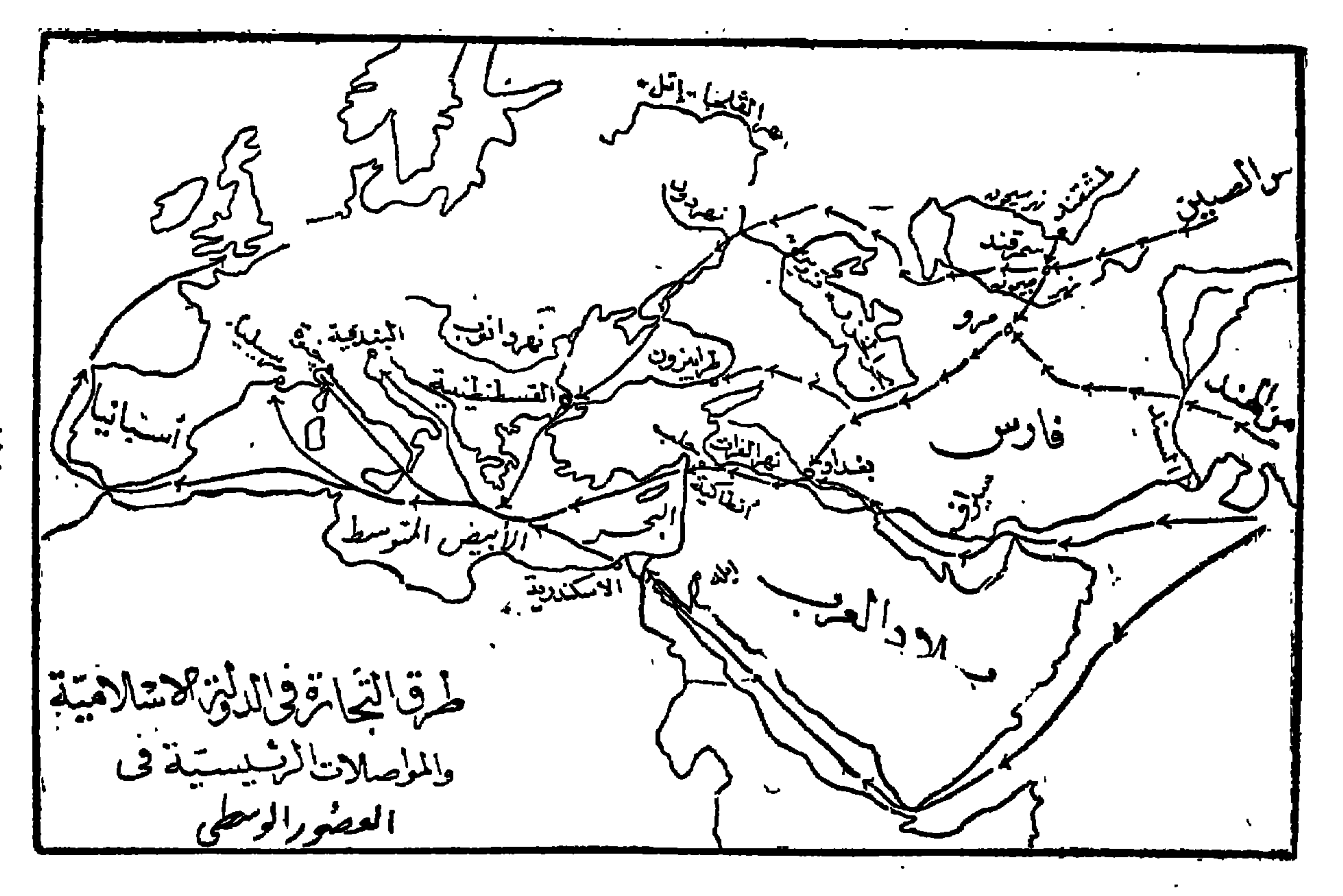
طرق التجارة :

ومما زاد فى هيبة العالم الاسلامى وقتذاك سيطرة المسلمين على الميزان التجارى بين الشرق والغرب ، اذ كفل الموقع الجغرافى للمسلمين اشرافا على حركة التبادل التجارى الدولى رغم تعدد القوى السياسية التى تولت أمورهم . ذلك أن التيار التجارى الرئيسى فى العالم تدفق فى العصور الوسطى من الشرق الاقصى والهند الى البحر الابيض المتوسط ، حيث هيمنت مصر والشام وآسيا الصغرى وايطاليا على جميع الطرق التجارية ، وأجاد التجار المسلمون معرفة المسالك البرية والبحرية الآتية من هذه البلاد ، وظهرت الكتب الواصفة للمحطات والمدن الهامة القائمة عبر هذه الطرق ، واتخذت هذه التجارة الشرقية أربعة طرق رئيسية للوصول الى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط (انظر

الخريطة ص ٢٤٣) . وجاء أحد هذه الطرق من شرق آسيا مارا بتركستان ثم بحر قزوين (بحر الخزر) حيث تفرع الى فرعين ؛ اتجه أولهما شمالا الى نهر الفلجا (نهر اتل) ، ومنه الى البحر الاسود ، ثم انتهى الى القسطنطينية ، أما الفرع الاخر فسار جنوبا ، مخترقا شمال فارس ، ومر بأرمنية الى طرابيزون على البحر الاسود ومن هذين الفرعين انتقلت التجارة من موانى البحر الاسود عبرالبسفور والدردنيل الىالبحر الابيضالمتوسط .

اما الطريق الثانى فجاء كذلكمن آسيا، مارابالهند وأفغانستان واواسط فارس الى بغداد ونصيبين ودمشق . وبدأ الطريق الثالث من الخليج الفارسى ، ثم اتبع طريق الفرات ، حيث تشعب شعبتين ، اخترقت أحدهما سوريا والاخرى آسيا الصغرى . أما الطريق الرابع والاخير ، فكان بحريا من أوله الى آخره ، اى من الخليج الفارسى فى ايران الى البحر الاحمر فى مصر .

واشرف المسلمون على هذه الطرق الواقعة كلها فى أرضهم ، عدا أجزاء من الطريق الاول . وغدت هذه الطرق متصلة ميسورة سواء فى غرب آسيا أو مصر وشمال افريقية ، اذ اهتم السلطان السلجوقى ملكشاه بتعبيد الطرق وتأمينها ، واقامة الفنادق لراحة المسافرين فيها ، كما اهتمت الدولة الفاطمية بمختلف الطرق المؤدية الى مصر ، حتى أصبح التاجر يستطيع الانتقال من أطراف الصين الى الشام دون حراسة بفضل نفوذ السلاطين المسلمين وسطوتهم .


طرق التجارة فى الدولة الإسلامية
والمواصلات الرئيسية فى
العصور الوسطى
من الصين
سمرقند
مرو
من الهند
فارس
سيراف
بغداد
نهر الفرات
أنطاكية
طرابزون
القسطنطينية
نهر الدانوب
البندقية
أسبانيا
البحر
الأبيض المتوسط
الإسكندرية
أيلة
بلاد العرب

وجاءت السفن الأوربية الى موانى المسلمين بشواطىء البحر الابيض المتوسط — أى الاسكندرية ودمياط وطرابلس الشام — للحصول على منتجات الشرق الاقصى وغيرها مما تحتاج اليه من منتجات البلاد الاسلامية . وقامت الامبراطورية البيزنطية بدور العميل الاول مع الدولة الاسلامية ، تستورد منها المتاجر وتتولى تصريفها الى سائر بلدان أوروبا الغربية ، وتحمل من منتجات أوروبا الى المسلمين وتتـذاك كميات كبيرة من الفراء والعسل والجلود والاسلحة . وحرصت الامبراطورية البيزنطية على استمرار سيطرتها التجارية على دول غرب أوروبا باحتكار الصناعات المعتمدة على الواردات الشرقية ، مثل صناعة الحرير وصقل الجوهرات والنقش على العاج . وأشرف التجار اليهود على ما تبقى بعد ذلك من تجارة دول أوروبا الغربية سواء مع المسلمين أو البيزنطيين . فذكر أحد الجغرافيين المسلمين ، وهو ابن حرداذبة ان التجار اليهود جاءوا من اقليم بروفانس فى بلاد الفرنجة (فرنسا) ، ومعهم الجوارى والغلمان والفراء والسيوف وسافروا بها بحرا الى الفرما فى مصر ثم نقلوها على ظهور الدواب الى القلزم (السويس) ، ومن هناك استأنفوا رحلتهم بحرا الى السند والهند والصين . وعاد أولئك التجار بمنتجات الشرق الاقصى الى الفرما مرة أخرى ، ومنها ركبوا البحر الى بلاد الفرنجة أو الى القسطنطينية .

ثم تطورت وسائل اتصال أوربا بالبلاد الاسلامية والشرق

الاقصى منذ بداية القرن العاشر الميلادى ، أى منــذ أخذت المدن الايطالية التــابعة اسميا للدولة البيزنطيــة ، تسعى للاستقلال بشئونها التجارية ، وتعمل للاتصال مباشرة بالدول الاسلامية . ولم يأت القرن الحادى عشر حتى تخلصت المدن الايطالية تماما من سيطرة البيزنطيين على تجــارة الشرق ، وحلت هــذه المدن ولا سيما البندقية محل القسطنطينية فى المركز الرئيسى للتبادل التجارى مع العالم الاسلامى . وساعد هذا الانقلاب التجارى فى بلاد أوروبا على توسيع الحروب الصليبية المعروفة واطالتها ، لان الاطمــاع التجارية التى استولت عــلى مدن أوروبا اختلطت بالحماسة الدينية التى أشعلت هذه الحروب الصليبية ، لتخليص الاراضى المسيحية المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين .

الاماكن المقدسة :

واصل هذه الحروب الصليبية أنه منذ استولى المسلمون على فلسطين ، فى عهد الخليفة عمــر بن الخطاب ، أشرفت الخــلافة الاسلامية على الاماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل . وأثارت هــذه السيادة الاســلامية غضب الحجاج الاوروبيين ، منذ كثرت اعــداد الوافدين منهم على بيت المقدس . على أن الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدولة الاسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى فى أوروبا مثل دولة الفرنجة الكارولنجية إذ حرصت هذه الدولة على تدعيم صلاتها بالاماكن المقدسة ، لتستمد

منها مركز الزعامة فى العالم المسيحى . فبعث شرلمان امبراطور الفرنجة (٨٠٠ م) ، ومنافس الامبراطورية البيزنطية ، سفارة الى الخليفة العباسى هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس . وأرسل هارون الرشيد سفارة اسلامية الى شرلمان ، وبعث معها مفاتيح كنيسة بيت المقدس ، مفضلا اياه على قسطنطين السادس امبراطور البيزنطيين واصبح شرلمان فى نظر المعاصرين حامى المسيحيين الذاهبين الى الأماكن المقدسة .

ولقيت الأماكن المقدسة وحجاجها الوافدون اليها من المسيحيين عناية كبيرة من السلطات الاسلامية الممثلة للخلافة العباسية . ولما استولى الفاطميون الشيعيون على اقليم الشام سنة ٦٩٦م حفظوا سياسة الخلافة العباسية فى العناية بأماكن الحج المسيحية وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة وأظلهم السلاجقة كذلك بالعناية بعد امتداد الدولة السلجوقية على بلاد الشام سنة ١٠٧١ م واستيلائها على بلاد المقدس . لكن تفكك الدولة السلجوقية وكثرة حروبها الداخلية ، وقلة الامن فيها بسبب هذه الحروب ، حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم . فعادوا الى بلادهم ووصفوا المتاعب التى يلقونها فى كثير من المبالغة ، ونادوا بتخليص الاراضى المقدسة من المسلمين . وغدت الروايات المختلفة عاملا من العوامل التى أثارت الناس فى أوروبا نحو الحروب الصليبية .

الحروب الصليبية

الدعوة اليها فى أوربا

الـــكنيسة :

منذ صارت بيت المقدس فى أيلاى السلاجقة ، أحست أوروبا المسيحية بأن الاماكن المقدســة انتقلت الى يد دولة اســلامية عسكرية صارمة . وفى أثناء تفكك الدولة السلجوقية وحروبهـا وسوء معاملة الحجاج بعد ذلك أخذت بعض السلطات الاوروبية ، ومنها البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٦ م) تروج أخبار هذه المعاملة السيئة . ووصلت بعض هذه الاخبار من ناحيـــة الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣ م اذ استغاث بالبابا ، لصد تيار السلاجقة الذى تدفق على آسيا الصغرى بعد انتصارهم فى وقعة منزكرت .

ورأى البابا فى هذه الاخبار وســيلة لاعلاء شأن الكنيسة ، واعادة وحدتهــا بين الشرق والغرب ، لأن الكنيسة الشرقيــة فى القسطنطينية انفصلت عن كنيسة روما منذ ثمانيـــة عشر عاما قبل وقعة منزكرت . وشجعه على مشروع اعادة هذه الوحدة بين الكنائس المسيحية أن بعض البطـارقة البيزنطيين نادى بأن للكرسى البابوى فى روما مركز الصدارة ، وأن البابا هو الحـكم والفيصل فيما ينشب بين الكنائس المسيحية من خـلاف ، مـع أنهم لا يرضون بمـــا ادعته روما لنفسها من الســيادة عليهم

والسلطان المطلق . لذا بدا الطريق ممهدا لتأكيد الزعامة التى فقدتها البابوية بسبب الانفصال السابق عندما استغاث الامبراطور البيزنطى بالبابا جريجورى السابع .

غير أن البابا جريجورى السابع نادى وقتذاك بنظرية السمو البابوى ، اذ رأى أن الكنيسة هى القوة العليا ، يستمد منهـا الاباطرة والملوك وسائر الحكام السلطة والنفوذ . وفكر فى الدعوة الى اعداد حملة صليبية من دول غرب أوروبا لتحقيق مآرب شتى ، وهى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، واعادة البيزنطيين الى ممتلكاتهم بها مقابل عودة الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية . لكن السمو البابوى أدى الى وقوع خلاف شديد بين البابا جريجورى وامبراطور ألمانيا هنرى الرابع ، ونشبت بينهما مشكلة التقليد العلمانى (١) حول تمسك كل منهما بحق تقليد الأساقفة لوظائف الاسقفية . فقامت بينهما حروب ، ذهبت فى أثنائها استغاثة الدولة البيزنطية هباء .

على أن صيحات الحجاج المسيحيين أيقظت الشعور فى غرب

---

(١) العلمانى نسبة الى العلم ، والمقصود بذلك موظفو الدولة من غير رجال الدين . أما سبب مشكلة التقليد العلمانى فهو استخدام امبراطور المانيا للاساقفة فى وظائف الدولة ، فأراد البابا أن يكون تقليد الاساقفة مسألة دينية لانهم تابعون له ، على حين أراد الامبراطور ان يكون تقليدهم لمناصبهم الدينية من قبله باعتبار انهم يتولون وظائفهم فى دولته .

أوروبا لمحاربة المسلمين . وجدد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م الاستغاثة مرة أخرى بالبابا اربان الثانى ، بعد أن وضح له ان الامبراطورية لاتستطيع أن تعيش بدون أقاليم آسيا الصغرى التى باتت فى أيدى السلاجقة ، فمن تلك الاقاليم الاسيوية جندت الامبراطورية خيرة جنودها ، فضلا عن أن سواحلها زودت الاسطول البيزنطى بعدد كبير من السفن والبحارة . ونجح أربان الثانى فيما عجز جريجورى السابع عن تحقيقه ، اذ اختمرت فى رأسه وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م - لتسوية بعض المسائل الخاصة بالملكية الفرنسية - ان يدعو لاعداد حملة تستهدف طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الاراضى المقدسة كذلك من أيدى المسلمين . واستطاعت البابوية بذلك أن تصبح القوة الاولى ، والعامل الفعال ، الذى حول استغاثة الامبراطور البيزنطى لحماية الدولة البيزنطية فقط ، الى حرب صليبية عامة مقدسة .

الاقطاع :

ولبى الأمراء الاوربيون دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ؛ واصحاب الاقطاعات الكثيرة من الارض والنفوذ السياسى الكبير . ويرجع نفوذ هؤلاء الامراء الى ماهو معروف فى غرب أوربا بالنظام الاقطاعى ، الذى جعل المجتمع الاوربى ثلاث طبقات وهى طبقة رجال الدين ؛ وطبقة المحاربين ؛ وطبقة الفلاحين . فرجال الدين هم المشرفون على الكنيسة والعبادة

والمحافظة على الدين ، والمحاربون وظيفتهم الحرب وما تستلزمه من اقتناء الجيوش والصرف عليها واعدادها للقتال ، والفلاحون هم الذين يعملون فى أرض أصحاب الاقطاع من الأمراء واتباعهم من الفرسان .

وسرى اسم الفرسان على طبقة المحاربين عموما لاعتمادهم فى ذلك العصر على الخيل فى القتال ، ولبس الفارس الزرود الثقيلة والخوذات ، وغيرها من الملابس المصنوعة من الحديد . ولا يدخل الواحد فى طبقة الفروسية الا بعد اجتياز شعائر خاصة تتولاها الكنيسة والسيد الاقطاعى الذى سوف يصبح الفارس من أتباعه . فالشخص الذى يتم تدريبه الحربى ويصبح مرشحا للفروسية ، يحضر حفلا تحت اشراف الكنيسة للاعتراف بأهليته للالتحاق بطبقة الفرسان ، وقبل الحفل يغتسل المرشح بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليلته بالصلاة ، حتى اذا أقبل الصبح قصد الى الكنيسة حيث يعترف بما سلف من ذنوبه وخطاياه ، ويتلو عليه القس واجبات طبقته ، وأهمها الدفاع عن الدين ، وايواء الارمل واليتيم فضلا عن الخدمة العسكرية فى حروب السيد الاقطاعى ، ولو جاءت هذه الحروب ضد ملك البلاد . وبذلك يصبح الفارس جنديا من جنود الله . والفرسان الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية ضد المسلمين من هذه الطبقة الاقطاعية المحاربة .

واذ انتشرت الحروب الاقليمية بين السادة الاقطاعيين وملوكهم فى غرب أوربا ، فان الكنيسة رأت فى الدعوة الى

الحروب الصليبية وسيلة لصرف هـــذه الطبقة وأتباعهـا من الفرسان عن الشحناء الى خدمة الدين . ورأى أصحاب الاطماع الواسعة من السادة الاقطاعيين وفرسانهم فى نداء الكنيسة فرصة للذهاب الى الشرق ووسيـلة لتأسيس امارات أو اقطاعات لهـم هناك ، والتخلص بذلك من المتاعب الاقتصادية التى نتجت عن المزاحمة الاقطاعية فى مختلف الممالك الاوربية . وذهب مع أولئك السادة وفرسانهم الى الحروب الصليبية كثير من الناس فرارا من البؤس والفقر ، أو حبا فى خدمة المسيحية .

الامارات البحرية الايطالية :

ولقى الصليبيون من المدن البحرية الايطالية مساعدة كبيرة فى تموينهم وحملهم على ظهور السفن الى الشام . ولم تستهدف مدن ايطاليا ان تخدم الدين فحسب ، بل أسهمت فى اعـــداد الحملات الصليبية لتحقيق أغراضها التجارية كذلك ، مثلما تجلى فى مطامع البندقية وجنوة وبيزا وأمالفى . ثم اشتدت المنافسة بين المدن الايطالية ابان الحروب الصليبية ، اذ جهدت كل منها فى توسيع سلطانها وتدعيم نفوذها التجـــارى فى بلاد الشرق الاسلامى والمسيحى ، واستطاعت البندقية بفضـل موقعهـا الجغرافى على رأس البحر الادرياتى أن تتوغل تجارتها فى قارة أوربا ، وبذا اجتذبت اليها متاجر البلاد المحيطة بها . وسـارت أساطيل البندقية الى مصر والشام ، واستبدلت بمنتجـات أوربا حاصلات الشرق من التوابل والعطـور وغيرها . ويرجع

هذا النشاط التجارى فى البنـــدقية الى ماقبـــل زمن الحروب الصليبيـــة ، ومن دلائل ذلك معـــاهدة الامبراطور البيزنطى الكسيوس الاول مع البندقية سنة ١٠٨٢ م على منـح التجـار البنادقة حرية التنقل للتجارة بين انحاء امبراطوريته دون دفع جمارك أو مكوس ، مقابل مساعدة البندقية للامبراطوريةفى حربها ضد النورمانيين ــ حكام جنوب ايطالياو قتذاك . أمازمن الحروب الصليبية فعملت البندقيـــة وكذلك جنوة وبيزا وأمالفى على الاتصال مباشرة بالشرق الاســـلامى ومتـاجره . ولذا قدمت اساطيلها لمساعدة الجيوش الصيلبية فى استيلائها على مـــدن الشام ، ونقل الحجاج مقابل الحصول على امتيازات تجـــارية فى الامارات الصليبية فى الشام . وأصبح لكل من هذه المدنأجزاء خاصة بتجارتها فى مختلف المدن والموانى الشاميـــة ، وبذا غـــدا العامل التجارى سببا من الاسباب الكبيرة التى ادت الى استمرار الحروب الصليبية .

تكوين الامارات اللاتينية فى الشرق

أما الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الاوربيـــة لتخليص الاراضى المقدسة بالشام ، فجعلوا مدينة القسطنطينية نقطة لالتقاء جيوشهم قبل العبور الى آسيا الصغرى والشام .

وقبل وصول هذه الجيوش الصليبية اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦ م أعداد شتى من الرجال والنساء فى غير نظام أو خبرة بالقتال ، وعبرت الى الشاطىء الاسيوى بزعامة رجل اسمه

بطرس الناسك ، فباد معظم أولئك الناس ، ماعدا بطرس نفسه ، على أيدى السلاجقة المسلمين . ثم وصلت الجيوش الصليبية الى القسطينية سنة ١٠٩٧ م بقيادة زعمائها ، وهم جودفرى دى بويون دوق لورين ، واخيه بلدوين ، وروبرت كونت فلاندرز ، وريموند التولوزى ، وبوهمند النورمانى . فاخذ الامبراطور الكسيوس كومنين على أمرائها قسما تعهدوا فيه بأن يسلموا اليه البلاد البيزنطية التى يستردونها من السلاجقة فى آسيا الصغرى وبذا سهل لهم عبور البوسفور فى مايو سنة ١٠٩٧ م ، بعد أن أمدهم بالمؤنة والعتاد والمعلومات الجغرافية اللازمة . وعجل الامبراطور باقصاء جيوش الصليبيين عن القسطنطينية ، بسبب عبثهم بالمدينة ، فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية فى البلقان قبل وصولهم الى القسطنطينية .

وبدأ الزحف الصليبى على آسيا الصغرى والشام فى وقت ليست فيه قوة اسلامية تستطيع الوقوف فى وجه الجيوش الصليبية ، فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢ م دويلات متناثرة لارابطة بينها سوى الحروب المستمرة . ففى دولة السلاجقة الروم — أى آسيا الصغرى — حكم السلطان قلج أرسلان الصغير السن ، وهو أول من لقى ضربات الصليبيين سنة ١٠٩٧ م . وفى الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ واسع ، بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من الاتابكة المتنازعين ، وهم الموظفون الذين قاموا على تربية ابناء

السلاطين وتعينوا الى جانبهم فى ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صار اولئك الاتابكة اصحاب الدويلات فى مدن الشام والعراق .

اما الخلافة العباسية فى بغداد فلم يكن لهـــا حول ولا قوة ، وضاعت صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسى المستظهر بالله (١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ) . وكذلك لم يكن باستطاعة الخلافة الفاطمية وهى صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنـــوب الشام ، أن تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . اذ عاش الخليفـة الفاطمى بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العســكرية وتنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين . ومن الواضـح ان هذه العوامل الكثيرة سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين كما سهلت عليهم تأسيس امارات صليبية .

امارة الرها :

وعندما أخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى الى الشام ، تفرعت عنها فرقة بقيادة بلدوين واغارت على مدينـــة الرها . وفى أوائل سنة ١٠٩٨ م احتل بلدوين هذه المدينة الهامة واسس بها أول امارة لاتينية ـ اى صليبية ـ فى الشرق . وتولى بلدوين شئون هذه الامارة التى ظل بها مدة ، على حين استمرت الجيوش الصليبية فى زحفها الرئيسى على الشام .

امارة أنطاكية :

ثم حاصر الصليبيون مدينة أنطاكية فى شمال الشام واستطاع

بوهيموند النورمانى فى يونيو سنة ١٠٩٨ م أن يقتحم هـذه المدينة العظيمة بسبب خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن ، اذ أدلى الحبال ليلا من أعلى الاسوار ، وسهل للصليبيين دخولها بعد حصارها الطويل . وتولى بوهيموند النورمانى تأسيس الامارة اللاتينية الصليبية الثانية فى هذه المدينة ، وسارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبا الى بيت المقدس « أورشليم » بقيادة جود فرى دى بويون .

الاستيلاء على بيت المقدس :

ومن انطاكية سار جودفرى لتحقيق الهدف الاول للصليبيين وهو الاستيلاء على بيت المقدس . فوجد مدينة الرملة الواقعة فى طريقه خالية من الجند الفاطمى . فاستمر فى زحفه حتى بلغ أبواب بيت المقدس (أورشليم) ، (وفى يونيو سنة ١٠٩٩ م) . وسارت جموع الصليبيين حفاة الاقدام حول أسوار المدينة ، امعانا فى اظهار ألتقوى ، ونفخوا الابواق لايقاع الرعب فى الحامية الفاطمية المصرية المرابطة بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس ، بعد أن وعدوا أهلها بالامان وحفظ الارواح . ولكنهم نكثوا بوعودهم وأنزلوا بسكانها مذبحة كبرى ، دون رعاية لعهد الأمان .

ولم يرض رجال الدين من الصليبيين أن تقوم فى بيت المقدس مملكة ، وهى البلد الذى قام فيه المسيح داعيا الى الابتعاد عن

زخرف الحياة ، فاستقر الرأى على أن يكون جـودفرى رئيسـا وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، لا ملكا فى الدولة الصليبية هنـاك .

مملكة بيت المقدس :

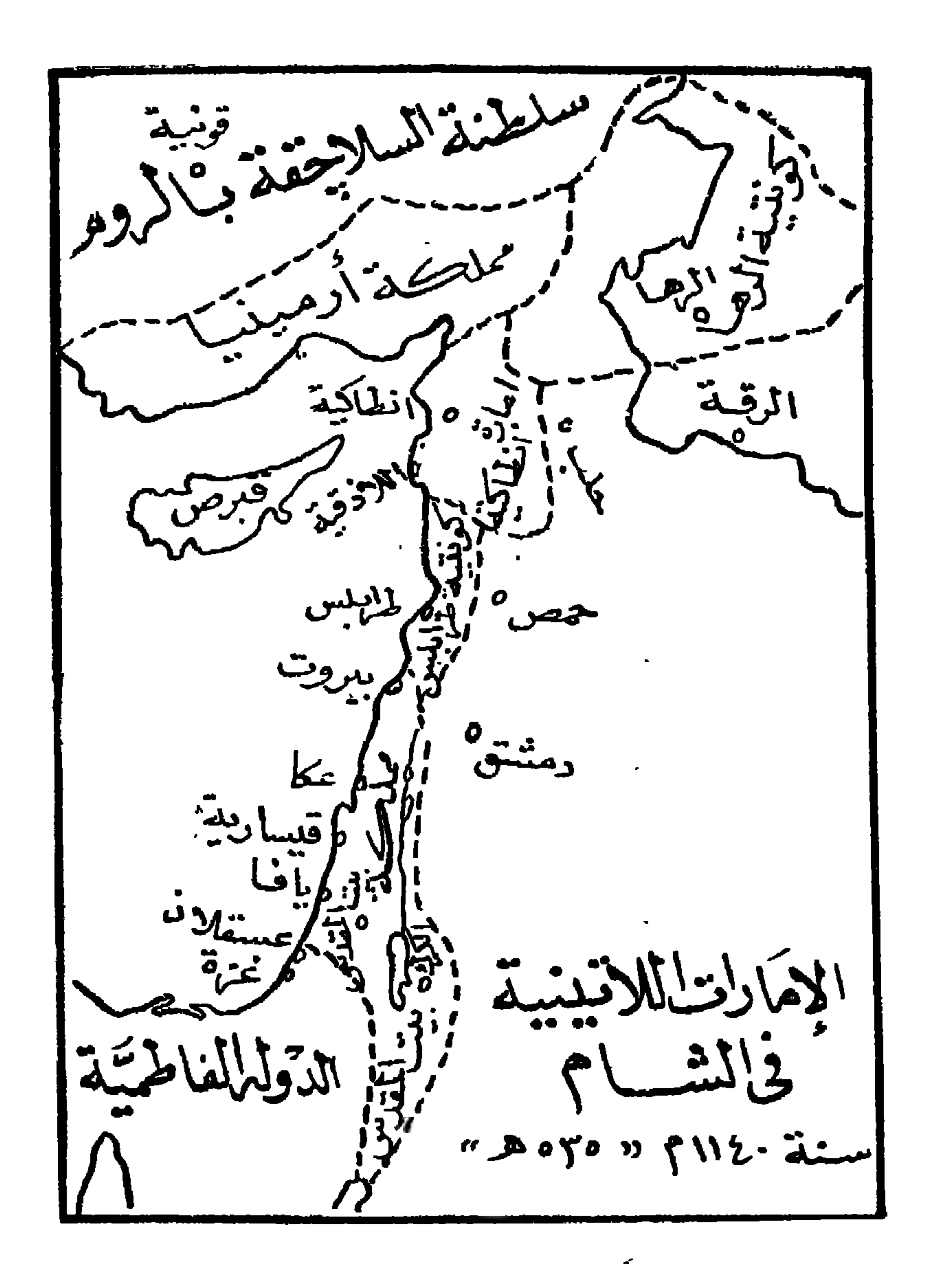
ولما مات جودفرى جاء أخوه بلدوين أمير الرهـا ، ونودى به ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد ، فى سنة ١١٠٠ م ، بعد ان تغير موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية ، ولذا فالملك بولدوين الأول هو المؤسس الحقيقى لملـكة بيت المقدس . وبدأ بولدوين عهده باخضاع المدن الساحلية ليضمن مواصلاته مع أوروبا ويمنع سفن الاسطول الفاطمى من استخدام هـذه الموانى . ولقى بلدوين ، كما لقى أخوه جودفرى قبله ، مساعدات كبيرة من المدن الايطالية البحرية ، مثل بيزا وجنـوة والبندقية . فاستولى بمساعدة أسطول جنوة على ارسـوف وقيصرية الشام سنة ١١٠١ م ، على حين سقطت فى يده عكا المنيعة بعد ذلك بثلاثة أعوام ، بفضل مساعدة أساطيل البندقية وجنوة . ثم استطاع بلدوين أن يحاصر بيروت برا وبحرا سنة ١١١٠ م ، وبعد حصار دام أحد عشر أسبوعا دخل بلدوين هذه المدينة وذبح كثيرا من أهلها .

ووسع بلدوين مملكته جنوبا للحصول على ميناء على البحر الاحمر ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند . فبنى

الى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥ م حصن الشوبك ، ليتحكم أولا فى طريق القوافل من دمشق الى مصر والحجاز . ثم حاول بلدوين غزو مصر أكثر من مرة ، أولا عن طريق الطور ، وثانيا عن طريق العريش . ومات سنة ١١١٨ م أثناء محاولته الثانية داخل الاراضى المصرية ، قرب مكان لا يزال يحمل اسمه محرفا حتى العصر الحاضر ، وهو سنحة البردويل ، على البحر الابيض المتوسط شرقى بور سعيد الحالية . وبلغت مملكة بيت المقدس زمن بلدوين أقصى اتساعها الجغرافى فامتدت من العقبة على البحر الميت الى بيروت على نهر العاصى .

امارة طرابلس :

بينما تتحول أمارة بيت المقدس الى مملكة بقيام بلدوين حاكما ، تأسست دولة لاتينية رابعة فى طرابلس الشام ، بالاضافة الى الرها وأنطاكية وبيت المقدس . وتطلع الى ذلك المشروع الكونت ريموند التولوزى . وبدأ هذا القائد حصار طرابلس سنة ١١٠١ م ، وعزلها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بها بأن بنى حصنا على تل مجاور لها . وطال الحصار على هذه المدينة . وفى أثناء هذا الحصار الطويل استعان ريموند بأسطول مكون من أربعين سفينة من جنوا ، واستولى على ثغر جبيل سنة ١١٠٤ م جنوبى طرابلس غير أن ريموند مات سنة ١١٠٥ م ، قبل أن يحقق غرضه ، ولم تسقط طرابلس الا سنة ١١٠٩ م فى يد ابنه . وصارت أمارات طرابلس الرها وأنطاكية تابعة اسميا لمملكة بيت المقدس .


سلطنة السلاجقة بالروم
قونية
مملكة أرمينيا
الرقة
الرها
أنطاكية
قبرص
اللاذقية
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
قيسارية
يافا
عسقلان
غزة
الدولة الفاطمية
الإمارات اللاتينية في الشام
سنة ١١٤٠م «٥٣٥ هـ»

ادارة مملكة بيت المقدس والامارات اللاتينية الصليبية :

جاء الصليبيون من غـرب أوروبا الى الشـام بنظم اقطاعيـة أوروبيـة ، فطبقوا هـذه النظم ما استطاعوا على الممتلكات التى صارت فى أيديهم . ولم تتجاوز مساحة هذه الممتلكات جميعـا الجزء الشمالى من الشام والسهل الساحلى الضيق ، ومن خلفها امتداد شاسع من الاراضى الاسلامية . ولم يفصل هذه الامارات اللاتينية عن أى بلد من بلاد المسلمين اكثر من مسيرة يوم واحد على ظهور الخيل . ولذا أدخل الصليبيون فى ممتلكاتهم النظـام الاقطاعى الاوروبى . فمنحوا اتباعهم اراضى واقطـاعات تحولت بالتدريج الى ملكيـة دائمة . ولم تلبث المسـاوىء الاقطاعية أن انتشرت فى الامارات الجديدة ، فكثرت المنازعات المحلية والمشاكل الداخلية بين الصليبيين أنفسهم بالشـام ، وتحالف بعضهم مع المسلمين من جيرانهم ضد المنافسين لهم من الصليبيين . وزاد هـذه المشاكل خطـورة اشتداد الخـلاف أحيـانا بين الزعماء الصليبيين حول ولاية الحكم ، وانقسامهم أحزابا تحـارب بعضها بعضـا .

الجهاد الاسلامى

حركة الافاقة الاسلامية على عهد عماد الدين زنكى :

تطورت الحركة الاسلامية لطرد الصليبيين الى جهادنهضت به

دول الاتابكة فى شمال العراق والشام ، وظهر من أمراء هـذه الدول أتابك قوى ، هو عماد الدين زنكى أمير الموصل (١١٢٧ ـ ١١٤٦ م) . واستطاع زنكى بمواهبه أن يتولى أولا ادارة مدينة واسط ومدينة البصرة ، ثم استولى على أمارة الموصل ، وبلغ بذلك رتبة الاتابكية .

ثم بسط زنكى سلطانه على حلب كذلك ، وغدا مؤسس دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين فى شمال العراق والشام . واستهل زنكى أعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرها ، وهى المعقل الاول للصليبيين فى شمال العراق ، والخطر الذى هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، اذ ترتب على سقوط امارة الرها فى يده ازالة الوتد الصليبى الذى شق البلاد الاسلامية نصفين . ووضع زنكى حاميةفى الرها لتأمين فتوحاته فى هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة ، واعانه فى معظم حروبة أخوان من أمل كردى فى خدمته ، وهمانجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه . على ان زنكى مات قتيلا سنة ١١٤٦ م على يد أحد مماليكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين ، وهويحاصر قلعة جعبر . وترك لابنه نور الدين محمود اتمام الدور الاول من الجهاد ضد الصليبيين ، وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

نور الدين محمود بن زنكى :

جعـل نور الدين عاصمتـه مدينـة حلب ، وبلغت الدولة فـى أيامـه أعظـم مجـدها واتسـاعها ، اذ استطاع عقب توليتـه الحكم ان يتخلص فى سرعـة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصـطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين لاسترداد الرها ، اذ أدى استيلاء المسلمين على هـذا المعقل الهام الى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ م) . وتولى قيـادة الجيوش الصليبية كنراد الثـالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هـذه الحملة الى حصار دمشـق بدلا من اسـتعادة الرها . وقاوم الأتابك طغتكين أمـير دمشـق هذا الحصار الصليبى سـنة ١١٤٨ م ، وظـل الصليبيـون أمامها عاجزين عن اقتحامها رغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وهمـا الداوية والاسبتارية . وأرسل نور الدين زنكى قوات لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون الى رفع الحصـار ، وعاد لويس وكنراد الى أوربا ، بعـد فشل الصليبيين فى تحقيـق شىء من أغراضهم فى دمشق والرها .

التسابق بين نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر :

رأى نور الدين بعـد فشل هـذه الحملة الصليبية ضرورة الاسـتيلاء عـلى دمشـق ، تحقيقـا لتوحيـد الجبهـة الاسلامية التى بدأها أبوه ، ولا سيما بعد أن امتدت ممتلـكات

الصليبيين الى مدينة عسقلان سنة ١١٥٣م . وفى سنة ١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول فى طاعته ، لان القائد العام لجيوشها وهو نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين ، من رجال الاتابك زنكى ، ولان قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب . ولأن قائد جيش نور الدين هو شير كوه أخو نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين .

وأدى هذا التغير فى الموقف الحربى الى اتجاه أنظار كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس الى مصر . اذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم الى مصر ، على حين وضح للصليبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول الى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، اذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده ضد منافسه فى الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس الى فوز القوات الثورية بالبقاء فى مصر ، وغدت مصر محور الارتكاز ، الذى يوشك ان تدور عليه احداث المراحل المستقبلة من الجهاد ضد الصليبيين ، ولا سيما بعد ان زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .

صلاح الدين الايوبى

الدور الثانى من الجهاد الاسـلامى

توحيد الجبهة الاسلامية :

ترتب على أزالة الخلافة الفاطمية أن عادت مصر الى المذهب السنى والتبعية الرسمية للخلافة العباسية فى بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث ان تشكك فى مطامع صـلاح الدين ونواياه ، وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر . ثم توفى نور الدين سنة ١١٧٤ م قبل أن تتحرك هذه الحملـة ، فترك سياسة توحيد القوى الاسلامية التى بدأها لصلاح الدين ، واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجه ، فأعلن اسـتقلاله بمصر أولا غداة وفاة نور الدين ، واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعـدة لضـم صفـوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الاسـلامية بازالة الشخصيات التى اعترضت سبيله فى الشام ، وساعدته الاختلافات التى تلت وفاة نور الدين على تحقيـق مهمتـه ، اذ استعـان به الدمشقيون أملا فى أن تصبح دمشق عاصمة للدولة النورية بدلا من حلب ، وجاء صلاح الدين الى دمشق ، ودخلها ١١٧٤ م باسم الطفل اسماعيل بن نور الدين ، المقيم وقتذاك فى حلب . غير أن

الامير غازى الزنكى صاحب الموصل، وهو من سلالة عماد الدين زنكى حقد على صلاح الدين أن يصبح حامى البيت الزنكى فى دمشق ، فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ١١٧٥ م .

وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى فى العالم الاسلامى والشرق الادنى . فضرب النقود باسمه فى مصر والاسكندرية وحماه ، بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبذا اعتبر صلاح الدين نفسه السلطان الأوحد ، ولا سيما بعد ان أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر . وأصبح الجو ممهدا أمام صلاح الدين للجهاد ضد الصليبيين .

وقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ١١٨٥ م فى معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية ضده ، وأهمها حركات ارناط ، أمير حصن الكرك ، التابع لملكة بيت المقدس . ذلك أن هذا الأمير الصليبى تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى عقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس . وعزم ارناط على الاستيلاء على مكة والمدينة والآثار النبوية بهما ، فأعد سنة ١١٨٣ م سفنا ، حمل اخشابها وقلاعها الى خليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولا ، نقل جنود الصليبيين فى البحر الاحمر الى شاطىء الحجاز . وكان صلاح

الدين غائبا فى العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه فى مصر ، وهو أخوه العادل ، ولحق بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شـمالى ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق أهدافهم ، وحمل كثيرا منهم أسرى الى مصر .

ثم عاد أرناط الى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين برغم فشله السابق ، وتصدى فى ربيع سنة ١١٨٦م لاحدى القوافل الاسلامية المـارة بحصنه ، واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل أفرادها . فأعد صلاح الدين حملة ضد مملكة بيت المقدس ، التى لم تستطع ان توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها .

وعسكر صلاح الدين بقواته عند مكان يسمى قصر السلامة ، قرب بصرى فى مايو سنة ١١٨٧ م ، وقام هناك بغزو البلاد القريبة من حصن الكرك متحديا أرناط . غـير ان هذا الامير الصليبى خاف الخروج لمواجهة القوات الاسلامية ، فتقدم صلاح الدين بعد ذلك على رأس قواته فى شهر يونيو واسـتولى على طبرية ، ثم زحف منها حتى بلغ مكانا يسمى حطين .

ورأى الصـليبيون وقتذاك ، تحت تأثير أرناط أن يخرجوا لملاقاة صلاح الدين ، فوصلت قواتهم حطين فى أول يوليو سـنة ١١٨٧ م . وفى اليوم الرابع من يوليو ، أى وسط الصيف ، وقعت الواقعة ، ونزل بالصليبيين من ألوان الهزائم مالم يعهدوه قبلا . وزاد هذه الهزيمة أن النار اشتعلت فى الحشائش الجافة حـول معسكر الصليبيين ، فلم تبقَ على أحـد تقريبا . ثم أمر صـلاح الدين بأحضار الاسرى الى مخيمه ، ومن بينهم أرناط أمير الكرك ،

وجاى لوزجنان ملك بيت المقدس . فقتل صلاح الدين بنفسه أرناط ، وبر بيمين سبق أن أقسمه بأن يقتله اذا وقع فى يده ، لان هذا الامير الصليبى لم يعرف للمعاهدات حرمة أو تقديرا . على أن صلاح الدين عامل الملك الصليبى معاملة ممتازة ، بل انه أطلق سراحه بعد أن وعد بألا يقدم على حرب ضد المسلمين .

بعــــد حطين :

جاءت وقعــة حطين معركة فاصلة ، حتى وصـــفها بعض المعــاصرين من مؤرخى الحروب الصليبية الأوروبية بأنهــا بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن فى هذا القول شىء من المبالغة ، اذ حشـــد الصليبيون زهرة جندهم فى حطين ، ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين لنفسه بعد حطين حتى سلمت له مدينة بيت المقدس فى اكتوبر سنة ١١٨٧ م ، بعد حصار دام أسبوعا واحدا . ثم استمر صلاح الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ مدينة اللاذقية شمالا ، وحصن الكرك جنــوبا ، ولم تأت ســنة ١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التى هددت المسلمين ، وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعا من الشام ، لانه لم يبق فى حيازتهم سوى أنطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية الصغيرة ، وأهمها صور .

حصـــار عــكا :

أفزع سقوط مدينة بيت المقدس ملوك أوروبا وأمرائها ، ماعدا

الامبراطورية البيزنطية وأهلها الذين لم يروا خيرا لهم فى الحملات الصليبية ، بل عقدوا محالفات مع صلاح الدين . وأدى فزع أوروبا الى تجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة التى تزعمها أكبر ملوك أوروبا وقتذاك ، وهم فردريك برباروسا أمبراطور ألمانيا ، ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أجطس ملك فرنسا . وتسمية الحروب الصليبية بألقاب عددية لايعدو ان يكون تسمية اصطلاحية ، باعتبارها فصولا ، يبدأ كل منهما بحادثة كبرى فى تاريخ الحروب الصليبية . على أن الحملات الصليبة تزيد عن العدد المعروف لها ، وبعضها لم يكن له علاقة بأحداث الحروب ضد المسلمين .

وامتلأت هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بالاخبار والقصص عن صلاح الدين ورتشارد قلب الاسد ، لأن الامبراطور فردريك برباروسا مات فى الطريق قبل ان يصل الى الشام ، ولأن فيليب اجطس ملك فرنسا لم يتصل كثيرا بصلاح الدين . أما رتشارد فأبحر الى قبرص ، واستولى عليها فى طريقه ، ليجعل منها قاعدة حربية يستمد منها المعونة فى حملته بفلسطين . ثم وجد رتشارد أن الصليبيين بالشام يحاصرون ميناء عكا ، بقيادة جاى لوزجنان ملك بيت المقدس الذى أطلق صلاح الدين سراحه بعد أن أقسم له الا يقوم بعمل عدائى ضده مدة حياته . ولذا انضمت السفن والجيوش الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية حول عكا سنة ١١٨٩ م ، وشددوا عليها الحصار حتى

سقطت فى أيديهم بعد سنتين من حصارها ، وجعلوا منها قاعدة رمزية لملكة بيت المقدس،بعد أن ذهبت مدينة بيت المقدس نفسها الى المسلمين .

رحل ملك فرنسا بعد سقوط عكا ، على حين بقى رتشارد ملك انجلترا سنة كاملة فى الشام . فحارب رتشارد صلاح الدين مرة أخرى ، وهزم جيوش المسلمين فى أرسوف ، وامتلك يافا وحصنها . غير أن أعمال ملك انجلترا لم تغير مجرى الحوادث ، لان ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة اوروبية واحدة أن تمحوه فى بضع سنين . والدليل على ذلك ان ملك انجلترا عمد الى فكرة المفاوضة والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية تكفل بقاء الدولة الصليبية بالشام الى جانب دولة صلاح الدين . وتخلل المفاوضات اقتراح قدمه ملك انجلترا خلاصته ان يتزوج العادل اخو صلاح الدين من الاميرة جوانا اخت رتشارد ، مقابل ان يكون لملك انجلترا بيت المقدس والثغور البحرية المجاورة له . غير ان هذا الاقتراح لم يلق قبولا ، وانتهت المفاوضات الجارية بعقد صلح الرملة فى ديسمبر سنة ١١٩٢ م ، اتفق فيه الطرفان على أن تبقى البلاد الداخلية للمسلمين ، وان تبقى المدن الساحلية للصليبيين ، على أن يسمح لفئات صغيرة من الصليبيين بزيارة بيت المقدس من قاعدتهم الكبرى فى عكا . وتوفى صلاح الدين بدمشق بعد ذلك بقليل سنة ١١٩٣ م ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، وقبره على مقربة من الجامع الاموى بالعاصمة السورية .

الصليبيون ومصر بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين دون أن يضع نظاما خاصا لولاية العهد ، ونجم عن ذلك قيام النزاع بين أولاده واحفاده واخوته وأقاربه . ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين ان يضم اليه الشطر الاكبر من الدولة الأيوبية بسبب استمالته للجيش ، وغدا سلطانا بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام سنة ١٢٠٠ م . واحتفظ العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمد الى ترويج التجارة مع الامارات اللاتينية بالشام ، والمدن الايطالية ذوات التجارة الواسعة فى الشرق ، مثل البندقية وجنوا وبيزا .

وأدى هذا الانقلاب فى السياسة العامة الى تعديل الخطط التى وضعها صلاح الدين ، اذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده ، مسالمة الصليبيين بأى ثمن ، حفظا لمصر من الهجمات الصليبية . على أن هذه السياسة أدت الى عكس المطلوب ، اذ ادرك الصليبيون منذ ايام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه الانتصارات يرجع الى امداد الجيوش الايوبية بالسلاح والمال من مصر ، ولذا ينبغى أن يكون الهدف الحقيقى لمجهوداتهم مصر لا الشام .

الاستيلاء على دمياط :

وشجعت المدن البحرية الايطالية على تنفيذ هذه السياسة



الإمارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين

الصليبية الجديدة . ودفعتها أطماعها التجارية على فتح مصر لتستطيع السفن الايطالية أن تصل الى البحر الاحمر ومراكز التجارة الشرقية مباشرة . واتفق هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين مع دعوة البابا انوسنت الثالث سنة ١١١٦ م لاعداد حملة صليبية ، هى المعروفة بالخامسة فى التقسيمات الصليبية .

دخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة ١٢١٨ م . وأسرع السلطان العادل من شمال الشام الى مصر لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق . واعقب وفاة العادل تقسيم الدولة الايوبية مرة أخرى ، فخص ابناءه الاجزاء الكبرى ، وتولى مصر ـ مثلا ـ ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ السياسة التى اتبعها ابوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط فى هذه الحملة . ومع هذا اظهر الملك الكامل روح المسالمة التى اتبعها أبوه العادل اذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية الى معظم مساحتها الاولى قبل فتوح صلاح الدين ، ما عدا بضعة بلاد صغيرة ، مقابل الجلاء عن دمياط والشواطىء المصرية . ورفض الصليبيون هذا العرض السخى لاعتقادهم فى سهولة الاستيلاء على البلاد المصرية . ثم أخذ الصليبيون فى الزحف جنوبا فى الدلتا ، والفيضان بالغ اقصاه اذ ذاك . ولم يدركوا صعوبة السير فى الأراضى المصرية وقتذاك ، لجهلهم بالجغرافيا واحوال النيل

وكثرة الترع . ثم ان المسلمين فتحوا الجسور والسدود واغرقوا الأراضى ، ولم يلبث الصليبيون ان وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر ولقوا هزيمة فادحة على يد المسلمين . عند ذلك رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الاراضى المصرية سنة ١٢٢١ م بلا قيد ولا شرط .

السلطان الكامل والصليبيون بعد هزيمتهم فى دمياط :

وسخر ملوك أوروبا لما حدث ، بسبب تفضيل الصليبيين مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس ، ولا سيما فردريك الثانى امبراطور الدولة الغربية الالمانية . ورأى هذا الامبراطور تحقيق الفكرة التى ثارت فى رأس رتشارد ملك انجلترا وصلاح الدين قبلا ، وهى فكرة التسوية السلمية بين الصليبيين والمسلمين، ودارت بينه وبين السلطان الكامل من اجل ذلك مباحثات، وجاء فردريك الى الشام على راس حملة قليلة العدد والعدة سنة ١٢٢٩ م وعقد مع نواب السلطان معاهدة ، بدت فى زمنها من أعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصيليبيين والمسيحيين عامة فى العصور الوسطى . ذلك أن شروط المعاهدة نصت على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة ، وطريق الحج من بيت المقدس الى يافا وعكا ، على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الاقصى ، فضلا عن بعض المدن . وتعهد الامبراطور مقابل ذلك بان يكون

حليفا للسلطان ضد جميع أعدائه ، وان يعمل على منع الأمداد الصليبية عن الامارات اللاتينية بانطاكية وطرابلس وغيرها ، وان يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل الى علمه من حركات صليبية فى أوروبا .

واغضبت هذه المعاهدة المسلمين والمسيحيين . فقال المسلمون انها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون ان الامبراطور فردريك نزل الى درجة المفاوضة مع المسلمين بدلا من حربهم لتخليص الاراضى المقدسة من أيديهم .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر :

ثم حدث أثناء سلطنة الصالح ايوب بن الملك الكامل ان استولت طائفة من الخوارزمية المسلمين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، فانهدم بذلك الشرط الاول من شروط المعاهدة الكاملية الفردريكية . وفزعت أوروبا ، وثار اشهر ملوكها وقتذاك لويس التاسع ملك فرنسا ، المعروف فى التاريخ الفرنسى بالقديس لويس . وأعد هذا الملك حملة صليبية معظمها من الفرنسيين ، وابحر بها سنة ١٢٤٨ م الى قبرص لقضاء فصل الشتاء هناك . ثم اتجهت الحملة من قبرص الى مصر ، مما يبرهن على أن الفكرة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى تاكدت من وجوب الاستيلاء على هذه البلاد ، لأنها غدت منبع المقاومة ضد جميع المشاريع الصليبية .

ونزلت الحملة الصليبية على مقربة من دمياط ، ثم استولت

عليها دون مقاومة فى يونيو سنة ١٢٤٩ م . واسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق الى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ، ولكنه توفى دون ان يقوم بعمل دفاعى لصد الصليبيين . وبسبب هذه الوفاة الفجائية فى ساعة الحرج والصليبيون على دمياط ؛ اخفت شجر الدر نبأ وفاة زوجها السلطان الصالح ايوب ، حتى يحضر الوريث الشرعى للبلاد ، وهو توران شاه . وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصيلبيين ، لأن القديس لويس وقع فى نفس الغلطة التى تورطت فيها الحملة الصليبية السابقة على دمياط ، بتأجيل الزحف حتى أشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل . ولذا تعثرت جيوش الحملة فى طريقها حتى تجمع الجيش الايوبى ومعظمه من المماليك البحرية عند المنصورة الحالية ، وهناك حاقت الهزيمة بالصليبيين كما حاقت بهم مرة اخرى عند فارسكور وهم يحاولون العودة الى قاعدتهم الحربية فى دمياط . ووقع القديس لويس اسيرا فى أيدى القوات المصرية ، ولم يطلق سراحه الا سنة ١٢٥٠ م بعد أن دفع فدية كبيرة قامت زوجته بجمع نصفها بسرعة ، وتعهد هو بتأدية النصف الثانى بعد مدة قصيرة من اطلاق سراحه .

المماليك والصليبيون

الدور الاخير من أدوار الكفاح ضد الصليبيين

يرجع الفضل فى انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دمياط الى البسالة الحربية التى أبداها الجند المملوكى فى القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك المماليك وعلى رأسهم شجر الدر زوجة ابيه التى تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونه من السلطنة . فأخذ يأتمر بهم ، كما أخذوا هم يأتمرون به . واغرت شجر الدر أخيرا أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه سنة ١٢٥٠ م ، وانتهى بذلك حكم الايوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

السلطان بيبرس والصليبيون :

وتحولت السلطنة المملوكية الى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس ، الذى امتدت سلطنته من سنة ١٢٦٠ الى ١٢٧٧ م . وتجلت مواهب بيبرس الحربية سابقا فى انتصارات المنصورة وعين جالوت . وقام ضد الصليبيين بجهود مكملة لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولا لحرب أمارة انطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الاخبار بأن هذه الامارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة فى فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم انه حلا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصبغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصبغة الجهاد . وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محالفة بعض الدول الاوربيةلابعادها عن المعترك الصليبى ، كما عمل على ايقاع الفرقة بين القوى الصليبية نفسها بالشام ، فضلا عن محالفة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهى الدولة التى اعتنقت الاسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراى بركة على نهر الفلجا مركزا لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولذا استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ١٢٦٣ م ، وقيسارية سنة ١٢٦٥ ، وكذلك أرسوف وصفد التابعتين للفرسان الداوية فى نفس السنة . ثم سقطت يافا فى يده سنة ١٢٦٧ م . واستطاع بيبرس أخيرا أن يستولى سنة ١٢٦٨ م على انطاكية ، وساق كثيرا من الأسرى الصليبيين الى مصر . واختتم بيبرس هذه الاعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١ م على حصن الأكراد التابع للاسبتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدتى انطرسوس والمرقب ، أملا فى الاستيلاء نهائيا على طرابلس ، وهى المدينة الكبيرة التى بقيت حتى وقتذاك فى أيدى الصليبيين . وفى أثناء هذه الأعمال الحربية الكثيرة ، استطاع بيبرس أن يصد الجيوش المغولية الزاحفة من ايلخانية فارس والعراق عن اطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السر فى هذه الانتصارات الى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والادارة المصرية .

السلطان قلاون والصليبيون :

وقام السلطان قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م) بعــد بيبرس بمواصلة الحرب ضد الصليبيين ، وسار على طريقة ســلفه من محالفة بعض الدول الاوروبية ، وايقاع الفرقة بين الصليبيين . واثبت قلاوون فى ساحة الحرب أنه جدير بلقب « الســلطان المنصور » ، الذى اقترن باسمه دائما، فاستولى على حصن المرقب التابع للاسبتارية سنة ١٢٨٥ م . ثم زحف نحو مدينة طرابلس ودمرها تدميرا موحشا سنة ١٢٨٩ م ، وشهد المؤرخ أبو الفدا هذه الوقعة ، وسجل تفصيلاتها فى كتابه الذى عنوانه « المختصر فى تاريخ البشر » .

الاســتيلاء على عكا :

لم يبقَ من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا . وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبذا ترك لابنه السلطان خليل (١٢٩٠ ــ ١٢٩٣ م) جميــع ما أعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصارا استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ١٢٩١ م وهرب كثير من الصــليبيين الى جزيرة قبرص ، التى اصبحت منذئذ مجمع بقايا الصليبيين بالشرق .

وادى سقوط عكا الى تسليم المدن الصليبية الباقية فى الشام، ومنها صور وبيروت . وبذا انسدل الستار على أهم فصــول

الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق ، ما عدا جزيرة قبرص ، التى غدت مركز المملكة الصليبية وملوكها من اسرة لوزجنان ، وجزيرة رودس التى تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة أرمنيا الصغرى فى قليقيا بأقصى الطرف الشرقى من الساحل الشامى .

أثر الحروب الصليبية فى الحضارة الاوربية :

لم تقتصر الحروب الصليبية على المعارك الدامية ، والعداوات المتصلة ، بل شهد رجالها من المسلمين والمسيحيين اتصالات حضارية بعيدة المدى فى التجارة والصناعة والثقافة . ومن المعروف أن الشرق الاسلامى سبق أوروبا المسيحية فى هذه النواحى جميعا فى تلك العصور . فأخذت أوروبا تتطور بفضل ما جاءت به الحروب الصليبية من الشرق الاسلامى . مثال ذلك أن معرفة الصليبيين بزراعات الشرق أدت الى انتشار كثير من النباتات والحاصلات الشرقية فى أوروبا ، ومنها السمسم والخروب والذرة والارز والليمون والمشمش والثوم . وقامت فى أوروبا صناعات جديدة على نسق السلع الشرقية ، مثل صناعة العقاقير والبسط والاقمشة . وشاعت فى ملابس الاوروبيين رسوم أقمشة الموصل ودمشق والفسطاط ودمياط ودبيق ، ولا تزال أسماء هذه الاقمشة مستعملة فى اللغات الاوروبية . وانتشرت فى أوروبا كذلك أدوات الزينة الشرقية

من الدهون والاشنان والمساحيق والملابس الخاصة بالسيدات ، ولا تزال الأسماء العربية لادوات الزينة وغيرها مبعثرة فى اللغات الاوروبية الحديثة .

وعرفت أوربا علوم الشرق الاسلامى وفلسفته عندما استقر الصليبيون فى ممالكهم بالشام ، فأقبل رجال العلم الاوربيون على حضارة مدن الشام ومصر ، ونقل الكتب المفيدة منها الى بلادهم وترجمت الى اللاتينية منذ أيام الحروب الصليبية كثير من المؤلفات العربية فى الفلك والهندسة والجبر ، وبعض مؤلفات أرسطو التى سبق للعرب أن ترجموها الى العربية .

ثم أن وفاة كثير من زعماء الصليبيين بالشرق أثناء الحملات الصليبية ، أدى بدوره الى ضعف البيوت الاقطاعية الأوروبية التى جاءوا منها ، وأفسح المجال لتكوين الطبقة الوسطى المشتغلة بالتجارة ، وهى الطبقة التى أعتمد عليها الملوك بمختلف الدول الأوروبية لتحل فى وظائف الدولة محل أبناء البيوت الاقطاعية ، وساعد ذلك كله على ظهور الدولة الحديثة فى أوروبا .

أثر الحروب الصليبية فى الشرق الاسلامى :

وتأثر المسلمون بالحروب الصليبية ، اذ أحسوا لأول مرة بالخطر الاوروبى المشترك ، وعملوا على تكوين جبهة اسلامية متحدة مثلما حدث أيام صلاح الدين . وغذى هذا الاحساس طائفة

من الشعراء والفقهاء والعلماء ، فظهرت القصائد والخطب والمواعظ التى تحض على القتال فى سبيل الوطن الاسلامى . وظهرت كذلك الكتب التى تناولت الجهاد والفروسية والسير التاريخية التى تشجع المسلمين على التفانى فى الدفاع عن البلاد والدين .

على أن المسلمين تأثروا ببعض المظاهر المادية ، فعرفوا استخدام القلاع فى الدفاع عن المدن ، وتحصين المواقع الحربية ذات المراكز الاستراتيجية . وانتقلت بعض المصطلحات الخاصة والنظام الاقطاعى الاوروبى الى الاقطاع الاسلامى . ودخلت بعض المفردات اللغوية الاوروبية الى اللغة العربية العامية مثل كلمة (برنس) أى أمير ، (امبرور) أى امبراطور . واخيرا تأثرت البلاد الاسلامية بالمظاهر التى تصطحب الحروب عادة من حيث التطورات التى تصيب النظم الاجتماعية ، اذ كثر الاشخاص الذين أصابوا حظا وافرا من المال بالتجارة بالسلع التى تروج زمن الحروب ، وغدوا طبقة اجتماعية جديدة اشبه بما يعرف اليوم باسم أثرياء الحرب .

اغارات المغول

موطن المغول :

عاش المغول فى الهضبة الأسيوية الشاسعة ، التى تمتد من أطراف الصين الى أواسط أسيا . وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وانواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعى المتغيرة . ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حربيا سريعا . ولم تحترم قبائل المغول الاستقرار أو تبنى المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا الى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الاسلامية .

جنكيزخان :

ثم استطاع أحد زعماء المغول واسمه جنكيزخان ، ومعناه حاكم الحكام ، أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة ، لها عاصمة فى مدينة قره قورم . ووضع جنكيزخان دستورا عاما لهذه الدولة واسمه (اليساق) . وفى الاجتماع المغولى السنوى العام ، وهو المعروف فى اللغة المغولية بلفظ (قورتيلاى) أعلن جنكيزخان هذا الدستور الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لادارته ، والانضواء الى رايته ،

والذهاب معه فى جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية أو قبلية . واستطاع جنكيزخان أن ينظم بذلك اداة حربية ضخمة ، أساسها الطاعة العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الأعظم .

فتوحات المغول شرقا وغربا :

فتح الصين :

أخذ جنكيزخان بعد تتويجه امبراطورا على المغول سنة ١٢٠٦ م ، يعمل على فتح الاقاليم المجاورة له من امبراطورية الصين ، وحكم الصين وقتذاك ملوك أسرة (كين) وعاصمتها مدينة بكين . وفى سنة ١٢١١ م ، استهل جنكيزخان حروبه ، فظن امبراطور الصين ان باستطاعته ايقاف السيل المغولى الداهم بترضية شخصية ، فأرسل الى جنكيزخان زوجة صينية ، وهدايا نفيسة من تحف الصين . غير أن حركات الجيوش المغولية ما لبثت أن اضطرت امبراطور الصين الى الرحيل عن عاصمته . وترتب على ذلك اضطراب داخلى ، استغله جنكيزخان فى الاستيلاء على معظم أجزاء الامبراطورية الصينية المتداعية سنة ١٢١٥ م . وتابع جنكيزخان حروبه المخربة حتى بلغت جيوشه نهوهوانجهو . واكتفى جنكيزخان بهذا القدر من الفتوحات فى الصين ، وعاد الى عاصمته قره قورم ، بعد أن خلف فى الصين نائبا عنه .

هجوم المغول على الدولة الاسلامية :

تحول جنكيزخان بعد ذلك الى اخضاع القبائل المغولية التي فرت من قبضته ابان عملية الاخضاع التي قام بها سابقا لتوحيد دولة المغول ، وتعقب هذه القبائل الى بلاد الدولة الخوارزمية في تركستان ، والى الاطراف الشرقية من ايران ، وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه

واتبع جنكيزخان وسائل وحشية مغولية في حروبه في بلاد خوارزم . فتولى بنفسه تدمير بلاد ماوراء النهر ، على حين أنفذ فرقا اخرى من جيشه للاستيلاء على اقاليم الخوارزميين في خراسان والعراق الفارسي . ولذا لقيت معظم المدن الاسلامية الزاهرة التي وقعت في طريق المغول تخريبا تقشعر له الابدان وتحولت قصورها وشوارعها وفنادقها الى مراع مترامية لخيل جنكيزخان والقبائل المغولية . وجرى سيل من الدماء في هذا التدمير ، وسرى الرعب في القريب والبعيد من الناس . فلم يبق من اهالى هرات البالغ عددهم ١٠٠٫٠٠٠ غير ٤٠٫٠٠٠ نسمة ، بعد سبعة ايام حسوما من القتل .

ولقيت بخارى من التدمير مثلما لقي غيرها من المراكز الاسلامية في بلاد ما وراء النهر ، اذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، ووصف جنكيزخان نفسه بعد استيلائه على هذه المدينة بانه عذاب من الله أرسله الى الناس عقابا لهم على خطاياهم وتردت في مهاوى المصير سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن

أسيا الوسطى . وفر علاء الدين خوارزم شاه الى احدى حزر بحر قزوين ، وتوفى سنة ١٢٢٠ م كمدا ، لما حل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة .

وعاد جنكيزخان الى بلاده بعد ما أنزل ببلاد المسلمين وغير المسلمين أنواع الدمار ، من تركستان وخراسان وأفغانستان فى الجنوب ، وأذربيجان وجورجيا وروسيا فى الشمال . وروى المؤرخ ابن الاثير حادثة دالة على مبلغ ما نزل بالناس من الرعب والانهيار أمام الجيوش المغولية ، وهى أن المغولى يدخل القرية من القرى وبها جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ، لا يتجاسر احد أن يمد يده الى ذلك الفارس . « وان انسانا منهم اخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع راسك على الارض ولا تبرح . فوضع راسه على الارض ومضى التترى فاحضر سيفا وقتله به » . ومات جنكيزخان سنة ١٢٢٧ م ، وهو فى سن الرابعة والستين .

سقوط بغداد :

وزحف المغول نحو ايران بعد اجتياحهم خوارزام ، وذلك فى عهدمانجوخان ، حفيدجنكيزخان ، وهو الذىصار الخانالعظيم (الخاقان) للمغول ، سنة ١٢٥١ م . وجهز مانجوخان لهذه العملية المغولية الثانية ضد المسلمين أخاه هولاكو ، وذلك لاتمام فتح ايران والاستيلاء على بغداد . فاوغل هولاكو فى ايران ،

حيث قضى أولا على قلاع طائفة الاسماعيلية ومدنهم ، مثل قلعة الموت . ولم يكن بايران سوى مقاومة أولئك الاسماعيلية ، وبذا تفرغ هولاكو للزحف على بغداد .

وأرسل هولاكو سنة ١٢٥٧ م الى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه الى التسليم قبل فوات الاوان ، كما ارسل الى وزيره ابن العلقمى ليجعل منه طابورا خامسا . وأعقب هولاكو تهديده بحصار بغداد ، واعتمد على ما احدثه ابن العلقمى من اهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفزع واشاعة القول بأن المغول قوم لا ينهزمون ، وأن المصلحة فى الخضوع لهم . وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوما ، حتى أحدثت فجوة فى أسوارها . وعندئذ أذعن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاكو ومعه أقاربه ، وسلمه مدينة بغداد .

واضمر هولاكو الغدر للخليفة ومدينته ، فامر باخراج الجند الخليفى خارج بغداد بحجة احصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعا وفى صباح اليوم التالى أباح هولاكو بغداد لجنوده ، فانتشر المغول فى أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الاطفال ، ويستحيون النساء وظلت هذه الوحشية أربعة أيام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالاسلاب والأنهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء ، فضلا عن رؤوس القتلى التى عمد الجند الى اللهو بها على شواطىء دجلة . وأخيرا أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم ،

وزالت الخلافة العباسية بذلك ، لكن الى حين ، ودخلت العراق الاسلامية فى التبعية للمغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) .

جهود مصر فى صد المغول — وقعة عين جالوت :

حزم هولاكو أمره بعد ذلك على السير نحو الشام ، فزحف شمالا ، وأعمل السيف فى سكان الموصل وحران الرها . والقصة التى رواها ابن الاثير عن مبلغ الفزع والرعب الذى استولى على الناس ، خاصة بهولاكو وجنوده قرب الموصل . ثم ارسل هولاكو الى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم ويهددهم بالفناءالتام ، اذا هم لم يمهدوا لزحفه ، بالاسراع الى طاعته . وانتشر الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك .وجاءهولاكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما وبعث الى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتطلبالطاعة المطلقة . وأجاب قطز ، الخوارزمى الاصل ، اجابةجريئةغير منتظرة، اذ قتل السفراء المغول،انتقاما يائسا لما احدثه جنكيزخانبالدولة الخوارزمية .

غير أنهولاكو لم يستطع انيظل بالشام لاتمام ماحزم أمره عليه ، اذ توفى أخوه الخاقان مانجوخان ، وتطلب ذلك رحيله من الشام للاشتراك فىاقامة الخاقان الجديد . وتولى أبغا قيادة الجيوش المغولية المحتلة بلادالشام . أماالسلطان قطز فلم يهمل استعداداته الحربية ، بل أرسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأمير بيبرس

البندقدارى على أن يزحف هو بالجيش الرئيسى ، واستطاع بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزة ، مما يدل على أن الخطر المغولى أضحى قريبا جدا من مصر . ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ فى مفاوضة الصليبيين ليسمحوا له باختراق أراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك أن يبغت المغول من ناحية غير منتظرة . ونجحت المفاوضات برغم تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول ضد سلطنة المماليك . وبذا استطاع قطز أن يصل الى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ، وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠ م .

وانتصر قطز انتصارا كبيرا على أبغا بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب حيلة المماليك . وفى أثناء هذه الوقعة الدامية سقط أبغا قتيلا ، وتقهقر المغول الى دمشق وحلب فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضى الشامية .

وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوروبية . اذ جاء الانتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ، وبعد ان انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولى على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية . ثم ان وقعة عين جالوت أول صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون انهم قوم لاينهزمون . فجاءت هذه الصدمة بمثابة المعجزة الدالة

على أنه فى الامكان الحاق الهزيمة بالمغول . ومما جعل وقعة عين جالوت من الواقع الحاسمة فى التاريخ الاوروبى أن خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب ، وانما هدد المغول أوروبا ، واستولت جيوشهم على « كيف » وغيرها من البلاد الاوروبية . ومما لاشك فيه ان المغول لو تقدموا فى اوربا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهوبية القلقة لكان تأثيرهم سيئا بوجـه عام . ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعا عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم فى كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها . وكسبت سـلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين ، كما استقامت لمصر زعامة جديدة فى العالم الاسلامى .

الدول المغوليـة :

امتد سلطان المغول على عهد الخاقان قوبيلاى خان (١٢٥٩ ـ ١٢٩٥ م) ، أخو هولاكو ، من النهر الاصفر بالصين الى نهر دانوب بأوروبا ، وبلغت قوتهم أوجها فى الشرق والغرب . فحكم المغول من مدينة بكين شمال الصين وكوريا ومنغوليا ومنشوريا والتبت ، وحكم فرع منهم تركستان وأفغانستان ، واستقر الفرع المغولى المعروف بالقبيلة الذهبية فى القفجاق شمالى بحر قزوين ، وبسط نفوذه على جزء كبير من روسيا الحالية . أما الفرع المغولى الذى هبط به هولاكو وجنوده على ايران والعراق ، فاستقر بها ، الى

جانب أرمينيا وجزء من آسيا الصغرى ، بعد أن جعل عاصمته بغـداد .

وبعد وفاة قوبيلاى خان، انتشر الخلاف بين خانات المغول حول الزعامة والسلطان ، فتحولت فروع امبراطورية المغول الى أربع دول مستقلة بعضها عن بعض ، وهى الصـين ، وتركستان ، وروسيا ، وايران . وانفرد مغول روسيا بالسبق الى اعتنـاق الاسلام على المذهب السنى ثم انتشر الاسلام بعد ذلك بين مغول ايران على المذهب الشيعى .

واتخـذ مغـول الصـين من مدينـة بكـين عاصمـة لهم سنة ١٢٦٤ م ، وهى المعروفة باسم بيبنج فى العصر الحاضر . ووفد الرحالة الاوروبيون على البلاط المغولى فى الصين ، وتـرك احدهم وهو ماركوبولو ، من اهالى البندقية ، وصفا طويلا لهذا البلاط ، اذ دخل خدمة خاقان الصين وتنقل فى انحاء البلاد ولمس بنفسه قوة هذه الدولة .

مغول تركستان :

امـا مغـول تركسـتان فاسـتقلوا باواسـط آسيا ، واشـتهر خانات هـذه الدولة المغوليـة التركستانية بعدائهم للاسلام ، وأولهم جغطاى ثانى أبنـاء جنكيز خان ، وهو الذى فرض قوانين صارمة تحرم على المسلمين فى دولته أن يذبحوا الحيوانات للطعام ، أو أن يقيموا فرائض الوضوء وشعائر الصلاة .

ثم اخذ الاسلام ينتشر فى هذه الدولة المغولية بآسيا الوسطى تدريجا على يد الخانات الذين أسلموا ، مثل براق خان وطغلق خان فى القرن الرابع عشر الميلادى .

ايلخانية فارس :

وسارت دولة المغول فى فارس ، التى اسسها هولاكو بعد عودته من الشام سنة ١٢٥٩م على نهج دولة مغول تركستان . فظل هولاكو وبعض خلفائه أعداء للمسلمين ، ولم تغب عن ذاكرتهم الهزيمة التى انزلها بهم المماليك فى عين جالوت. ولذلك دابت ايلخانية فارس المغولية على محالفة القوى الصليبية بالشام ضد الدولة المملوكية بمصر ، وراسل اباقا خان ابن هولاكو القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وأرسل اليه سفارة مغولية حضرت أحد المجامع المسيحية فى مدينة ليون بفرنسا سنة ١٢٧٤م . لكن الخان تكودار اعتنق الاسلام عندما تولى عرش ايلخانية فارس سنة ١٢٨٢ م ، وصار اسمه احمد تكودار . وبعث الخان الجديد بنبأ اسلامه الى السلطان قلاوون فى مصر ، وأصبح الاسلام الدين الرسمى ، على مذهب الشيعة : لهذه الدولة المغولية التى ظلت متماسكة حتى عصر الايلخان ابو سعيد .

المغول القفجاق :

يرجع استقرار هذا الفرع المغولى المعروف باسم القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق شمال بحر قزوين الى باطو حفيد جنكيزخان . ثم اعتنق بركه خان الاسلام سنة

١٢٥٦ م ، وهو حفيد آخر من أحفاد جنــكيز خان ، وحالف الظاهر بيبرس سلطان مصر ضــد هولاكو مؤسس ايلخانيــة المغول فى فارس . واتخذ مغول القفجاق مدينة سراى عاصــمة لهم ، وهى على نهر الفلجا ، وموقعها قرب ستالنجراد الحالية » وبذا أصبح الاسلام أخيرا دين فروع مغولية كثيرة بعد أن أنزلت جيوشهم بالدولة الاسلامية أشد ألوان الدمار والخراب »

الفصل الخامس

الدولة العثمانية

الاتراك والاسلام

الترك ومواطنهم الاولى :

يرجع اتصال الاتراك بالدولة الاسـلامية الى أيام الخلافة الاموية ، حين دخل القائد الاموى ، قتيبة بن مسلم بلاد ماوراء نهر جيحون سنة ٧٠٥م . وفى تلك البـلاد قامت منذ القرن السادس الميـلادى دويلات قبليـة ، أسسها الاتراك ، الذين هاجروا من مواطنهم الاصلية بأواسط آسيا . فاستولى قتيبة على طخارستان الجنوبية وعاصمتها بلخ ، وفتـح بخـارى فى اقليم الصغد ، وماجاورها من البلاد فيمابين سنتى ٧٠٦ ، ٧٠٩م ، واخضع سمرقند وخوارزم سنة . ثم عبر قتيبـة نهـر سيحون ، وفتح فرغانة ، أعظم بلاد الترك ، الواقعة شرقى هذا النهر . وعاد قتيبة بعد ذلك الى مرو عاصمة خراسـان ، التى غدت منذئذ عاصـمة هذه الاقاليم التركيـة الداخلة فى الدولة الاسـلامية .

واخذ الاسـلام ينتشر فى بطء بين الاتراك فى بـلاد ما وراء النهر ، ويحل تدريجيا محل دياناتهم الشامانية الوثنية المستندة الى مظاهر الطبيعة وعبادة الاصنام . ثم حدث فى عهد الخليفة الاموى

هشـــام بن عبـــد الملـك ان تـولى نصـــر بن ســـيار ولاية بلاد ما وراء النهر . وأمعن هـــذا الحاكم الاموى فى نشر الاسلام بين الاتراك ، واتسعت ولايته بذلك فى اقصى اواســط آسيا حتى بلغت اقليم الشاس (تاشقند الحالية) الى الشمال الشرقى من سمرقند . وبذا تقدم الاســلام خطوة اخرى بين الاتراك .

مجيء الاتراك الى بلاد الدولة الاسلامية :

ولمـا صار المعتصم العباسى خليفة سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م ، بدأ مجيء الاتراك فى كثرة من بلادهم الأصلية الى العراق ، لان ام هذا الخليفة تركية . ومال الخليفة المعتصم الى الاتراك ، وعمـد الى تكوين حرسه الخـــاص منهم ، لاعجـابه بجمال منظرهم وشجاعتهم ، ودأب على شراء المماليـــك الاتراك من ســمرقند وفرغانة ، وجلبهم الى بغداد . وفى العاصمة تلقن أولئك المماليك الاتراك اللغة العربية وآدابها . ودخل الفرد منهم بعـــد اتمام تعليمه الدينى فى حرس الخليفة الخاص . ثم صار هذا الحرس التركى منبعا للاضطراب فى بغـداد ، وســـاءت علاقات أفراده بالبغداديين من العرب والفرس ، فاضطر الخليفة الى الانتقـال بحرسه وبحكومته كذلك الى سامرا .

وادى هذا التطور فى أحوال الأتراك فى الخلافة العباسية الى انتشار الاسلام بينهم فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، اذ اعتنق الدين الاسلامى شيوخ القبائل التركية ، وتبعهم سائر

افراد القبـــائل باعدادهم الـكبيرة . وحمل خانات القبـــائل وشيوخها تعاليم دينهم الجديد الى مضـــارب الاتراك الوثنيين الذين لم يصلهم الاسلام . ففى سنة ٣٤٩هـ (٩٦٠ م) اسلم كثير من شيوخ القبائل التركية على يد والى كشغر ، وبلغ عدد الاتراك الذين أسلموا فى تلك السنة نحو مائتى ألف خيمة ، أى مائتى ألف أسرة . ثم صار الأتراك قوة هائلة فى بغداد ، فغدت الخــلافة العباسية وولاياتهــا فى أيديهم ، حتى حل محلهم البويهيون ، الى أن عادوا الى قوتهم الاولى حين نجح السلاجقة الاتراك فى الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥م بموافقة الخليفـة القائم بأمر الله العباسى .

واجتذب السلاجقة كثيرا من القبائل التركية من بلاد ماوراء النهر نحو العراق وغيرها من البلاد الاسلامية فى غرب آسيا .

تأسيس الامارة العثمانية

استقرار الاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى :

وفى اثناء الحروب بين السلاجقـــة والبيزنطيين فى آسـيا الصغرى قامت مجموعات قبلية تركية مختلفة بغزوات مستقلة خــدمة للدين ، وطلبا للاســـتقرار فى جزء من أجزاء الدولة البيزنطية . ومن هذه المجموعات قبـائل صاروخان وحميـدو وارطغرل ، وأيدين وقرمان . ثم استقلت دولة السلاحقة بالروم من الدولة السلجوقية الـكبرى بعد وفاة الســلطان ملـكشاه

سـنة ١٠٩٢م ، فعملت هذه المجموعات الضـاربة فى مختلف الاطراف البيزنطية تحت لوائها . ثم دهمت جيوش الايلخانيـة المغولية الفارسية هذه الدولة السلجوقيـة الفرعية بآسـيا الصغرى ، وجعلتها بذلك تابعة للمغول . غير أن القبائل التركية المتقدمة لم تخضع لهذه التبعية ، بل استقل زعماؤها بما تحت أيديهم من الاقاليم ، وبذا تفككت هـذه الدولة السلجوقيـة واستحالت أجزاء ، واستقر بجزء منها أرطغرل ، وهو أبو عثمان مؤسس الامارة العثمانية . وهـذا الجزء هو الاقليم المعروف باسم سكود بالجنوب الغربى من آسيا الصـغرى قرب اقليم بيثينيا التابع للبيزنطيين ، وقال ارطغرل بك اقليم اسكود سابقا مكافأة له على خدماته للسلطـان السلجوقى علاء الدين كيقباد الثانى ضد البيزنطيين ، كما نال اقليم اسكى شهر مكافأة له على دفاعه ضد هجمات المغول المتكررة .

امارة سلطمونى :

وأطلق السلطان السلجوقى على البلاد التى استقر بها أرطغرل اسم امارة سلطمونى أو مقدمة السلطان . وظل ارطغرل حاكما لهذا الاقليم حتى توفى سنة ١٢٨٨م ، ودفن بالقرب من سكود .

الامارة العثمانية :

وخلف أرطغرل سنة ١٢٨٨ م ابنـه عثمان ، الذى بلغت سنه وقتذاك أربعة وعشرين عاما ، وهـو الذى انتسبت اليـه الدولة العثمانية ، لانه اول حاكم مسـتقل لامارة سلطمونى ، ولانه

كذلك صاحب الفضل فى توسيع مساحتها حتى شملت الاقليم المعروف باسم فيرجيا فى التاريخ القديم . ثم توفى السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الثالث سنة ١٣٠٧ م ، فأعلن عثمان استقلاله التام بامارته ، وبدأ يوطد سلطانه فى الجهات المجاورة لها . واستهل عثمان حركاته التوسعية بالاغارة على مقاطعة بيثينيا البيزنطية ، اذ أغرته اطرافها الخالية من وسائل الدفاع بالتوغل فى هذه المقاطعة حتى استولى على جزء كبير منها . وتطلع عثمان بعد ذلك الى الاستيلاء على مدن البيزنطيين الهامة بآسيا الصغرى ، فأنفذ الجيوش بقيادة ابنه أورخان لذلك الغرض ، وتوفى عثمان سنة ١٣٢٦ م ، فى الوقت الذى بلغت فيه قوات ابنه أورخان مدينة بورصة . وسقطت هذه المدينة فى أيدى أورخان ، ودفن بها عثمان . ومن ثم غدت بورصة ، كما غدت سكود من قبل مزارا للعثمانيين ، وأصبحت بورصة العاصمة الجديدة للمملكة التى آلت الى أورخان .

اتساع الامارة العثمانية وفتوحها فى أوربا

فتوح أورخان وتنظيم الامارة العثمانية :

أتم أورخان مابدأه أبوه من الاستيلاء على بيثينيا ، وطرد البيزنطيين منها . فاستولى على نيقيه (اسنك الحالية) سنة ١٣٢٩ م ، ونيقوميديا (أزمت الحالية) سنة ١٣٣٧ م ، بعد حرب لينة ضد جيوش الامبراطورية البيزنطية ، التى نخرت فى شجاعتها السنون .

ويستطيع الزائر لاحدى هاتين المدينتين أن يرى القسطنطينية ، عاصمة البيزنطيين رأى العين . وأدرك أورخان أن باستطاعته ان يمد سلطانه على أرض الدولة البيزنطيــة فى أوروبا بالتــدخل فى شئون هذه الامبراطورية بمختلف الوسائل ، غـير ان اورخان لم يكن قائدا عسكريا فحسب ، بل رجلا اداريا من الطراز الاول . فراى أن يصرف السنــوات التى أعقبت استيـــلاءه على نيقيــة ونيقوميديا فى تنظيم دولته الآسيوية . وقضى فى تنظيمها عشرين سنة ، هى أعظم مرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية .

وانصرفت همة أورخان الى بناء المساجد والمدارس ، والمشافى للمرضى ، والفنادق للتجار . وضرب النقود باسمه ، عــلى أحــد وجهيها شهادة أن لا اله الا الله ، وعلى وجهها الآخر اسم أورخان . واختار أورخان كذلك الزى القومى للرأس ، وهى طاقية من جوخ أبيض . على أن أهم أعمال أورخان تنظيم الجيش ، وانشاء الفيالق العسكرية ، التى جعلت الاتراك العثمانيين مصدر الرعب فى العالم لعدة قرون ، وهذه الفيــالق هى فيــالق الايكنجيـــة ، أى فرق المناوشة الخفيفة ، وفيالق الفرسان الاقطاعيين ، وفيالق الحرس السلطانى ، وفيالق المشاة ذات الشهرة الهائلة ، وهى الينى شرية ، التى دأبت الكتب على تسميتها باسم الانكشارية .

الينى شرية :

ومعنى الينى شرية الجنود الجدد ، وهم جميعا أطفال مسيحيون جمعهم العثمانيون جزية من مختلف البلاد المسيحية التى خضعت

لحكمهم ، ثم علموهم الاسلام تعليما كفيلا بنسيانهم المسيحيـة . وخصص العثمانيون بعض الينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر السلطانى ، على حين عينت الدولة بعضا اخر منهم لوظائف الحكم والادارة المدنية . أما الجزء الاكبر من الينى شرية فأضحى فيالق المشاة ، التى اشتهرت بالاستماتة فى القتال . ومرجـع ذلك الى صرامة النظام الذى نشأ فيه الفرد منهم . ذلك أن الجندى مـن الينى شرية تعلم أن ينسى أباه وأمه وأخوته وأقاربه ، وأن يعيش دون امل فى زوج وبنات وبنين ، فالثكنة العسكرية مأواه ، والحرب مهنته ، والقرآن عقيدته ، وما عليه الا أن يمضى فى قتال أعداء السلطان بروح ملؤها حماسة متأججة .

ويرجع الاقتراح بتكوين الينى شرية على هذا النحو الى هايل الاسود ، وزير أورخان . أما تسميتهم فمرجعها الى الحاج بكتاش مؤسس طائفة الدراويش البكتاشية التى ظلت قائمـة فى الدولة العثمانيـة حتى أوائل القـرن العشرين . ذلك أن أورخان سـار بالدفعة الاولى من جنوده الى هذا الدرويش ، وطلب منه أن يباركهم ويطلق عليهم اسما ، فغطى بكتاش رأس فرد من الجند بكمه وقال : ليكن اسم الجند ينى شرية ـ الجند الجدد ـ ، وليكن طالعهم فى الحرب ميمونا ، ونهاية قتالهم النصر على الاعداء .

انتقال الأتراك العثمانيين الى أوروبا :

ورحب أورخان بالخلاف الناشب فى القسطنطينية بين المتنافسين على العرش البيزنطى ، وعبرت جنود تركية عثمانية وغير عثمانية

اقليم تراقيا ، على الشاطىء الاوربى ، بناء على طلب هذا أوذاك من المتنافسين لمساعدته ضد غريمه . وأخيرا بعث أورخان سنة ١٣٥٦ م ابنه الاكبر واسمه سليمان للاستيلاء على تراقيا . وعبر سليمان مضيق الدردنيل فى ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، ونزل شبه جزيرة جاليبولى ، وأقام هناك أول جالية تركية عثمانية عدتها ثلاثون الفا من العثمانيين . ثم تبعه اخوه مراد بجيوش عثمانية استولت على بضع مدن بيزنطية ، ومنها أدرنة سنة ١٣٥٧ م . وذات يوم ، بعد ذلك بقليل ، خرج سليمان ليلهو بصقورة فى مرج قريب من بلدة بولير ، فكبا به فرسه كبوة أردته صريعا ، ودفن حيث لقى حتفه . ويعتبر سليمان المؤسس الثانى للامبراطورية العثمانية ، فهو واضع الحجر الاساسى فى بناء امبراطورية العثمانيين بأوروبا ، والامير العثمانى الاول الذى ضمت رفاته أرض أوروبية .

وقعة قوصوه الأولى :

وآلت السلطنة بسبب وفاة سليمان الى أخيه مراد الاول بعد وفاة أبيهما أورخان سنة ١٣٥٩ م . ولم تلبث أوروبا أن ادركت ضخامة القوة العثمانية التى تأسست على عهد أورخان ، لأن مراد جعل غايته تكميل فتوحه فى أوروبا ، فتدخل فى النزاع المستمر بين الاباطرة البيزنطيين ، واستولى على سالونيكا وغاليبولى ، ودخل أدرنة للمرة الثانية . ودل مراد على بصيرة وجرأة ، كأبيه أورخان ، فأخذ فى تدعيم فتوحه الجديدة

وتنظيمها ، وجعل من ادرنة البيزنطية عاصمة عثمانية اسلامية . وبذا نقل محور القوة العثمانية الى أوروبا .

وبينمـــا يقضي مراد وقته فى تدعيم ممتلكاته ، عقد لازارس ملك الدولة الصربية فى الشمال الغربى من البلقان حلفـا من الدول المسيحية المجاورة سنة ١٣٨٧ م لتحطيم العثمانيين . وامتلأت معسكرات هذا الحلف بجند من الصربيين والبلغاريين والبولنديين والمجريين . ولكن جيشا مرتجلا ، يرطن كل جزء من أجزائه بلسان خاص ، لن يستطيع مهما بلغت شجاعته أن يقف لجيش تركى جعله التنظيم الصارم وحدة عسكرية هائلة . وفى شهر يونيو سنة ١٣٨٩ م التقى الفريقان فى ميدان قوصوه . وقاد السلطان مراد الاول جيوش العثمانيين بنفسه واشتدت المعركة ، وحاق بالمتحاربين خسائر فادحة ، وقتل مراد فى هذه الوقعة غيلة بضربة جندى صربى .

على ان العثمانيين مالبثوا ان أسروا الملك لازارس ، وقطعوا رأسه ، واتم ولى العهد بايزيد بن مراد هـذه الموقعة بهزيمة القوات الصربية ، بعد أن فقدت ملكهـا . وســار العثمانيون بقيادة بايزيد الاول بعـد هذه الوقعـة من نصر الى نصر فى البلقان . ونهض سجسموند ، ملك المجر ، لوقف ذلـك السـيل العثمانى ، واستنجد بملوك أوروبا شرقا وغـربا ، واجتمعـت لديه جيوش عديدة . لكن السلطان بايزيد الاول هـزمها عند

نيقوبوليس سنة ١٣٤٦ م . وغدت أطراف الدولة العثمانيـة بعد هذه الوقعة واصلة من أطراف آسيا الصغرى جنوبا الى أطراف البلقان شمالا .

تيمورلنك والدولة العثمانية :

وبينمـا يزهو بايزيد بانتصـاراته ، وينشر سـلطانه على ممتلكاته الواسـعة من عاصـمته أدرنة ، نزلت بدولته ضربة قاصمة جعلت مجهودات العثمانيين تذهب مع الريح . ومصدر هذه الكارثة هبوط الصاعقة تيمور من موطنه تركستان على رأس جحافله من الخيالة الى غرب آسيا ، واقترابه من تخوم الأراضى العثمانية . وتيمور هو الاشيب الأعرج المعروف لهذا النقص الجسمى باسم تيمورلنك ، وهو الذى اسـتحق لقب الاستاذية فى التخريب والقدرة على التدمير مثل جنكزخان دون أن تجمع بينهما صـلة من القرابة أو النسب . وبدأ تيمورلنـك حروبه عنـد ما اسـتولى عـلى دولة المغـول فى تركسـتان ؛ واتخـذ من سـمر قنـد عاصمة له ، فوسع سلطانه بالحروب والفتوح الدامية حتى دانت له دلهي بالهنـد وبغـداد بالعراق ودمشق بالشام .

واستجلب بايزيد العثمانى على نفسه غضب تيمورلنك عندما أعلن عزمه على الاشتراك مع سلطنة المماليـك فى مصر وغـيرها من الدول فى الوقوف فى وجه التوسع التيمورى فى غرب آسيا .

واصطدمت قوات بايزيد بقوات تيمورلنك عند مدينة سيواس فى شرق آسيا الصغرى سنة ١٤٠٠م ، فأطاح هذا القائد الاعرج بقوة الاتراك العثمانيين ؛ وقتل أرطغرل أكبر أبناء بايزيد ؛ ثم اعقب ذلك بالتوغل فى آسيا الصغرى . وفى سهل أنقرة (يوليو سنة ١٤٠٢ م) وقع الجيش العثمانى ذو الانتصارات الكثيرة فى فخ هائل من الخيالة التيمورية الكاسحة ، وذهب معظم الجيش العثمانى بين قتيل وجريح وأسير ، ووقع بايزيد نفسه أسيرا فى يد تيمورلنك . وأوغلت فرقة من القوات التيمورية فى آسيا الصغرى وخربت مدينة بروصة ، وغيرها من ممتلكات العثمانيين حتى سواحل الدردنيل . ثم عاد تيمورلنك ومعه بايزيد محمولا فى قفص من حديد الى سمرقند .

وبات العثمانيون بعد وقعة أنقرة فى حال بائسة . فضاعت جميع ممتلكاتهم فى آسيا ، وغدا سلطانهم أسيرا ، ونشب الخلاف بين أبناء بايزيد من أجل السلطنة . ولكن أدرنة التى أصبحت مدينة اسلامية منذ أيام مراد الاول اشتملت بفضل تنظيمات العثمانيين السابقين على جميع المقومات اللازمة لنهضة الدولة العثمانية مرة أخرى ، اذ استطاع السلطان محمد الاول أن يتغلب على أخوته من أبناء بايزيد ، وأن يصبح حاكما بمفرده (١٤١٣ — ١٤٢١ م) . وبدأ السلطان الجديد يرعى نواة الحكومة العثمانية الجديدة فى أدرنة ، دون أن تدهمه أخطار خارجية ، لأن الدول الاوروبية لم تستطع الافادة من كارثة

العثمانيين ، وضاعت عليهم فرصتهم عنـــدما أمست الدولة العثمانية بغير جيش أو حكومة مستقرة .

ولـما توفى محمد الاول سنة ١٤٢١ م خلفه ابنه مراد الثانى ، الذى أتم احياء الامبراطورية العثمانية ، فأعاد مراد الثانى تنظيم الينى شرية ، واعدها لما اعتزمه من حروب توسعية فى البلقان .

حروب مراد الثانى فى البلقان :

خشى المجريون احياء سلطان الأتراك العثمانيين ، لأن بلادهم تعرضت لحملات من جانب مراد الثانى للحصـول عـلى أبنـاء المسيحيين اللازمين للتجنيد ، فدعا المجريون بلاد أوروبا الى تكوين حلف مسيحى جديد يصد هجمات العثمانيين على منطقة ترنسلفانيا المجرية . وظهرت براعة حنا هنيادى القائد المجرى اثناء الإغارات العثمانية الاولى على ترنسلفانيا ، حتى صار هذا القائد بطل الدول الأوروبية ضد العثمانيين . وضم هذا الحلف ، الى جانب بلاد البلقان ، دوقية برجنـديا وجنوة والبندقيـــة والبـابوية والامبراطورية البيزنطية .

وزحف هنيادى على رأس جيوش الحلفاء ، وعبر نهر دانوب ، وطرد العثمانيين من بلاد الصرب . ثم أوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين شمالى نهر هايموس وجنوبيه ، حتى اضطرهم لاول مرة فى تاريخهم الى طلب الصلح . وتم ذلك الصلح فى يونيـو سنة ١٤٤٤ م وهو صلح سيزجدن الذى تعهد فيه مراد الثانى

ولادسلاس ملك المجر وحلفاؤه على أن يكون نهر دانوب حــدا فاصلا ، لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنين . وأقسم مراد الثانى على القرآن ، كما أقسم لادســلاس على الانجيل لاحترام هذا الشرط ، وتخلى مراد الثانى بعد ذلك عن السلطنة وتولى ابنه محمد الثانى .

وأتاح صلح سيزجدن للعثمانيــين فرصــة لتنظيم جيوشهم وشئونهم الداخلية على عهد سلطانهم الجديد ، غير أن لادسلاس ملك المجر عزم على نقض الصــلح ، وهجمت جيــوش مجرية برغــم الهـــدنة عــلى أراضى العثمانيـــين جنــوب نهر دانوب وعند مدينة فارنا لقيت جيوش حنا هنيادى قوات العثمانيين ، التى تولى قيادتها مراد الثانى مرة أخرى ليقتص لنفســه من أصحاب القسم على الانجيل ، وانزل مراد الثانى بحنا هنيادى هزيمة فادحة أوائل نوفمبر سنة ١٤٤١ م وتخلى مراد الثــانى مرة أخرى عن السلطنة لابنه محمد الثانى .

وقعة قوصوه الثانيــة :

لم يهدأ حنا هنيادى برغم اندحار جيشــه ، ومصرع ملــكه لادسلاس فى فارنا ، بل ظهر مرة أخرى فى الميــدان عــلى رأس جيش صغير من خيرة جند المجريين ، وظهر مراد الثــانى مرة أخرى بناء على طلب ابنه محمد الثانى . وعند قوصــوه التقى العثمانيون بجيش هنيادى ، ودارت رحى معركة حامية مــدى ثلاثة أيام،انتهت بانهزام المجريين هزيمة شنيعة سنة ١٤٤٨ م .

وعجزت المجر بعد هذه الوقعة عن القيام بأى مجهود حربى لعدة سنين . اذ فقدت آلافا من زهرة فرسانها ، وشلت أداتها الحربية . وظل مراد الثانى فى السلطنة حتى توفى سنة ١٤٥١ م .

سقوط القسطنطينية :

تولى السلطان محمد الثانى نهائيا عرش العثمانيين عقب وفاة ابيه . وقبل ذلك بثلاث سنوات ، توج قسطنطين الحادى عشر امبراطورا فى الدولة البيزنطية ، التى لم تتعد مساحتها أسوار القسطنطينية واقليما صغيرا مجاورا لها . وتطلع العثمانيون الى هذه العاصمة ، وصمموا على الاستيلاء عليها ليأمنوا سلامة المواصلات بين أملاكهم فى أوروبا وآسيا ، وليؤسسوا بها عاصمة جديدة لدولتهم ، فضلا عن أنها نهاية الشوط الحربى الذى بدأه عثمان من جوف آسيا الصغرى . واخذ محمد الثانى يعد العدة العسكرية الضخمة علنا فى غير خشية من الامبراطور ، بعد أن حصل من المجر والبوسنة والبندقية على وعد بوقوف كل منها على الحياد التام . ثم أعلن محمد الثانى الحرب على الامبراطور فى خريف ١٤٥٢ م ، وأخذ فى حصار القسطنطينية .

أما أهل القسطنطينية فاعتقدوا أن مدينتهم لن تسقط فى يد فاتح مهما أوتى من مهارة وجسارة وبأس ، فكثيرا ما طمع الفاتحون فى الاستيلاء عليها ، وارتدوا جميعا عنها خاسرين . واهتم أهل القسطنطينية بالجدل الدينى حول الاتحاد الذى تم

اواخر تلك السنة بين كنيستهم الارثوذكسية والكنيسة البابوية الكاثوليكية ، أكثر من اهتمامهم باعلان محمد الثانى الحرب . اذ استنجد الامبراطور بالبابا فى روما عندما علم باستعدادات العثمانيين الحربية ، ووقع اتفاقية الاتحاد بين الكنيستين لقاء ارسال المساعدة . ثم انفجرت الثورة فى القسطنطينية والعثمانيون على أبوابها ، وذلك عندما أقام الامبراطور بكنيسة أيا صوفيا صلاة مؤذنة بالاتحاد البغيض بين الارثوذكسية والكاثوليكية ، واعلن أحد الزعماء البيزنطيين أنه يفضل ان يرى عمائم العثمانيين عن ان يرى قلانس رجال الدين الكاثوليكيين بالقسطنطينية .

وتخلت المدن الايطالية صاحبة الامتيازات التجارية فى القسطنطينية عن مساعدة الامبراطور ، بل أسرعت راجوزة وجنوة والبندقية للتقرب من الدولة العثمانية الفتية ، اذ رأت فى فوزها على البيزنطيين فرصة لتدعيم تجارتها الواسعة . ولذا لم يأت لنجدة العاصمة البيزنطية من عند جيرانها المسيحيين سوى مائتين من الجنود البابوية ، وعدد من السفن الايطالية ، وعجزت قوات الامبراطور عن حماية الأسوار لقلة عددهم ، ولم يستطيعوا المقاومة أكثر من شهرين . وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م ، اقتحم العثمانيون الاسوار بعد تخريبها ، ولقى الامبراطور البيزنطى مصرعه فى القتال الذى امتد الى شوارع القسطنطينية . وفى منتصف النهار دخل السلطان محمد الثانى العاصمة البيزنطية دخول الفاتح ، وأمر جيشه بالكف عن القتال ، ثم دخل كنيسة

أيا صوفيا ، وحولها الى مسجد جامع . وأمر السلطان محمد الفاتح - وهذا هو لقبه فى التاريخ - بترميم ما أحدث الحصار بأسوار القسطنطينية من الدمار ، وجعل من المدينة البيزنطية عاصمة له ، وبذا انتهت امبراطورية البيزنطيين .

امتداد الدولة العثمانية الى البلاد العربية

الصفويون فى ايران :

بينما تمتد الفتوحات العثمانية فى أوربا من اقليم الى آخر ، فى البلقان وأوروبا الوسطى وشمالى نهر دانوب ، اتجهت أبصار العثمانيين كذلك نحو البلاد الاسلامية المتاخمة لهم فى آسيا الصغرى ، وأخذوا يحلمون بالسيادة العليا فى العالم الاسلامى . وانتشرت فى الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حماسة دينية ، توجهت أولا لحرب الصفويين فى ايران . واشتد العداء فى ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى الفاتح . ذلك أن الشاه انتهز النزاع الذى نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثمانى ، وحرض الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة ضد العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية . واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثمانى الذين اضطروا الى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الاول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢ م) . ولذا

بدأ السلطان سليم سلطنته باخماد ثورة الشيعة فى آسيا الصغرى ، وانزل بأتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد . فهجم الشاه اسماعيل على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، وأصبح العداء سافرا بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان سليم جيشا كبيرا سنة ١٥١٤ م (٩٢٠ هـ) للقضاء على الشيعة ودولتهم فى ايران ، وقاد هذا الجيش بنفسه ، فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقا فى ايران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيرا عند تشالديران بالقرب من تبريز فى ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل . وعاد السلطان سليم الى بلاده ، بعد أن أدخل ديار بكر وكردستان فى أملاك دولته .

فتح الشام ومصر

وقعة مرج دابق بالشام :

أدى استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من ايران الى امتداد أملاك الدولة العثمانية الى منطقة الأطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية ، وهى المنطقة الممتدة من وادى طوروس فى الشمال الغربى من الشام الى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دلغادر المشمول بحماية السلطنة المملوكية ، ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح ، فاتهمه السلطان سليم الاول

بالعداء للعثمانيين ، وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥١٥ م وبذلك أضحى العثمانيون على مقربة من الاراضى المملوكية من ناحية الشام ، فضلا عن استيلائهم على بلاد الأطراف التى تدين بشىء من التبعية لسلاطين المماليك .

وأحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذه الاعتداءات . فعمد الى عقد حلف مع الشاه اسماعيل الصفوى فى ايران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين الغورى وسليم الاول ، عندما فر احد اولاد الامير احمد اخى السلطان سليم الى حلب ، فرارا من بطش عمه . ومن ثم أخذ العداء يستحكم بين السلطانين ، ويتربص كل منها بالآخر الدوائر فقنصوه الغورى يحقد على سليم استخفافه بحماية المماليك على أمارة دلغادر وضمها الى أملاكه دون مجاملة ، وسليم الاول يسيىء الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ، وايوائهم أميرا عثمانيا يهدد العرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ١٥١٦ م جاءت الأخبار الى القاهرة باستعداد العثمانيين فى القسطنطينية (استانبول) للحرب . وأدرك الغورى أن الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الاستعداد ، وأعد جيوشه وخرج بها الى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦ م . ثم بعث رسولا الى سليم الاول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق » أى داخل الاراضى الشامية المملوكية

وهى عبارة تدل — أن صحت — على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الاراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار الغورى من حلب شمالا الى عينتاب وشهد قوات العثمانيين تقترب من الاراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عند مرج دابق (٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ م) . فعند أول اصطدام بين الفريقين فر الامير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الايسر فى جيش الغورى وانضم الى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته . وأسفرت واقعة مرج دابق أخيرا عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل اسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للمماليك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرمى بالقوس والنشاب والمزراق لا يجدى شيئا . ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الأول مدينة حلب ، وقوبل بالترحاب من أهلها . وفى شهر اكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها، وبذا خضع اقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

فتح مصر :

هزت أخبار انتصارات سليم الاول القاهرة ، حيث اقام طومانباى نائبا عن السلطان قنصوة الغورى . ورأى طومانباى بعد سلطنته أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام ،

قبل ان يصلوا الى الأطراف المصرية ، فأرسل حملة على رأسها الامير جان بردى الغزالى فى ديسمبر سنة ١٥١٦م للوقوف في وجه العثمانيين شمالى غزة ، وهو أحد الامراء الذين فروا من مرج دابق . وخان هذا الامير ، على نحو مافعل خاير بك ، فعرض جنده للهزيمة دون أن يقاتل العثمانيين قتالا جديا ، وبذا وصلت جنود العثمانيين الى غزة فى طريقها الى مصر .

وأعد طومانباى جيشه على عجل ، وخرج الى الريدانية وهى الأطراف الممتدة من العباسية الى مصر الجديدة الحالية ، وعزم على السير من الريدانية الى الصالحية بمديرية الشرقية الحالية ليلتقى بالعثمانيين بعيدا عن القاهرة . غير أن أمراء جيشه أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية ، والتربص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره . وفى ١٦ يناير سنة ١٥١٧م جاء الخبر الى الريدانية بان العثمانيين وصلوا الى العريش ، واستولوا عليها ، وهى أول البلاد المصرية . وتتابعت الانباء بزحفهم دون مقاومة حتى وصلوا الى الصالحية . عند ذلك قرر طومانباى السير الى الصالحية أملا فى مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن أمراء المماليك تغلبوا على طومانباى مرة ثانية ، وآثروا البقاء فى الريدانية .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ م نشبت المعركة بين طومانباى والسلطان سليم ، وحمى القتال حتى ثار الغبار وعميت الإبصار . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك ، وفر طومانباى بعد أن

بقى فى ميدان القتال حتى النهاية . ولم يكن ثمة منـــاص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخونة ، وافشـــاء الخطة المملوكية الى العثمانيين .

وفى ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانيـــة الى جهة بولاق ، وجعل مقر قيادته الموضع الذى تقوم عليه المطبعة الاميرية فى الوقت الحاضر . ثم دخل سليم القــاهرة فى اليوم التالى من باب النصر . غير أن طومانباى بغت المعسكر العثمانى ذات ليلة مظلمة ، تمهيدا لمعركة أعد لها ما استطاع أن يجد من بقايا المقاومة المملوكية . لـكن سليما أفسد عليه خطته ، وأنزل به هزيمة ، فر بعدها طومانبــاى الى الصعيد ، ثم اختفى عنـــد أحد شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية ، وخاف هذا الشيخ مغبة اخفاء طومانبـــاى وسلمه للعثمانيين . وفى ٢٣ ابريل سنة ١٥١٧ . أعـــدم العثمانيون طومانباى ، وعلقت جثتـــه عـــلى باب زويلة .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقلت بذلك سيادة سلاطين المماليك على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينـــة الى التبعية للسلطان العثمانى ، واصبح الخطباء فى المساجد يدعون للسلطان سليم باعتبـــاره « مالك البرين ، وخاقان البحرين ، وقاهر الجيشين وملك العـــراقين وخادم الحرمين » . وللمؤرخ المعاصر ابن اياس الذى شهد هذه الحوادث عبـــارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر ، وأنها صارت ولاية تابعة ، بعد أن

كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لانه خادم الحرمين الشريفين ، وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون » .

بعض نتائج الفتح العثمانى لمصر

انتقال الخلافة الى القسطنطينية :

ادى سقوط مصر فى أيدى السلطان سليم الى انتقال الخلافة العباسية من القاهرة الى القسطنطينية ، عاصمة الدولة العثمانية . ذلك أن آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، وهو المتوكل ، انضم الى جانب السلطان سليم عقب انتصاره فى وقعة مرج دابق ، وموت السلطان المملوكى قنصوه الفورى . ورحب السلطان سليم أول الامر بالخليفة ، واصطحبه معه فى هجومه على مصر ، ليستفيد من مكانته فى اكتساب المصريين . على أن الغرور داخل الخليفة ، واستعمل السلطات التى نالها من السلطان العثمانى أسوأ استعمال ، فأرسله السلطان سليم منفيا الى القسطنطينية فى يونيو ١٥١٧م .

والمتواتر أن الخليفة العباسى تنازل عن منصبه للسلطان سليم، واعطاه شارات الخلافة ، وهى البردة النبوية التى لبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبضع شعرات من لحية النبى ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب . على ان اقتران كلمة خليفة باسم السلطان العثمانى لم تظهر رسميا فى المكاتبات الرسمية للدولة

الا فى القرن الثامن عشر الميلادى . واستغل السلطان عبد الحميد الأول لقب الخلافة وماله من اجلال فى العالم الاسلامى ، ليقوى مركز دولته أمام القوى المسيحية الاوروبية الطامعة فى الممتلكات العثمانية .

وفى معاهدة كجق كينارجى التى أبرمت بين كترين الثانية ملكة روسيا والسلطان عبد الحميد الاول سنة ١٧٧٤ م ، اقترن اسم هذا السلطان بكلمة خليفة ، ونال حق الاشراف على شئون المسلمين فى شبه جزيرة القرم .

ثم اصبح لقب خليفة ركنا اساسيا فى الدستور العثمانى على عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى القرن التاسع عشر الميلادى . فجاء فى الفقرة الثالثة من دستور مدحت باشا الصادر فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م ، أن السلطنة العثمانية هى وريثة الخلافة الاسلامية ، وانها تؤول وراثيا الى اكبر ابناء البيت المالك . ونصت الفقرة الرابعة من هذا الدستور أيضا على أن الباب العالى هو حامى حمى الدين ، باعتباره خليفة المسلمين .

سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن :

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على فتح مصر ايضا اقتران اسم السلطان العثمانى بلقب « خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة وأركانها .

ومن ثم اهتم العثمانيون بالحجاز لانها موطن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وعمدوا الى بسط سلطانهم عليها .

ومهدت انتصارات العثمانيين السبيل لتحقيق أمانيهم في الاستيلاء على الحجاز . اذ أرسل شريف مكة الى السلطان سليم عقب انتصاره فى مصر يعلن تبعيته له ، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس . وصار الحجاز كذلك ولاية تابعة للسلطان العثمانى . على أن الشريف أمير مكة ظل محتفظا بمكانته الدينية ، وتمتع بحق تكوين قوات محلية من البدو وتخضع لأمره .

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على سائر شبه جزيرة العرب ، اذ خشوا ماتعرضت له السواحل العربية من اغارات البرتغاليين الاوروبيين بعد أن هددت السفن البرتغالية بلاد اليمن وسواحل البحرين ، وبعث مشايخ العرب برسلهم الى القسطنطينية يطلبون النجدة لوقف هذه الاغارات البحرية .

وبعث السلطان سليمان سنة ١٥٣٨ م حملة بحرية ، خرجت من موانى مصر فى البحر الاحمر ، واستولى العثمانيون على عدن ومسقط ، وحاصروا كثيرا من الجزر والموانى التى احتلها البرتغاليون بسواحل بلاد العرب . على أن مجهودات العثمانيين البحرية عجزت عن صد البرتغاليين تماما ، ولقى أسطولهم هزيمة بحرية سنة ١٥٣٨ م . وبذا قصر العثمانيون جهودهم على اتمام فتح اليمن ، التى صارت منذئذ ولاية عثمانية .

سيادة العثمانيين على بلاد المغرب

اسرة بربروسا :

وبعد أن تم للسلطان سليم فتح مصر امتد نفوذ العثمانيين الى تونس والجزائر بفضل اخوين من اسرة بحريه مشهورة يونانية الاصل . ونشأ عروج بن يعقوب مؤسس هذه الاسرة فيجزيرة لسبوس اليونانية ، والتحق بالبحرية العثمانية . ولم يلبث ان تركها ، واحترف القرصنة الشائعة وقتذاك فى البحر الابيض المتوسط ، واشتهر باسم بربروسا ، أى صاحب اللحية الحمراء ، واشترك مع بربروسا فى اغاراته البحرية على السفن أخوه خيرالدين ، الذى اشتهرفيما بعد باسم بربروسا الثانى .

وامتد نشاط هذين الأخوين الى تونس والجزائر لأن سلطان تونس محمد السادس الحفصى استدعى بربروسا الأول ، وعهد اليه بحكم جزيرة جربة ليجعل منها قاعدة بحرية تمنع اغارات السفن الأسبانية على السواحل التونسية ، بعد انتكررت هذه الاغارات فى جراة متزايدة . واستنجدت بلاد الجزائر ببربروسا كذلك ، ليدفع عنها أذى الاسبانيين الذين استولوا على احدى الجزر الجبلية الواقعة امام مدينة الجزائر نفسها ، دون ان تتحرك الدولة المراكشية صاحبة السيادةعلى البلاد . فاستطاع بربروسا أن يمنع اغارات الأسبانيين علىالشواطىء الجزائريةوبسط نفوذه على بلاد الجزائر .

دخول اسرة برباروسا فى خدمة السلطان العثمانى :

وفى سنة ١٥١٨ م عين برباروسا الأول أخاه خير الدين على الجزائر ، ثم خرج هو ليمد نفوذه على منطقة تلمسان ، التى عمل الاسبانيون على احتلالها ، ولكنه قتل فى احدى المعارك ، فتولى خير الدين البلاد التى خضعت لأخيه ، وعمل على اتمام رسالته فى بلاد المغرب . غير أن نواب الدولة المراكشية ببلاد الجزائر ثاروا عليه ، وهددوه من كل ناحية ، فاستنجد بالسلطان سليم الذى انتهى وقتذاك من فتح مصر . واستجاب السلطان سليم لهذا النداء ، وادخل خير الدين فى خدمته ، ومنحه لقب بكلر بك ، أى أمير الامراء ، ثم أمده بالفى جندى تركى مع مدفعيتهم ، واربعة الاف من الجند المتطوعة . وفى سنة ١٥١٩ م وطد خير الدين سلطانه فى الجزائر ، وطرد الأسبانيين من معاقلهم القريبة من هذه البلاد . وفى سنة ١٥٣٤ م احتل تونس نفسها كذلك ، وادخل بلاد المغرب فى التبعية للدولة العثمانية .

فتح العراق

وفى الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم الى بلاده بعد اتمام فتح مصر وادخال بلاد المغرب فى نفوذه ، عمد الشاه اسماعيل الصفوى الى الهجوم على العراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين الى الأطراف العراقية من ناحية الشام . فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين فى كربلاء ، ثم عين

حاكما فارسيا اسمهابراهيم خان على بغداد ، وعاد الى بلاده . وعلا شأن الايرانيين ونفوذهم فى العراق ، اذ لقوا تعضيدا من الشيعة أصحاب الكلمة العليا بين القبائل العراقية الجنوبية ، وجاء التجار الايرانيون الى بغداد ، مما جعل الرخاء يسود العراق . على أن العثمانيين خشوا ازدياد نفوذ الايرانيين الشيعيين فى العراق ، واستنكروا الاضطهاد الذى نزل بأهل السنة من سكان بغداد . ومن ثم أخذ السلطان سليمان العثمانى (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) بعد العدة للقضاء على الصفويين الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن أطراف دولته هناك .

وجمع السلطان سليمان قواته فى شمال ايران وأعدها للزحف على العراق . ثم سار جنوبا عبر كردستان ليلحق بوزيره ابراهيم باشا الذى سبق السلطان فى الاغارة على منطقة الموصل . ولقى السلطان سليمان متاعب جمة فى زحفه بسبب شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والانهاك من جنده . وبعد مشقة استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ، ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة فى القرن السادس عشر الميلادى . ودخل سليمان بغداد دون أن يلقى عليها حصارا أو يلقى مقاومة من أهلها . واتبع السلطان سياسة حكيمة ليعيد الهدوء والطمأنينة الى بغداد . فشجع كبار رجال المدينة على الاجتماع به ، وزار اماكن الشيعة المقدسة

فى حى الكاظمية ، ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وأعاد بناء مسجد الامام أبى حنيفة الذى سبق للايرانيين ان خربوه ، وزخرفه بالحلى ، وأصلح الجسور والقنوات لتحسين الزراعة والتجارة . ثم عاد السلطان سليمان الى القسطنطينية بعد أن ترك فى بغداد حكومة عثمانية ، وغدت العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية ، عدا سنوات قليلة عاد الصفويون فيها الى مدينة بغداد . ذلك ان الشاه عباس انتهز اضطراب الادارة العثمانية فى بغداد ، وانتشار المجاعات فى المدينة بسبب الجفاف وسوء المحاصيل واستولى عليها دون عناء سنة ١٦٢١ م ، وتجدد بذلك النزاع مرة أخرى بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق .

ولم يستطع ولاة العثمانيين فى شمال العراق استعادة بغداد ، فاضطر السلطان العثمانى مراد الرابع ان يتولى بنفسه قيادة حملة الى العراق سنة ١٦٣٨ م ، وسار الى حلب على حين بعث المدافع على ظهور السفن فى نهر دجلة . وفى طريقه عبر السلطان مراد نهر الزاب الأكبر ونهر الزاب الاصغر وهما من فروع دجلة ثم اجتاز كركوك ، وعسكر اخيرا امام بغداد وحاصرها حصارا شديدا وانزلت المدفعية العثمانية بأسوار بغداد تخريبا موحشا ، ودخلت القوات العثمانية المدينة ، حتى لايستطيع الايرانيون الاستيلاء عليها مرة أخرى ، السلطان مراد الرابع بناء مزارات السنة ، وحصن أسوار

المدينة حتى لا يستطيع الايرانيون الاستيلاء عليها مرة أخرى .
وأصلح السلطان كذلك أسواق المدينة وحدائقها ، ونظم
موارد تغذية أهلها .

وعين السلطان مراد الرابع على حكومة العراق حسن باشا
أحد ضباط البنى شرية ، وترك معه فرقة من الجيش . وبعد
جولة فى مدينة بغداد عاد السلطان الى القسطنطينية ، وظل
العراق منذئذ ولاية خاضعة للسلطة العثمانية المركزية ، يديرها
سلسلة من الباشوات الاتراك حتى أيام الحرب العالمية الاولى .


الامبراطورية العثمانية
في أقصى اتساعها
سنة ١٥٥٠م
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
بلاد العرب
فارس
القوقاز
أرمينيا
الموصل
بغداد
نهر الفرات
حلب
دمشق
القاهرة
مصر
الاسكندرية
السودان
الحجاز
مكة
اليمن
انقرة
قونية
أضاليا
بروصة
مقدونيا
بلغاريا
صربيا
البوسنة
الأفلاق
البغدان
المجر
البندقية
إيطاليا
تونس
تلمسان
طرابلس
فاس
مراكش

نظم الحـكم فى الدولة العثمانية

السلطة المركزية

السلطان :

هيمن السلطان عـلى ممتلـكاته الشاسعـة وفق النظم التى اتبعهـا سـائر حكام الدول الاسـلامية ، فهـو مقيـد فى سلطاته بحدود القرآن والشرع الاسلامى والاجماع ، وفيمـا عدا ذلك فهو مصدر السلطات جميعها . وله الحق فى اصدار القوانين فى غير ما نص عليه القرآن والشرع ، واشتهرت مجموعة القوانين العثمانية السلطانية باسم القانونامه . وارادة السلطان هى المحرك الاساسى لسائر أعمال الحكومة ، فالوزراء ورجـال المالية وقادة الجيش وولاة الاقاليم يتولون مناصبهم بتفـويض منه ، ويذهبون عنها ــ مهما عظمت مكانتهم ــ بكلمةواحدةمنه .

وفاقت اختصاصات السلطان العثمانى حدود الخلفاء المسلمين من قبل ، اذ اعتبر السلطان الدولة العثمانية ملكا له ، وهو الذى يتولى شئون رعيته . ولم يكن لموظفى السلطان مهمة غير تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فلم يعد الواحد سـوى كلار ، ومعناها الخادم فى اللغة التركية .

الحكم والادارة :

واختار السلطان وزراءه وسائر الموظفين الذين تولوا مرافق الدولة وفق نظام دقيق أملته طبيعة العثمانيين الحربية ، فلم يعرف آل عثمان من المؤهلات لوظائف الدولة سـوى القـدرة

الشخصية والقوة الجسمية والطلعة الحسنة . ودأب العثمانيون على جميع أبناء المسيحيين من رعاياهم كل أربع سنوات ، وبعثوا الموظفين المكلفين بذلك ، وهم المعروفون باسم دوشرمة ، الى بلاد البلقان والمجر وسواحل آسيا الصغرى الغربية وسواحل البحر الاسود الجنوبيـة والشرقيـة ، فيجمع أولئك الموظفون أقوياء الأطفال واحسنهم طلعة ، فيما بين العاشرة والعشرين . ثم يقسم أولئك الصغار الى قسمين ، فيدخل واحد من كل عشرة تقريبـا فى القسم الاول ، المعروف باسم غلمان الخاصة « اتشى اوغلان » ، بعد اختبار فى الجسم والذكاء والطلعة ، وتدخل البقية فى المجموعة المعروفة باسم الغلمـان الأجانب « آجم أوغلان » ، وهم الذين يصبحون فرقة الينى شرية من الجيش العثمانى

ويذهب افراد القسم الاول الى قصـور السلطـان أو بيوت الحكام الكبار ، حيث يتعلمون الدين الاسلامى واللغة التركية وفنون الفروسية واللغة العربية كذلك . وفى سن الخامسة والعشرين يتلقى أولئك الشبان التدريب العسكرى ، ويلحقون بعد ذلك بالوظائف المختلفة . وبسبب عدم الفصل بين السلطات المدنية والحربية تدرج أولئك الشبان بين مراتب الادارة والجيش لا فرق فى ذلك بين صغارهم وكبارهم . وهكذا وجد السلطان أداة مدربة ، معدة لتنفيذ أوامره فى الشئون المدنية والحربية على يد هذه الطائفة المختارة .

الوزراء :

واستعان السلطـان العثمـانى فى تصريف شئـون الدولة

بمجموعة من الوزراء . اذ تولى أولئك الوزراء تزويد السلطان بالارشادات والآراء زمن الحرب والسلم ، فضـــلا عن الادارة وشئون الحكم . وانعم السلطان على كـــل من الوزراء بلقب باشا ، وزاد عليهم رئيس الوزراء بلقب الصدر الاعظم . وتحمل رئيس الوزراء أعباء الدولة نيابة عن السلطان ، فهو يمثل السلطان في ادارة الشئون الحربية والمدنية ، وفي الفصل في المنازعات ، وهو الذى يعين كبار الموظفين في الدولة كذلك .

وحمل الصدر الأعظم خاتم الدولة ، وأشرف على العاصمـــة العثمانية وأسواقها ، وامتاز عن سائر الوزراء بالخروج في موكب من حرس السلطان الخاص عند ذهابه الى الديوان . على أن منصب الصدر الاعظم رغم علو شأنه لم يعط صاحبه حقوقا تجعله بمأمن من العزل ، فللسلطان الحق في عزله في أى وقت ، وذلك باسترداد خاتم الدولة منه . ثم لم يلبث هـــذا المنصب أن ازداد قوة وخطورة ، بسبب ضعف السلاطين ، فاتخـــذ الصدر الاعظم مقرا خاصا به ، بعد أن جرى العرف مـــدة على ذهابه الى قصر السلطان لسماع الأوامر السلطانية . واستقر ذلك التطور سنة ١٦٥٤ م حين أصدر السلطان محمد الرابع أمرا سلطانيا باطلاق اسم باب الباشا على مقر الصدر الاعظم . ولم يكن هذا المقر العظيم سكنا خاصا فحسب ، بل أصبح دارا يأتى اليها موظفو الدولة لتصريف أعمالهم . .

وجرى المصطلح في الدولة العثمانية على تسمية الوزراء باسم

وزراء القبة نسبة الى طوب قبو سراى ، وهو أحد قصور الباب العالى ، لانهم عقدوا اجتماعاتهم فى غرفة ذات قبة بذلك القصر . واختلف عدد الوزراء كثرة وقلة حسب مهام الدولة ، وتولى أولئك الوزراء أحيانا الحملات الحربية ، وأطلق على من تولى منهم حملة صغيرة اسم سردار . وعندما خرج الصدر الأعظم فى حملة حربية أو غاب عن البلاد ، حل أحد أولئك الوزراء محله ، ويعرف باسم قائم مقام . ثم لم يلبث اسم قائم مقام للصدرالاعظم أن أصبح منصبا دائما فى الدولة زمن السلم والحرب على السواء .

رئيس الكتاب والدفتردار :

وساعد الصدر الاعظم والوزراء فى الادارة فئة من الموظفين الاداريين على راسهم رئيس الكتاب ، وفئة من الموظفين الماليين على رأسهم الدفتردار . وتولى رئيس الكتاب تنظيم علاقةالدولة بجيرانها من الدول الاخرى ، واعداد التقارير التى يرفعها الصدر الأعظم للسلطان . واصدار الفرمانات الى الولايات العثمانية . وفى هذه دلالة على أن رئيس الكتاب قام بما تقوم به وزارتا الخارجية والداخلية فى الدولة الحديثة .

وتولى الدفتردار الاشراف على مالية الدولة ، وهو يلى الصدر الاعظم فى الرتبة ، ويقف من رئيس الكتاب على قدم المساواة . وله الحق فى مقابلة السلطان مباشرة لعرض المسائل الخاصة بالميزانية . واشتملت الدفترخاناه على خمس وعشرين قسما أو قلما منها :

١ - قلم بويوق روزمانه ، وهو قلم الادارة المركزية التى تأتى اليهـا التقارير من الأقلام الأخرى ، وعليه اعداد ميزانية الدولة سنويا أو كل سنتين .

٢ - قلم الباشمحاسب ، وهو رئيس الادارة التى تعـد التقارير الخاصة بالضرائب المطلوبة من الولايات ، ويتولى القلم تسجيل العقود التى تخص الصالح العام للدولة .

الديوان :

واشتمل هذا الديوان على جميع وزراء القبة وغيرهم من كبار موظفى الدولة ، عند طلب المشورة فى شئون البلاد العامة . ومنذ عهد السلطان محمد الثانى (سنة ١٤٥١ م) تولى الصدر الاعظم رئاسة جلسات الديوان . وحضر هـذه الجلسات الدفتردار وقاضى العسكر واغا الينى شرية وأمير البحر .

وعقد الديوان اجتماعاته أربع مرات فى الاسبوع ، أيام السبت والاحد والاثنين والثلاثاء . واعتادت هذه الجلسات أن تنعقـد فى الصباح ولا تنتهى الا فى ساعة متأخرة من الليل . وعند انتهاء الاجتماعات الاسبوعية يستقبل السلطان الأعضاء ليعرف آراءهم وما اتخذوه من قرارات .

الجيش :

بدأت الدولة العثمانية دولة عسكرية هدفها الأول التوسـع والفتح ، ولا هم للسلطة المركزية الا تأمين البلاد داخليا ليتفرغ الجيش للقتال . واستمدت الدولة أهم فرقها الحربية من المنبع الذى استمدت منه حكام الادارات والولايات .

فبعد تقسيم الاطفال المسيحيين واختيار أحسنهم بنيـة ، يبدأ الباقون المعروفون باسم «آجم أوغلان» أو الغلمان الاجانب التدريب الخاص باعدادهم لتكوين فرق الجيش ، وهى الفـرق الحربية التى أطلق عليها اسم الينى شرية .

ولقى هذا النظام الحربى عناية فائقة من السلطة المركزية منذ عهد السلطان أورخان ، المؤسس الاول للينى شرية . وبدأت قوة هذه الفرق تعلو منذ عهد السلطان سليم الاول ، وتتدخل فى تولية الوزراء وعزلهم وحوالى نهاية القرن السادس عشر سمحت الدولة لافراد الينى شرية بالزواج ، فكثرت أعدادهم ؛ وبدأ الوهن يمتد الى صفوفهم ؛ حتى أصبح الابناء يرثون مراكز آبائهم وامتيازاتهم دون القيام بالخدمات المطلوبة .

السـباهى :

وتأتى فرق الخيالة المعروفة باسم السباهى فى المرتبة التالية للينى شرية ، ونظم العثمانيون هذه الفرق على أسس اقطاعية . فمنحوا الجنود المتازين من العثمانيين وغيرهم اقطاعات مـن الارض مقابل تأديتهم الخدمات الحربية . والتعهد بامداد الجيش كذلك بعدد من الفرسان بكامل عتادهم . وتفاوتت الاقطاعات والتزاماتها ، فالاقطاع الصغير يطلق عليه اسم « تيمار » والكبير يعرف باسم « زعامت » . واستطاعت الدولة العثمانية أن تستمد من هذه الاقطاعات فرقا كبيرة من الجيش . فجاء من اقطـاعات العثمانيين فى أوروبا على عهد سليمان الاول ثمانين الف فارس ، ومن آسيا خمسين ألفا .

وتولى قادة فرق السباهى بعض ادارات الدولة وولاياتها . ونظم السلطان سليمان القانونى شئون هذه الاقطاعات بعد أن تفشت بين أصحابها روح التهرب من أداء الالتزامات الحربية والاستقلال بأمورهم . فحرم على أصحاب الاقطاعات التصرف فى أراضيهم أو السماح لأبنائهم بأن يرثوا الاقطاعات دون موافقة السلطان ، وجعل الوفاء بالالتزامات الحربية الشرط الاساسى لاحتفاظ الملاك بأراضيهم .

الأسطول :

واهتم العثمانيون بانشاء أسطول يؤازر حركات جيوشهم . فأكثر السلطان سليم من بناء السفن حتى أضحى للدولة العثمانية اسطول حربى كبير . واستمد العثمانيون الاخشاب اللازمة لبناء السفن من أراضى الغابات الواقعة حول شواطىء البحر الأسود ، على حين زودت مناجم البغدان والافلاق وآسيا الصغرى مصانع الدولة بما احتاجته من المعادن اللازمة لبناء السفن .

وملأت الدولة العثمانية أساطيلها فى بادىء الأمر بالجند المرتزقة من الايطاليين واليونانيين ، الذين دخلوا فى خدمتها جريا وراء المغانم ، وعملوا أحيانا على استمرار هذه الحروب طمعا فى بقاء خدمتهم . ثم قسم العثمانيون دولتهم الى مناطق . لكل منها نصيب معين فى تزويد السفن بالبحارة . لكن لم يبلغ الأسطول العثمانى درجة القوة التى بلغها الجيش ، اذ سرعان

ماترك الناس خدمة الاسطول ، وفضلوا نظام « البـدل » ودفع المال ليحصلوا على الاعفاء من الخدمة البحرية ، لأن الدولة ظلت برية لا بحرية . على أن قائد الاسطول تمتع بسلطات واسعة في الادارة المركزية ، فاشترك في جلسات الديوان ، وفى توجيـــه سياسة الدولة ».

القضاء ورجال الدين :

وساعد السلطان فى شئون الحكم والادارة بالعاصمة العثمانية شيخ الاسلام ، الذى يعينه السلطان من طبقة العلماء . وحرص السلاطين على كسب تأييد شيخ الاسلام في جميـع الاعمـــال المدنية والحربية ، فمهمة شيخ الاسلام مراعاة اتفـــاق أعمال الحكومة ومشروعاتها مع نصوص القرآن وأحكامه ، ولم تقض الحكومة فى اى عمل من الأعمال الـكبرى ، أو تبرم معاهدة أو تعلن حربا الا بعدالحصول على موافقة شيخالاسلام . وخضعت الهيئات القضائية كذلك لاشرافشيخالاسلام . وقضاة العاصمة والاقاليم يتلقون منه الفتاوى والتعليمات ، فيما ليس منصوصا عليه فى القرآن والسنة واجماع الفقهاء . ولا يجرؤ قاض مهما علت منزلته في مراتب القضاء على أن يعصى أوامرشيخالاسلام».

الحكم العثمانى فى الولايات

نظام تقسيم الدولة العثمانية :

قسم العثمانيون دولتهم الواسعة الى مناطق ادارية ليسهل الاشراف عليها وحكمها ، وتطور هـذا التقسيم مع نمو الدولة

وفتوحاتهـا . فانقسـمت ممتلكات العثمـانيين أولَ الامر الى مناطق أطلق عليها اسم صنجقيات أو لواءات للتمييز بين عمالها وعمال الحكومة المركزية ، فتولى كل منطقة حاكم يعرف باسم صنجق بيك ، أو مير لواء . وأشرف على بكوات هذه الصناجق حاكمان يعرف كلٌ منهما باسم « بكلربك » ، أحدهما لمقاطعات الاناضول ، والآخر لمقاطعات أوروبا ، وذلك قبـل أن يمتد حكم العثمانيين الى الشرق الأوسط العربى . وحمل كل من هـذين الحاكمين كذلك لقب باشا ، الذى يبـدو أنه مشتق من كلمة بادشاه الفارسيّة ، ومعناها خادم السلطان .

غير أن اتساع الدولة العثمانية خلال القرن السـادس عشر الميلادى أدى الى ضم بعض الصناجق ، وخلق ولايات جـديدة يتولى ادارتها باشوات من وزراء السلطان غالبا . وسارت ادارة هذه الولايات وفق نظم الحكومة المركزية ، لـكل هيئـة منها اختصاصها وسلطانها . وغـدت الادارة المحليـة على النحو الآتى :

البـاشا :

وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانيـة المحليـة . ووظيفته تطبيقَ قواعد الحكم العثمانى ، فيتلقى أوامر السلطان ، ويرسل الى الخزانة المـال السنوى المفروض على الولاية ، دون تدخل الحكومة المركزية فى طرق جبايتها . ويتولى الباشا كذلك رئاسة ديوان الولاية ، الذى يسـاعده فى الحكم . وهو يعين

الصناجق ويعزلهم بعد أخذ رأى الديوان وموافقة السلطان .

ويساعد الباشا وكيل يعرف باسم « الكتخدا » ، يتغير مع تغير الباشا . ومهمة الكتخدا التوقيع نيابة عن الباشا أثناء غيابه ، وتصريف بعض شئون الولاية . وتراوحت مدة حكم الباشا بين سنة وثلاث سنوات . ورمى السلطان الى عدم اطالة بقاء الولاة ، للقضاء على الحركات الانفصالية ، التى يحتمل ان تجيش بنفوس الولاة ، والعمل على الاستقلال بالبلاد التى يتولون ادارتها .

ديوان الباشا :

وحكم الباشا فى ولايته عن طريق مجلس يعرف بالديوان . ويضم هذا الديوان كبار موظفى الولاية من مدنيين وعسكريين وكذلك القاضى والصناجق ، وهم حكام الاقاليم ، أى أن هذا الديوان أشبه ما يكون بالديوان العام فى القسطنطينية . ويدعو الباشا هذا الديوان الى الاجتماع أربع مرات فى الاسبوع غالبا ، ومهمته النظر فى الشئون المالية للولاية ، مثل فرض الضرائب ، وبحث الشكاوى القضائية أو الادارية ، ولم يستطع الباشا تنفيذ أى عمل من الاعمال الهامة دون استشارة الديوان والحصول على موافقته .

الصناجق والكشاف :

وتولى أقسام الولاية — أى الصنجقيات — حكام برتبة بك أو مير لواء . وجاء بعض هؤلاء الحكام من أهل الولاية ، وذلك لتسهيل الادارة ومراقبة الباشا أيضا حتى لا يستقل

بشئون البلاد . وساعد الصناجق فى أعمالهم طبقة الكشاف ، ومهمتهم ادارة المقاطعات فى غياب الصناجق ، والمحافظه على الامن فيها وجمع الاموال الاميرية .

الحامية العثمانية :

واستقرت فى كل ولاية حامية من الجيش العثمانى ، مهمتها مساعدة الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى . وأسهم قادة الحاميات العثمانية فى مساعدة الباشا فى تنفيذ الاوامر الصادرة اليه من القسطنطينية ، وفى جمع الاموال الاميرية . واشتملت الحامية غالبا على فرق اسمها الاوجاقات ، لكل منها اختصاصها الحربى فى الدفاع عن البلاد ، والمساعدة فى تصريف الشئون المدنية كذلك .

ديوان الدفتردار فى الولايات العثمانية :

وتولى الدفتردار الادارة المالية فى الولاية . وتمتع باختصاصات واسعة ، منها جمع المال المطلوب من الولاية ، وارساله الى القسطنطينية ، ومراقبة الاقطاعات التى تمنح للجند ، ومحاسبة الباشا فى آخر مدة ولايته . وساعد الدفتر دار فى اعماله ديوان الروزنامة الخاص بتسجيل الحسابات فى الدفاتر الرسمية . وانقسم ديوان الروزنامة فى الولاية الى عدة أقلام ، يرأس كل منها موظف يحمل لقب أفندى . فتولى واحد منها تسجيل الغلال المطلوبة من البلاد ، وتولى قلم آخر تدوين المقررات اللازمة للجند من

الاغذية والمرتبات الى غير ذلك من النواحى التى تطلبها المسائل المالية .

القضاء :

وتولى قاضى العسكر فى الولاية تنفيذ القانون ، ومراقبة العمال كذلك . وترجع هذه التسمية الى اتخاذ السلطان قاض معه فى حروبه ليفصل فى المنازعات التى تنشب بين الجند . ثم دأبت السلطات المركزية على تعيين قاض فى كل ولاية ، للاشراف على المسائل القضائية الخاصة بالجند . ولكن سلطة قاضى العسكر لم تلبث ان تناولت المسائل الجنائية والمدنية لاهالى الولاية أنفسهم ، فاصبح قاضى العسكر يعين القضاة فى سائر الولاية ، وينظر فى المسائل التى تستعصى عليهم . واشترك قاضى العسكر كذلك فى حضور جلسات ديوان الباشا ، ومراقبة العمال فى الولاية ومدى التزامهم لاحكام الشريعة فى اعمالهم .

وانطبقت هذه النظم عموما على مصر وغيرها من الولايات التزامهم لأحكام الشريعة فى أعمالهم .

الحركات القومية قبل القرن التاسع عشر

انحلال الادارة الحكومية فى الدولة العثمانية :

احتفظت الدولة العثمانية بممتلكاتها الواسعة فى البلقان والاناضول ومصر والشام والعراق ، وظلت سيادتها ماثلة واضحة فى شبه جزيرة العرب وشمال افريقيا ، حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى . لكن الحكومة المركزية فى استانبول بدأت تهمل

ادارة هذه البلاد الشاسعة ، بسبب الضعف الذى طرأ على سلسلة من السلاطين الذين تولوا عرش الدولة ، وانتشار الفساد بين فرق الينى شرية والسباهية من الجيش . ذلك ان العرش العثمانى اعتراه عدد من السلاطين لم يكن لهم عمل غير الانغماس فى حياة القصور من الحريم والجوارى والدسائس ، مما أدى الى ترك شئون الدولة للوزراء فى العاصمة ، وللولاة فى الاقاليم . ثم أن جند الينى شرية اخذوا يتخلون عن تقاليدهم الحربية بانصرافهم الى الزواج ، وجمع المال ، وغدت فرقهم فى الولايات نموذجا سيئا للجشع والتدهور الخلقى .

لذا أصبح القرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة العثمانية نقطة التحول . اذ توقفت عمليات الفتح والتوسع ، وتحولت الدولة من حالة الهجوم المتصل فى مختلف الجهات الى الدفاع عن كيانها وأملاكها . ومن طلائع ذلك ماقامت به روسيا التى ادعت لنفسها مركز الصدارة فى عالم المسيحية بشرق أوروبا ، منذ استيلاء العثمانيين المسلمين على القسطنطينية ، التى عرفها التاريخ احيانا باسم روما الثانية . فاعتبرت روسيا نفسها وريثة مجد القسطنطينية ، وأطلقت على عاصمتها موسكو اسم روما الثالثة . ثم عمدت الى تقليم اظافر العثمانيين فى ولاياتهم البلقانية ، واثارة القلاقل والفتن فى مختلف ممتلكاتها الاخرى .

ثم تطلعت بعض الدول الاوروبية التى اصابت حظا وافرا من التقدم العلمى والاقتصادى الى حماية مصالحها فى بلاد الدولة

العثمانية . فأخذت تتنافس فى الحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية فى هذه البلاد ، كما أخذت تفكر فى تكوين امبراطوريات لها على حساب العثمانيين ، وغيرهم من أمم الشرق الاوسط والاقصى . وعمدت هذه الدول ، وهى البرتغال وهولندة وانجلترا وفرنسا ، الى اثارة الفتن بين أهالى الولايات ، وبث السخط على الحكومة العثمانية المركزية بينهم ، لنيل مطالبهم فى سهولة ويسر دون قيد من السلطان وحكومته فى العاصمة . واجتمعت هذه العوامل مع ازدياد شعور اهالى الولايات بسوء الادارة العثمانية ، فقامت حركات قومية عديدة ، اهمها حركة على بك الكبير فى مصر ، والشيخ ضاهر العمر فى الشام ، والثورة الوهابية فى بلاد العرب ، وعلى باشا فى ألبانيا ، وحركة اليونانيين فى البلقان .

استقلال على بك الكبير بمصر :

وضح اضطراب الادارة العثمانية فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى باختلال التوازن بين مصادر السلطة والحكم والادارة والنفوذ فى الولاية . ذلك أن الدولة العثمانية قسمت السلطة فى مصر بين الوالى العثمانى ، والحامية العثمانية ، والمماليك أصحاب البلاد قبل الفتح العثمانى لمصر ، اذ رأت السلطات العثمانية المركزية عدم القضاء نهائيا على قوة المماليك الحربية ، واستخدمت المماليك فى حكم مصر والدفاع عنها ، وجعلتهم عنصر موازنة بين الوالى ورجال الحامية العثمانية . فتولى أمراء المماليك ادارة مقاطعات مصر المعروفة باسم الصناجق ، واشتهر زعيم أولئك المماليك باسم

شيخ البلد ، ومقره القاهرة ، ويعد ثانى شخصية فى مصر بعد الوالى او الباشا العثمانى . وقام شيخ البلد بمهام الباشا عند خلعه وتصريف شئون البلاد حتى يأتى الباشا الجديد .

واستطاع أحد أولئك الزعماء المماليك ، وهو على بك الكبير ، ان يقوم بالحركة الاولى الانفصالية فى الدولة العثمانية . وهو مسيحى الاصل من جورجيا القريبة من روسيا ، اذ خطف من اهله ، وبيع فى سوق الرقيق بالقسطنطينية . ثم جاء الى مصر حيث اشتراه ابراهيم كتخذا أحد أمراء المماليك فى مصر (١٧٤٤ - ١٧٥٤ م) . وامتاز على بك بقوة الشخصية ، واشتهر بالطموح الواسع . فتطلع الى اعادة مجد سلاطين المماليك ، والاستقلال بمصر ، واستطاع أن يتغلب على منافسيه من أمراء المماليك ، وأن يتولى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ م .

وبدأت الفرصة سانحة أمام على بك للاستقلال بمصر عندما اشتبكت الدولة العثمانية فى حرب مع روسيا سنة ١٧٦٩ م ، اذ ارسل السلطان العثمانى الى على بك يطلب منه اعداد بعض الفرق الحربية للاشتراك فى الحرب . غير ان أعداء على بك اتهموه لدى السلطان بعدم الاخلاص ، وانه يعد القوة الحربية للخروج عن طاعة الدولة ، فأصدر السلطان فرمانا بعزله عن مشيخة البلد ، وهى وظيفته الرسمية . ولم يقبل على بك الخضوع لقرار السلطان ، واعلن استقلاله بمصر .

وتوجهت همة على بك بعد ذلك نحو الفتوحات فى

الخارج لينشىء الدولة المستقلة التى تطلع الى تحقيقها ، ويعيد مجد السلطنة المملوكية بالقاهرة . وسنحت له الفرصة سنة ١٧٦٩، للاتجاه الى الحجاز عند ما وفد اليه الشريف عبد الله أمير مكة يطلب منه النجدة ضد بعض منافسيه من رؤساء العرب المحليين. وفى سنة ١٧٧٠ م اعد على بك حملة كبيرة ، عهد بقيادتها الى محمد بك أبى الذهب . وأبحرت الحملة من القلزم (السويس) ، ونزلت فى ينبع بالحجاز . وانتصرت قوات محمد أبو الذهب ، واستولت على مكة ، وغدا الحجاز تابعا لمصر .

وتطلع على بك بعد ذلك الى الشام ، ودخل فى مفاوضات مع الشيخ « ضاهر العمر » حاكم عكا ، وأرسل الى روسيا المشتبكة اذ ذاك فى حرب مع الدولة العثمانية – للحصول على مساعدتها فى هجومه على الشام . وتذرع على بك فى تدبير هجومه على الشام بأن عثمان باشا والى دمشق أوى بعض المصريين الفارين عنده ، وامتنع عن تسليمهم له . وفى سنة ١٧٧١ م ارسل على بك قائده محمد أبو الذهب على رأس جيش الى الشام ، واستطاع ابو الذهب أن يستولى على دمشق أواسط هذه السنة ، وتحقق حلم على بك الكبير .

على أن السلطان العثمانى عمد الى الدس والخديعة ، فاستمال اليه أبا الذهب واغراه بمحاربة على بك الكبير . فعاد أبو الذهب الى مصر ومعه معظم الجيش ، وهزم قوات علي بك واستولى على مصر . وفر على بك الى الشام والتجأ

الى صديقه ضاهر العمر فى ابريل سنة ١٧٧٢ م . ثم أعد على بك حملة عاد بها الى مصر لمحاربة ابى الذهب . لكنه هزم عند الصالحية وأخذ أسيرا الى القاهرة ، حيث مات متأثرا بجراحه فى مايو سنة ١٧٧٣ م . وبذلك عادت مصر الى سيادة العثمانيين ، حتى انتزعها الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م من مراد بك وابراهيم بك زعيمى المماليك فى مصر وقتذاك .

استقلال الشيخ ضاهر العمر بالشام :

عاصر حركة على بك الكبير واستقلاله بمصر خروج ضاهر العمر شيخ قبائل صفد بالشام على الدولة العثمانية . اذ ساءته مفاسد العثمانيين وولاتهم فى الشام ، فاستولى على عكا وجعلها قاعدة لمشروع الاستقلال لتلك البلاد . وبدأ ضاهر العمر بتحصين عكا ، ثم أصلح قلعتى طبرية وصفد ، واستمال اليه شيوخ قبائل العرب الشاميين فى المناطق المجاورة له بفضل سيرته الحسنة .

وانتهز ضاهر العمر كذلك نشوب الحرب بين العثمانيين وروسيا ، وساعد على بك الكبير فى التخلص من حاكم دمشق العثمانى . وعندما انقلب أبو الذهب الى خدمة السلطنة العثمانية وتوجه الى مصر لحرب على بك ، أصبح الشيخ ضاهر وحده فى اقليم الشام . فحاول السلطان اثارة حكام صيدا وبيروت على الشيخ ضاهر ، لكنه استنجد بروسيا

التى بعثت بعض سفنها الحربية فضربت صيدا وبيروت بقنابل مدافعها البحرية . وبذلك توطد مركز الشيخ ضاهر ، وامتد سلطانه حتى اشتمل على أكثر أقاليم فلسطين وجزء من لبنان ، ودخلت فى حوزته صيدا وعكا وحيفا ونابلس وصفد ويافا والرملة ، كما استولى على كثير من القلاع والأماكن الخصيبة فى شمال الشام .

لكن الدولة العثمانية لم تلبث أن استعانت بمحمد أبى الذهب للقضاء على الشيخ ضاهر ، وأغرته بتنصيبه كذلك واليا على الشام ، بعد ان صار واليا على مصر بعد على بك الكبير . وفى سنة ١٧٧٥ م سار ابو الذهب على راس حملة كبيرة الى الشام ، فاستولى على يافا ، وأنزل بأهلها مذبحة ، زحف على عكا ، ودخلها بعد أن ارتكب بها كثيرا من الفظائع . ثم توفى أبو الذهب ، وتولت الدولة العثمانية القضاء على البقية الباقية من قوة هذا الرجل العنيد ، الذى احتل عكا مرة ثانية . فأرسلت القبطان حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٧٥ م لحصار عكا ، وظلت مراكب الأسطول العثمانى تضرب المدينة أربعة أيام ، حتى هرب منها الشيخ ضاهر ، واغتاله أحد جنده وهو فى طريق الهرب . وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذى ظل يتحدى الدولة العثمانية سبع سنوات متتالية .

الحركة الوهابية فى بلاد العرب :

وظهرت أثناء هذه الحركات القومية فى مصر والشام دعوة

دينية فى شبه جزيرة العرب ، تهدف الى الاستقلال بالبلاد واصلاح شئونها ، وعرفت هذه الدعوة باسم الحركة الوهابية ، نسبة الى زعيمها المصلح محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩١ م) . ونشأ هذا المصلح فى بلدة العيينة فى نجد ، ودرس الفقه على مذهب الحنابلة ، ثم سافر الى المدينة بالحجاز ليواصل دراسته ، وطوف فى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، فأقام نحو أربع سنوات فى البصرة ، وخمس سنين فى بغداد ، وسنة فى كردستان ، وسنتين فى همذان . ثم رحل محمد ابن عبد الوهاب الى أصفهان ، ودرس هناك فلسفة الاشراق والتصوف ، وعاد الى بلده أخيرا ، حيث اعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، وخرج عليهم بدعوته الاصلاحية .

وجاءت دعوته الاصلاحية الجديدة نتيجة لاحساسه بخطر المفاسد والبدع التى تفشت بين المسلمين فى مختلف البلاد التى زارها ، فدعا الى ازالة البدع والتوجه بالعبادة والدعاء الى الله وحده ، لا الى المشايخ والأولياء والأضرحة . وتأثر محمد بن عبد الوهاب فى آرائه بمذهب الفقيه ابن تيمية ، اذ درس مؤلفاته ، وأعجب بما فيها من حرية الفكر فى حدود الكتاب والسنة ، وما تنطوى عليه من دعوة الى مهاجمة المتصوفة وعدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها .

وحول محمد بن عبد الوهاب مبادىء ابن تيمية الى برنامج سياسى ، لأنه أدرك أن لا نجاح لآرائه مادام سكان بلاد العرب

خاضعين للدولة العثمانية ، التى امست تعد كل اصلاح خطرا على كيانها . وعرف محمد بن عبد الوهاب كذلك انه لا بد من سند سياسى يعزز دعوته الاصلاحية الدينية ، لأن النظريات لا تنتصر بقوتها الروحية فحسب ، بل بما يؤيدها من قوة عسكرية سياسية كذلك .

وبدت بلاد العرب ، عندما نادى محمد بن عبدالوهاب بدعوته ، اشبه شىء بحالتها زمن الجاهلية ، تتنازع القبائل فيما بينها وتسود البغضاء بين شيوخها وأمرائها . واضطهد امير العيينة محمد بن عبد الوهاب ، فانتقل الى الدرعية حيث عرض مذهبه على أميرها محمد بن سعود ، فقبل هذا الامير الدعوة الوهابية وتعاهد مع زعيمها على العمل لنصرة الدين الحق . وأوفى ابن سعود بعهده ، حتى اذا توفى سنة ١٧٦٦ م تولى ابنه عبد العزيز متابعة العمل فى سبيل الدعوة الوهابية ، فضم عبد العزيز الى نفوذه أولا اقليم نجد وهو الموطن الاصلى للدعوة الوهابية ، وأصبحت الدولة السعودية الوهابية سنة ١٧٩٠ م أقوى دولة فى قلب بلاد العرب . وفى سنة ١٧٩٣ م تطلع عبد العزيز الى التوسع، فاستولى على الاحساء واخذ يغير على أطراف العراق والشام .

وخاف أمير مكة التابع للدولة العثمانية من قوة الوهابيين الجديدة فى بلاد العرب ، ولا سيما أن الدولة العثمانية عجزت عن مواجهتها ، اذ انصرف العثمانيون وقتذاك الى حروبهم ضد روسيا التى انزلت بجيوشهم هزائم متتالية . فاشتد ايمان الوهابيين

بأنفسهم حين ترامت اليهم أنباء هزيمة الدولة العثمانيـــة أمام القوى الروسية المسيحية ، ورضاء الباب العــالى بالخضــوع لمطالب هــذه الدولة . ونسب الوهابيــون هزائم العثمانيين الى تهاونهم فى شئون الدين ، وانصرافهم الى ملذاتهم وشهــواتهم الخاصة .

وجهدت الدولة العثمانية عبثا فى القرن الثامن عشر الميلادى فى القضـــاء على الوهابيين ، بتأليب الشريف العربى والى مكة والباشا العثمانى حاكم بغداد على عبد العزيز آل سعود . فسار غالب شريف مكة سنة ١٧٩٧م على رأس حملة لحرب الوهابيين ، فانهزم هزيمة فادحة ، اضطر بعدها الى التقهقر ، وسمح والى مكة للوهابيين بالحج الى الكعبة .

وفى العام التالى ، أى سنة ١٧٩٨م ، أعد سليمان باشا والى بغداد حملة كبيرة أرسلها بقيادة وكيله ، الكخيا على باشا ، لحرب عبد العزيز آل ســـعود ، فلقيت الحمـــلة أهوالا جسيمة فى الصحراء ، من العواصف والظمأ والجوع وغارات البدو المفاجئة ، واضطر جيش العراق الى العودة الى بغداد سنة ١٧٩٩م .

وبلغت قوة الوهابيين أقصاها ، وتلاشت سلطة العثمانيين فى شبه جزيرة العرب . وبدأ الوهابيون فى مطالع القرن التـــاسع عشر ينشرون دعوتهم خارج بلاد العرب نفسها . لــكن الدولة العثمانية عمدت الى استرداد نفوذها فى الحجاز ، لأن بقاء هذه البلاد فى يد السلطان ضرورى لتدعيم اللقب الذى يحمــله وهو

« حامى الحرمين » واتخـاذه لنفسه لقب خليفة المسـلمين . ووجد السلطان العثمانى فى محمد على والى مصر عضـدا فى استرداد الحجاز ، فاصطدمت مبادىء الدعوة الوهابية بالاطماع السياسية التى نشأت فى نفس محمد على ، ورغبته فى تأسيس دولة اسلامية خاضعة له .

وبعث محمد على حملة بقيادة ابنه طوسـون نزلت فى ينبع سنة ١٨١٢ م ، وانتصرت على الوهابيين . ثم بعث محمد على أمدادا الى ابنه طوسون ، استطاع أن يستولى بها على جدة ومكة والطائف . وأخيرا ارسل محمد على ابنـه ابراهيم كذلك الى الحجاز ، واستطاع ابراهيم أن يستولى على الدرعية فى ابريل سنة ١٨١٨م ، ويأسر عبد الله قائد الوهابيين . ثم بعث به الى القاهرة حيث نقل منهـا الى القسطنطينية . وهناك أعـدم العثمانيون عبـد الله ، وبسـطوا سلطانهم مرة أخرى على بلاد العرب . غير أن الدولة السعودية الوهابيـة نهضت مرة أخرى فى القرن العشرين ، بفضل جهود الملك عبـد العزيز بن سـعود الذى اشتهر باسم طويل العمر ، وهو أبو سعود ملك الوهابيين فى الوقت الحاضر .

الحركات القومية فى البلقان :

اتفقت بلاد البلقان مع البلاد العربية فى سـخطها على الحكم العثمانى ، وانتعشت الحركات القومية بين شعوب البلقان منـذ

أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، بسبب نهضة الآداب اليونانية ، وقيام الثورة الفرنسية التى ترددت أصداؤها لا فى اليونان فحسب ، بل فى سائر بلاد البلقان . على أن أول قادة الحركات فى البلقان هو الكاتب اليونانى ريجاس (١٧٥٣ — ١٧٩٨ م) ، وهو من أهل الأفلاق (رومانيا الحالية) ، تعلم فى باريس ، ووضع أغانى شعبية حملت طلائع الثورة القومية فى اليونان . ثم اسس ريجاس جمعية سرية ساعدت على تنمية الشعور القومى ضد العثمانيين فى كثير من البلاد البلقانية . وفى أثناء اقامته ببلاد المجر وقع ريجاس فى يد البوليس بسبب وشاية بعض أعدائه ، وسلمته الحكومة المجرية الى السلطات العثمانية ، وأعدم فى بلغراد سنة ١٧٩٨ م .

وفى أيام الثورة الفرنسية تكونت جمعيات سرية أشهرها « جماعة الاصدقاء » اليونانيين ، التى أسسها اربعة من التجار فى باريس . واتسع نشاط هذه الجمعية حتى أصبحت تضم عددا كبيرا من الأعضاء وجعلت هدفها الأول طرد الاتراك من أوروبا واعادة مجد الامة اليونانية القديمة .

وجاءت الفرصة المواتية لنشوب حركة الاستقلال اليونانى عندما نجح على باشا ، والى يانينة فى الانفصال عن الدولة العثمانية ، اذ انتهز هذا الوالى أحوال الفوضى التى سادت ممتلكات العثمانيين فى أوروبا ، من جراء حروب نابليون ، وعدم استقرار الأمور على شواطىء البحر الادرياتى ، واقتطع لنفسه

امارة واسعة على شواطىء ألبانيا ، واستقل بها عن الحكومة العثمانية فى استانبول . وخضعت لهذا الوالى قبائل ألبانيا وشمال اليونان ، واصبح قوة خطيرة فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى . على ان الدولة العثمانية أستطاعت أن تقضى على هذه الحركة القومية الباكرة سنة ١٨٢٢ م . اذ بعث السلطان محمود حملة قضت على مقاومة على باشا وقبضت عليه فى يانينا ، ثم أعدمته فى نفس السنة .

وعاصرت ثورة على باشا حركة قومية فى بلاد الصرب ، وهى كذلك وليدة فساد الحكم العثمانى ، اذ خضعت ادارة بلاد الصرب لجند الينى شرية المقيمين فى بلغراد . ولم يكن لأولئك الجند من عمل سوى ابتزاز الأموال وجمع الضرائب . فاشتد حنق الاهالى فى الصرب ، ولا سيما الفلاحين ، وانتشرت بينهم الأغانى الشعبية التى تذكرهم بمجدهم القديم . ووطد أولئك الفلاحون فرصة للتدريب الحربى أثناء الحروب التى نشبت أحيانا فى بلادهم بين العثمانيين والنمسا وروسيا .

ثم جاءت أخبار الثورة الفرنسية ومبادئها حافزة لاهل الصرب على القيام بثورة ضد الينى شرية والادارة العثمانية ، والعمل على استرداد حريتهم . ووجدت حركة الصرب القومية زعيما لها فى شخصية جورج بتروفتش ، وهو المعروف باسم قره جورج ، أى جورج الاسود . وهو ممن اشترك فى حروب النمسا ضد العثمانيين سنة ١٧٨٨ — ١٧٩١ م ، وادرك حقيقة

مطالب أهلَ الصرب ، وميولهم القومية .

وبلغت ثورة الصرب أشـدها فى مطلع القرن التاسع عشر ، اذ اسـتطاع جيش الصرب بقيادة قره جورج أن يهـزم الينى شرية ، وينفصل الصرب من التبعية للدولة العثمانيـة . غير أن العثمانيين استطاعوا سنة ١٨١٣ م استعادة هذه البلاد . لكن الحركات القومية اندلعت مرة اخرى فى بلاد البلقان فى القرن التاسع عشر الميـلادى ، ونالت هذه البلاد اسـتقلالها التـام الواحدة بعد الاخرى بفضل المساعدات التى لقيتها من معظم الدول الاوروبيـة .

الفصل السادس

انتشار الاسلام فى السودان والشرق لاقصى

أثر التبادل التجارى والطرق الصوفية
فى دخول الاسلام الى السودان

التجارة بين الدول الاسلامية والسودان :

المقصود ببلاد السودان هنا جميع الأقاليم النهرية والصحراوية الواقعة جنوبى مصر والصحراء الكبرى . واهتم عمرو بن العاص بعد سنة واحدة من فتح مصر بالعلاقات الكائنة بين البلاد المصرية والسودانية منذ العصور القديمة ، ثم عقد خلفه عبد الله بن أبى سرح مع أهل البلاد الواقعة جنوبى الأطراف المصرية معاهدة اسمها البقط ، وهى كلمة لاتينية مأخوذة من أصل مصرى قديم ، ومعناها الاتفاقية . وحافظت الدول الاسلامية التى تأسست فى مصر — مثل الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك — على مختلف العلاقات القديمة بين مصر والسودان . كما نشأت علاقات تجارية اخرى بين السودان وشمال أفريقيا منذ أصبحت تونس وغيرها من البلاد الافريقية جزءا من الدولة الاسلامية . ودأب التجار المسلمون من مختلف الأقاليم على ارتياد بلاد السودان الغربى والأوسط والشرقى بمنتجات مصر وشمال أفريقيا من المنسوجات والمصنوعات

الجلدية وأدوات الزينــة ، والعودة من السودان بمنتجــاته من الذهب والملح والعاج وريش النعام والصمغ .

وعرف التجــار المسلمون أيسر الســبل والمسالك الى بلاد السودان ، ووسائل اجتيازها . واشتهرت ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال افريقيــا ومصر الى السودان ، منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة ، فالطريق الاول ممتد من تلمسان بمراكش الى تمبكتو على نهر النيجر فى الســودان الغـربى ، حيث قامت دولة الكانم ودولة البورنو وغيرهما من الدول الافريقية . والطريق الثانى يبدأ من تونس ويتجه الى كانو بالسودان الأوسط مارا بواحة غدامس .

واســتغرقت الرحلة عبر هــذين الطريقين نحــو ثمانيــة أســابيع ، وســارت القوافل خــلال معظم هــذه الأســابيع فى الصحراء الـكبرى . ومن ثم حمــل التجــار كميات وافرة من المــاء تساعدهم على اجتياز المســاحات الشاسعة الخاليــة من الآبار ، واجتنــاب الهــلاك عطشا فى الطريق . أما الطريق الثالث فامتد من مصر الى السودان الشرقى ، ولم يكن نهر النيل صالحا للملاحة فى جميع شهور السنة ، أو فى كل أجزائه . بسبب الجنادل التى تعترض مجراه . ولذا قام منذ القديم البعيد طريق هام للقوافل يبدأ من اسيوط وينتهى عند الفاشر وهو المعروف باسم درب الأربعين اشارة الى المدة التى تستغرقها القافلة فى السفر على

هذا الطريق . والواضح من تاريخ الفتح الاسلامى ان الاسلام وصل الى الاطراف الشمالية السودانية ، أى النوبة ، من هذا الطريق الثالث ، وهو الطريق المصرى ، بدليل استمرار العلاقات التجارية والحربية بين هذه الإطراف الشمالية والدول التى تعاقبت فى مصر منذ أيام عمرو بن العاص الى ايام السلطان قانصوه الغورى .

انتشار الاسلام فى الصحراء الكبرى :

ونفذ الاسلام الى بلاد السودان عبر الطرق التجارية الاخرى بعد استقرار المسلمين بشمال أفريقيا ، اذ وجد من سكان الصحراء الكبرى قوة ساعدته على الانتشار . ومن الأمثلة على ذلك قبائل الطوارق الذين اعتنقوا الدين الاسلامى وتعمقوا فى فهم شرائعه ، واستولت عليهم دوافع الحماسة لنشر هذا الدين بين جيرانهم من القبائل ، ومن الامثلة كذلك ما قام به أحد شيوخ قبيلة لمتونة فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، اذ حج الى مكة ، وبحث فى المراكز الدينية بشمال أفريقيا عن عالم يستطيع أن يقوم معه على نشر الاسلام بين بعض القبائل الصحراوية الباقية على الوثنية ، ووجد ضالته فى فقيه اسمه عبد الله بن ياسين .

ولقى هذا الفقيه متاعب فى تعليم اهل تلك القبائل مبادىء الدين ، وحثهم على التخلص من عباداتهم الوثنية القديمة ، واستخدم العنف والشدة دون جدوى ، ولم يتبعه سوى افراد قلائل . ومن ثم تحول عبد الله بن ياسين الى بلاد السودان

الغربى ، وكرس جهوده ونشاطه لنشر الاسلام بين السوادانيين الغربيين ، فرحل مع جماعة من أتباعه الى جزيرة فى نهر السنغال وبنى فيها رباطا انقطع فيه للعبادة ، حيث جاءته جماعات من أهل البلاد المجاورة واعتنقوا الاسلام على يده .

وازداد أتباع عبد الله بن ياسين يوما بعد يوم فى السنغال ، حتى بلغوا نحو ألف رجل . وفى سنة ١٠٤٢ م وجد عبد الله أن الوقت حان للخروج على رأس أولئك الأتباع لنشر الاسلام بين قبائل الصحراء الكبرى مرة أخرى ، فرحل الى مساكن هذه القبائل برجاله الذين اشتهروا باسم المرابطين ، نسبة الى الرباط الذى اتخذه هذا الزعيم فى الجزيرة الواقعة فى نهر السنغال . ونجحت جهود أولئك المرابطين فى تحويل كثير من قبائل الصحراء الكبرى الى الاسلام . وتوفى عبد الله بن ياسين سنة ١٠٥٤ م ، بعد أن بلغت دعوته الى كثير من البلاد ، وأسس أتباعه فيما بعد دولة المرابطين فى مراكش .

ومن مراكش امتد الاسلام امتدادا جديدا الى السودان الغربى على عهد يوسف بن تاشفين (١٠٦٢ م) ، وهو ثانى أمراء دولة المرابطين بمراكش . ويرجع الفضل فى ذلك الى مساعدة بعض القبائل ومنها لمتونة بالصحراء الكبرى ، اذ امتد نفوذ هذه القبيلة بالذات الى أطراف السودان ، واشتهر زعماؤها بالحماسة الدينية والتفانى فى نشر الاسلام . ففى سنة ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) أسلم ساقس ملك سونرهاى فى الجنوب الشرقى من تمبكتو ،

وأصبحت الممالك القائمة على النيجر الأعلى مركزا اسلاميا واسعا .

واتسعت مدينة تمبكتو الواقعة على طريق التجارة بين شمال أفريقيا والسودان ، بعد أن أصبحت مركزا للدراسات الاسلامية سنة ١٠٧٧ م ، اذ وفد اليها الطلاب فى أعداد كبيرة ، واجتذبتهم شهرة المدينة بحسن استقبال الوافدين اليها فى طلب التفقه فى الدين . وزار ابن بطوطة ، هذه المدينة فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، ووصف حماسة أهلها لتعلم القرآن ، ومواظبتهم على حضور صلاة الجمعة ، حتى ان المرء لا يجد له مكانا فى المسجد اذا لم يبكر فى الحضور .

وتكونت فى السودان الغربى كذلك مملكة مالى ، وهى المملكة التى أسستها قبائل المندنجو التى اشتهرت بحماستها لنشر الاسلام بين جيرانها من قبائل التكرور . وبلغت مملكة مالى ذروتها التجارية فى ذلك الوقت ، وجاءها التجار فى أعداد كبيرة من المغرب الأقصى وتونس ومصر . وزار أحد ملوكها وهو منسىموسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢ م) كثيرا من البلاد الاسلامية فى طريقه الى الحج فى مكة ، وأجزل العطاء والبذل فى الطريق حتى صارت هداياه مضرب الامثال .

وانتشر الاسلام فى السودان الأوسط منذ نشأت دولة المرابطين فى مراكش ، اذ أسلم سلطان بلاد البورنو الواقعة على الشاطىء الغربى لبحيرة شاد ، وكذلك سلطان بلاد الكانم ،

الممتدة على طول الشاطىء الشمالى لهذه البحيرة . واشتهرت بلاد الكانم بنشاطها التجارى فى السودان كله ، فازدادت شهرتها بعد اعتناقها الاسلام ، وانتشر نفوذها بين كثير من القبائل فى السودان الشرقى حتى اطراف مصر والنوبة .

وهكذا التقت اهم تيارات التوسع الدينى الاسلامى فى السودان ، واستقر الاسلام فى قلب افريقيا ، واصبح فى مفرق يساعده على الانتشار فى اتجاهات عديدة . ذلك ان التيار الاسلامى ، الواصل الى الأطراف الشمالية السودانية من مصر عن طريق درب الأربعين ، امتد الى جوف السودان منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، بسبب هجرة بعض القبائل العربية من مصر الى السودان ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، فضلا عن الحملات المتكررة التى أنفذها سلاطين الايوبيين والمماليك لتسوية علاقاتهم بمملكة دنقلة المسيحية . وتجار كردفان فى السودان الشرقى فى العصر الحاضر يفتخرون بانتسابهم الى سلالات هذه القبائل العربية . وفى بلاد كردفان وما جاورها التقى هذا التيار المصرى الاصل بالتيار المراكشى الواصل الى السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى . وفى القرن الرابع عشر الميلادى جاءت قبائل عربية أخرى من تونس الى دارفور عن طريق بلاد الواداى والبورنو ، واعتنق ملك دارفور الدين الاسلامى على يد أحد مشايخ هذه القبائل العربية ، واسمه أحمد .

أسس احمد أسرة اسلامية فى دارفور ، اذ تزوج بابنة ملك

هذه البلاد ، ثم خلفه فى الحكم ، وحكمها بعده سلالته . على أن سكان دارفور لم يتحولوا الى الاسلام الا سنة ١٥٤٦ م على عهد احد ملوكها المتاخرين واسمه سليمان . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من الميلاد ، انتشر الاسلام فى البلاد الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد ، مثل وادى وباجرمى ، وغدت مملكة وادى أكبر الممالك الاسلامية فى هذه الجهات من بلاد السودان ، منذ أسسها عبد الكريم سنة ١٦١٢ . ثم امتد الاسلام الى قبائل الحوصة ، وغدا لذلك منتشرا فى جهات واسعة من أراضى السودان .

الطرق الصوفية وأثرها فى انتشار الاسلام فى السودان :

القادرية :

وساعد طوائف الطرق الصوفية فى نشر الاسلام فى السودان . وأولها طائفة الطريقة القادرية التى تنتسب الى مؤسسها وشيخها عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى ببغداد سنة ١١٦٦ م . وانتشرت هذه الطريقة فى العراق والشام ومصر واليمن وتركيا والهند ومراكش والجزائر ، ووصلت الى السودان فى القرن الخامس عشر الميلادى عن طريق الصحراء الكبرى على يد بعض المهاجرين من واحة توات ، وهى احدى الواحات فى القسم الغربى من الصحراء الكبرى . واتخذ أولئك المهاجرون وأتباعهم من بلدة والاتا مركزا لدعوتهم ، ثم انتقلوا الى مدينة تمبكتو . وفى أوائل القرن التاسع عشر نشطت جماعة

القادرية فى كلّ من الصحراء الكبرى والسودان ، وانتشر أتباعها ، يدعون الى الاسلام بين القبائل الوثنية ، ونجحوا فى اجتذاب اعداد كبيرة الى الاسلام . وداب القادرية على ارسال النابهين من الداخلين فى الاسلام من أبناء هذه القبائل الى مراكز طريقهم ، بالقاهرة والقيروان وفاس ، ليتفقهوا فى الدين ، ويدرسوا الطريقة القادرية على شيوخها فى هذه المراكز ، وليصبحوا أنفسهم شيوخا للقادرية بين قبائلهم ، ودعاة الاسلام بين القبائل المجاورة .

واتبع أهل الطريقة القادرية وسائل سلمية فى نشر الاسلام ، وظلوا أوفياء لمبادىء المؤسس الأول للطريقة ، وهو عبد القادر الجيلانى ، اذ اشتهر هذا الرجل بحب الجار والتسامح الدينى والابتعاد عن الاضطهاد فى معاملة غير المسلمين ، على عكس صاحب الطريقة التيجانية .

التيجانية :

ظهرت هذه الطريقة الصوفية الى جانب القادرية فى مراكش ، وتنتسب الى مؤسسها أحمد بن محمد المختار التيجانى (ولد سنة ١٧٣٧ م) . واستقر التيجانى فى فاس ، وعاش بها حتى وفاته سنة ١٨١٥م . ورأى اتباع هذه الطائفة أن الجهاد واجب لنشر الاسلام ، وأن تسامح القادرية لم يثمر فى بعض الجهات الصحراوية والسودانية التى دعوا فيها الى الاسلام . ورسم الحاج عمر ، رئيس التيجانية فى السودان الغربى ، الخطوط الرئيسية لأتباعه ، فعمل أولا على تعليمهم بعض فنون الحرب ،

وأمدهم بالأسلحة ، ثم بدأ سنة ١٨٣٣ م سلسلة من الحملات لنشر الاسلام بين القبائل التى ظلت على الوثنيـــة حول النيجر الاعلى والسنغال ، ولم يلبث أن صار قوة سياسية دينية ذات سلطان كبير .

وامتد نشاط الحاج عمر الى الســـودان الأوسط ، فأخضـــع لسلطانه عددا من القبائل ، وتوفى سنة ١٨٦٥م فى احدى غزواته. وتولى ابنه أحمد شيخو شئون البلاد التى استولى عليها أبوه ، وظلت طائفة التيجانية صاحبة النفوذ الاعلى فى السودان الغربى حتى اســـتولت فرنسا على هذه البلاد فاقتصر نشــاطها على السودان الاوسط .

الميرغنيـــة :

أما طائفة الميرغانية فانتشرت فى الســـــودان الشرقى ، ولقيت نجاحا كبيرا فى نشر الاسلام بين كثير من القبائل الوثنية هناك . وترجع تعاليم هذه الطريقة الى السيد أحمـــد بن ادريس ، وهو أحد فقهاء مكة . وعاش السيد أحمد بن ادريس معظم حيـــاته فى المدينة ، وتولى التدريس بها حتى سنة ١٨٣٨ م ، فضـــلا عن تأسيسه الطريقة الصـــــوفية المعروفة باسم القدرية . وارسل السيد احمـــد بن ادريس ســـنة ١٨٣٥ م أحـــد اتبـــاعه المشـــهورين بالتقوى ، وهو محمـــد عثمان الميرغانى من أهـــل الطائف للدعوة الى الاسلام فى افريقية ، فعبر البحر الاحمر الى القصـــــير واتخذ طريقه الى اسوان ومنها الى دنقـــلة ، ولقيت

جهوده نجاحا باهرا بين الدناقلة ، اذ اجتذبتهم امانته فى تسوية الخلافات بين الناس . ومن دنقلة انتقل محمد عثمان الميرغانى الى كردفان ، حيث بدأ دعوته الى الاسلام بين الوثنيين ، واستجاب له الكثيرون منهم ، ولذا امتد مقامه هناك ببلدة بارا ، وتزوج وأنجب ابنه عثمان وغيره من الأنباء ، وصار زعيما دينيا شهيرا . ثم انتقل هذا الزعيم الى اقليم كسلا ، حيث أسس بلدة الختمية ، كما أسس الطريقة الميرغانية . وعاد أخيرا الى الحجاز وتوفى بمكة . وخلفه فى مشيخة الطريقة الميرغانية ابنه السيد محمد سر الخاتم ، وقام أبناؤه الآخرون بالدعوة الى هذه الطريقة بأنحاء السودان ، وتغلب أتباعها فى الاقاليم الشمالية والشرقية من السودان فى العصر الحاضر .

السنوسية :

أسس هذه الطريقة فقيه جزائرى سنة ١٨٣٧ م ، وهو سيدى محمد بن على السنوسى ، الذى نادى باصلاح شأن الاسلام ، ونشر العقيدة الاسلامية الصحيحة . واستطاع السنوسى أن يؤسس له دولة دينية ، يعتمد افرادها على القرآن والسنة ، وتجنب التضرع للاولياء وزيارة القبور مع الامتناع عن شرب القهوة والتدخين ، وجعل مقر هذه الدولة واحة جغبوب فى الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفى هذه الواحة تلقى دعاة السنوسية تعاليم مؤسسها ، ثم انتشروا بين قبائل الصحراء الكبرى ، ولا سيما جنوبى فزان وتيبستى ، ولم يلبثوا

ان وصلوا الى مدن السودان . واشتهر السنوسيون فى واداى بشراء العبيد ، وارسالهم الى جغبوب لتعليمهم الدين الاسلامى وأهداف السنوسية ، ثم ارسالهم الى أوطانهم مرة أخرى لنشر الاسلام بين أقوامهم . وتجلى نشاط السنوسيين كذلك فى تحويل جماعات وثنية من قبيلة بيلى الى الاسلام ، ومن السودان امتد نشاط السنوسية حتى بلغ الحبشة .

انتشار الاسلام فى الحبشة

على أن امتداد الاسلام الى الحبشة يرجع الى عهد الرسول الكريم ، اذ المعروف ان المسلمين الاولين انتقلوا الى هذه البلاد عملا بنصيحته عندما اشتد اضطهاد قريش لاتباعه . ثم امتدت الدولة الاسلامية امتدادها المعروف فى مصر ، وقامت بين مصر والنوبة منذ أيام الفتح الاسلامى لمصر المعاهدة المعروفة بأسم البقط . وربما امتد الاسلام الى الحبشة عن طريق النوبة

على ان الأرجح هو ان الاسلام وصل الى الحبشة عن طريق الجاليات العربية التى عرفت البحر الاحمر ومعابره ، واستقرت على ساحل الحبشة المقابل لساحل شبه جزيرة العرب . وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى كثر عدد الجاليات العربية فى المدن الساحلية للحبشة ، واستطاعت هذه الجاليات ان تصبح جماعة تجارية ، وأسست دولة اسلامية منفصلة عن المملكة الحبشية المسيحية فى داخل البلاد . وأدى ذلك الى تشجيع الدعاة المسلمين على التوغل داخل الحبشة نفسها لنشر الاسلام ،

فقام أحدهم ،واسمه ابوعبدالله محمد فيمنطقة أمحرة،واجتمع حوله أتباع عديدون سنة ١٣٠٠ م .

وعلا شأن المسلمين فى بلاد الحبشة وكثر عددهم حتىاضطر بعض الحكام الأحباش الى معاملتهم بالحسنى ، وسمحوا لهم بالخدمة فى أقاليمهم . على أن معظم المسلمين بالحبشة استقروا فى المنطقة الممتدة من الاطراف الشمالية حتى سنار . ثم اعتنق بعض الحكام الأحباش الدين الاسلامى ، مثل جرانى أمير عدل ، واتخذ هذا الامير لنفسه اسم أحمد ، وعمل على نشر الاسلام فى امارته ، بل بلغت به الحماسة الى السير بجيش للهجوم علىامارة من الامارات الحبشية التى لم يصلها الاسلام ، واستطاع تحويل كثير من زعماء هذه الامارات مع اتباعهم الى الاسلام .

على أن حركة انتشار الاسلام فى الحبشة اصطدمت بأطماع الاوروبيين التى أخذت طلائعها تصل الى البحر الاحمر، بعدكشف طريق رأس الرجاء الصالح . اذ تدخل البرتغاليون فى شئون الحبشة ، وساعدوا الأحباش على التخلص من سيادة المسلمين . واغار البرتغاليون على أمارة احمد جرانى سنة ١٥٤٣ م ، وأنزلوا به هزيمة لقى فيها مصرعه . غير أن أهل الحبشة لم يلبثوا ان انقلبوا على البرتغاليين ، حتى أخرجوهم من البلاد سنة ١٦٣٢ م.

واسترد المسلمون مكانتهم فى بلاد الحبشة بعدذهاب البرتغاليين، وغدت الوظائف الحكومية التى تطلب أمانة وحذقا تعهد الىأفراد

من المسلمين. ولم يلبث المسلمون ان ملكوا ناحية التجارة فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ونعموا بأملاك واسعة ، واشراف كامل على المدن الكبيرة وأسواقها ، وظفروا بنفوذ واسع فى سائر البلاد . واستطاع المسلمون من أهل الحبشة ان ينالوا ثقة اخوانهم من المسيحيين، وظلوا يعيشون فى سلام وهدوء رغم الأحداث السياسية التى مرت بها بلاد الحبشة فى العصر الحاضر .

انتشار الاسلام فى الشرق الاقصى

تجارة المسلمين فى الشرق الاقصى :

مهدت التجارة كذلك الى انتشار الاسلام فى الشرق الاقصى. اذ امتدت تجارة المسلمين الى شواطىء الهند والهند الصينية والصين منذ توغلت الدولة الاسلامية فى جوف آسيا، واشتملت على أجزاء من بلاد الهند والمناطق الاسيوية المتاخمة لاطراف الصين، وهيمنت على الطرق التجارية الرئيسية فى آسيا . ووصل التجار المسلمون منذ القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) الى الصين، وجزر الهند الشرقية ، وغيرهما من بلاد الشرق الاقصى، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الطيب وجوز الهند والورق ؛ وحمل التجار معهم الى هذه البلاد مقابل هذه السلع بعض منتجات الدولة الاسلامية مثل السكر والزمرد والقطن والاقمشة والعاج وغيرها من صناعات مصر والعراق والشام .

وجاء ذكر متاجر الشرق الاقصى منذ القرن التاسع الميلادى

(الثالث الهجرى) فى رحلة سليمان التاجر . ويتضح مما رواه سليمان أن المسلمين اهتموا بالحصول على حرير الصين،وسلكوا من أجل ذلك الطريق البرى المعروف بأسم طريق الحرير ،المار وقتذاك عبر سمرقند وتركستان الصينية ، كما ركبوا من رأس الخليج الفارسى بالعراق الى الصين كذلك من أجل الحرير . وزاد نشاط المسلمين عبر الطريق البحرى حتى أن الرحالة ابن خرداذبة كتب سنة ٨٤٦ م دليلا للتجار المسلمين لارشاد المسافرين على هذا الطريق البحرى ، الذى بدأ من الأبلة عند مصب نهر دجلة الى الهند والصين ، ووصف فيه أهم المحطات التجارية الواقعة على هذا الطريق .

وسارت السفن الاسلامية وقتذاك فى محاذاة الشاطىء الفارسى وساحل الهند حتى ملبار فى الهند ،ثم طافت حول ساحل كروماندل الى الصين، واستغرقت هذه الرحلة ثلاثة أشهر وأحيانا شهرين .

ولقى التجار المسلمون عبر الطريق البحرى السالف كل مساعدة من الجاليات الاسلامية فى موانى الهند ، وحصلوا على امتيازات عديدة من السلطات المحلية للمتاجرة فى طمأنينة وسلام ، وتأدية شعائر الاسلام فى غير مضايقة . ولم يلبث نشاط التجار المسلمين فى الصين أن أدى كذلك الى قيام جاليات اسلامية فى الموانى الصينية ، فاستقرت جماعات من التجار المسلمين فى ميناء خانفو ، جنوبى شنغهاى الحالية ، ومدينة كانتون كذلك منذ القرن التاسع الميلادى .

وأدى نمو الجاليات الاسلامية الى امتداد التجارة الى جزر الهند الشرقية . وغدت الرحلة من مدينة سيراف على الخليج الفارسى الى شبه جزيرة ملقا (الملايو) وجزيرة جاوة سهلة ميسورة . واشتهرت مدينة سيراف منذ القرن العاشر الميلادى بأنها المركز الذى تلتقى فيه جماعات تجار الشرق الاقصى بتجار فارس والعراق وبلاد العرب والحبشة ومصر . وبلغ من حب اهالى سيراف للتجارة والسفر فى بحار الشرق الأقصى أن ظل عدد كبير منهم يحيا حياته على ظهر السفن . وروى تاجر من أهل سيراف انه قضى أربعين عاما من عمره على ظهر سفينته لايغادرها .

انتشار الاسلام فى جزر الهند الشرقية :

وأدى نشاط التجار واستقرارهم فى موانى الشرق الاقصى الى انتشار الاسلام فى جهات جديدة ، ومنها جزر الهند الشرقية التى وفد اليها الدعاة المسلمون فى سفن التجار الذين أخذوا يتغلغلون بين مجموعة هذه الجزر . وتنقسم هذه المجموعة من الجزر جغرافيا الى جزائر سندة الكبرى التى تضم بورنيو وسومطرة وسليبيس وجاوة ، ثم سندة الصغرى التى تشمل بالى ولمبك وسمباوة وملقا .

ودأب التجار المسلمون الذين جاءوا الى جزر الهند الشرقية على الاندماج مع أهلها والتزوج منهم ، وتبع ذلك غالبا اعتناق الزوجات للاسلام . وكذلك سائر أفراد البيت من خدمة

وما استجد عليه من الابناء . واستقر الاسلام بذلك فى الاطراف الساحلية لجزر الهند الشرقية ، واكتسب قواعد مكنت الدعاة والحكام المسلمين فيما بعد من نشر الاسلام فى الجهات الداخلية . وتتجلى المراحل التى تم الاسلام فيها الانتشار فى جزر الهند الشرقية فى جزيرتى سومطرة وجاوة اللتين أصبحتا نموذجا الدعوة الى الاسلام فى سائر الجزر الاخرى .

انتشار الاسلام فى جزيرة سومطرة :

وبلغ انتشار الاسلام أقصاه فى الركن الشمالى من جزيرة سومطرة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وغدت مدينة أتجيه فى الركن الشمالى الغربى منها مركزا للدعوة الى الاسلام ، واسلم ملكها ، على أيدى جماعة من التجار والدعاة المسلمين ، وتبعه كثير من السومطريين . وفى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أرسل شريف مكة دعاة الى جزيرة سومطرة ، ودل الشيخ احمد ، رئيس اولئك الدعاة ، على جدارة شخصية واحساس بمسئوليته . اذ اتجه الى مدينة سمدرة على الساحل الغربى من الجزيرة ، حيث حاضرة المملكة التى تولاها من السومطرى ، وظل مقيما بها حتى اقنع الملك مراسيلو باعتناق الاسلام ، واطلق عليه لقب الملك الصالح .

واشتهر ابناء الملك مراسيلو بالتقوى والعمل على نشر الاسلام ، واشاد ابن بطوطة الذى زار سمدرة سنة ١٣٤٥ م بالملك الظاهر بن الملك الصالح ، فروى عنه انه مسلم سنى ،

غيور على دينه ، مولع بمناظرة الفقهاء ورجال الدين ، وبلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . وبلغت شهرة هذه المملكة شأوا عاليا ، حتى وفد اليها قضاة من فارس والهند .

ومن هذه المملكة الساحلية انتشر الاسلام فى سائر سومطرة ، فاعتنقه أهل بلدة لامبرى الذين اشتهروا بالاخلاق الحميدة والتمسك بآداب الدين الاسلامى، ثم الى الجهات الداخلية من جزيرة سومطرة حيث مملكة منانجكباو الواقعة أطرافها حول خط الاستواء . واشتهرت هذه المملكة بانها معقل من معاقل الهندوكية ، غير ان الاسلام نفذ الى قلوب اهل هذه المملكة ، وأصبحوا أشد الناس ايمانا به .

ثم تحمس السومطريون المسلمون الى نشر الاسلام بين جيرانهم فظلوا يعملون لذلك من تلقاء أنفسهم ، حتى هاجم الهولنديون جزيرتهم ، وكثرت الارساليات المسيحية للتبشير بالديانة المسيحية . على أن انتشار الاسلام وازدياد اعداد المسلمين فى سومطرة لم يتاثر بهذه الحركة التبشيرية والاستعمار الأجنبى الذى عملت تحت حمايته ، بل قامت فى سومطرة أخيرا نهضة دينية سياسية ، هى نواة الولايات الاندونيسية فى العصر الحاضر .

انتشار الاسلام فى جزيرة جاوة :

أشبهت جزيرة جاوة أختها سومطرة فى اعتناق الاسلام ، اذ

قامت بها منذ القرن الثالث عشر الميلادى مراكز تجارية هامة استقرت بها جاليات من المسلمين على الشاطىء الشمالى مثل جيرة وثوبان وجرسك . وخضعت معظم اجزاءالجزيرة وقتذاك لملكة ماجاباهيت الهندوكية ، على حين قامت فى الاجزاء الغربية من الجزيرة امارات صغيرة مستقلة خاضعة لملكة باجاجاران .

واشتهرت هذه الامارات بالثراء والقوة ، غير ان التنازع لم يلبث أن دب بين ابناء الاسر الحاكمة فيها ، فمهد لزعماء الجاليات الاسلامية على الساحل أن ينشروا الدين الاسلامى بين ارجاء الجزيرة .

وفى سنة ١٤٧٨ م استطاع المسلمون الجاويون ان يقضوا على مملكة ماجاباهيت ، فهرب حكامها الهندكيون الذين آثروا البقاء على دينهم القديم . وأخذ الاسلام يشق طريقه بعد ذلك الى شرق الجزيرة وغربها ، وانتشر الدعاة المسلمون بين الاهالى ، ولقنوهم التعاليم الاسلامية . ودأب بعض أهالى جاوة من الفقهاء على الذهاب الى مكة لدراسة اصول الدين ، ومن اولئك سنن كنج جاتى ، المولود بمدينة باسى بجزيرة جاوة ، اذ رحل هذا الرجل سنة ١٥٢١ الى مكة ، حيث درس فيها علوم الدين ثلاث سنوات . ثم عاد سنن بعد ذلك الى مدينة جاوة الوسطى ، ونال توفيقا باهرا فى الدعوة الى الاسلام .

وتزوج هذا العالم من أخت الملك دمك بالجزء الغربى من جاوة ، وادخل هذه المملكة فى الاسلام بمساعدة نسيبه ، وغدت جاوة

كلها بذلك ، فضلا عن سومطرة مركزا اسلاميا لنشر الاسلام فى جزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو .

انتشار الاسلام فى الملايو :

ومن هاتين الجزيرتين جاوة وسومطرة ، انتقلت جاليات اسلامية الى شبه جزيرة الملايو منذ القرن الثالثعشر الميلادى ، واستقرت اعداد كبيرة من هذه الجاليات فى الاطراف الجنوبية من شبه الجزيرة . وأسس أحفاد أولئك المسلمين فى القرن الثالث عشر مدينة ملقا ، حيث تقوم ميناء سنغافورة فى العصر الحاضر . وغدت هذه المدينة سوقا تجاريا زاهرا لوقوعه على الطريق التجارى الهام بين الشرق الاقصى (الصين) والهند وبلاد العرب . وجاء الى مملكة ملقا الدعاة من بلاد العرب ، وكثير من القضاة كذلك .

ثم امتد نشاط الدعاة المسلمين الى داخل شبه جزيرة الملايو . واستطاع الشيخ عبد الله المكى أن يدخل مملكة قويدة سنة ١٥٠١ م ، وهى احدى الولايات الشمالية بشبه جزيرة الملايو ، حيث نجح فى اقناع ملكها بترك الديانة الوثنية واعتناق الاسلام . وظهرت المساجد بعد ذلك فى الجهات الآهلة بالسكان من مملكة قويدة ، حيث جرت العادة بدق الطبول ايذانا بدعوة الناس للصلاة ، وظل الشيخ عبد الله يفقه الناس فى أمور الدين ، ويجذبهم اليه بحسن معاشرته .

ووصلت أخبار اسلام مملكة قويدة الى

مدينة أتجيـــة بســـــومظرة ، فتحمس سلطانها ، واســـتدعى شيخا من مكة اسمه نور الدين ليعمل مع الشيخ عبد الله عــلى نشر الاســـــلام . واشـــتهرت مملــكة قويدة بتمســـــك اهلها بتعاليم الدين الاسلامى ، ورعاية الشعائر الدينية من صــلاة وصوم وزكاة وحج واشتغال بعلوم الدين . وأدى انتشـار الدين الاسلامى الى بنـاء الزوايا فى قــرى مملكة قويدة ، فضـــلا عن المساجد فى المدن الكبرى ، والتحق بهذه الزوايا أعداد من الطلاب لدراسة العلوم الدينية على مشايخها .

اما سائر جهــات الملايو ، فنالت بدورها حظــا من التعاليـــم الاســـلامية بفضـــل الدعاة الذين انتشروا فى ارجائها ، وتوجــد أضرحة كثيرة مبعثرة على مسافات واسعة من ارض الملايو ، مما يدل على نشاط أولئك الدعاة . واشتهر مسلمو الملايو بالتســـامح الدينى مع المحافظــة الشـــــديدة على تعــاليم الدين . ذلك ان اختلاطهم بالهندوس والبوذيين وغيرهم م ناهل الديانات الاخرى جعلهم اكثر تسامحا من مسلمى جزر الهند الشرقية . وهيــأت لهم هذه الميزة الهامة فرصـــة لنشر دينهم بالطــرق السلمية بين أولئك الجيران .

ومن الملايو وجد الاسلام طريقه الى بلاد سيام والهند الصينية . وقام الاسلام بدور كبير فى نشر الحضارة والثقافة فى تلك الجهات من قارة آسيا ، ويحصد أهلها ثمار هذه الحضارة فى يقظتهم التى تدوى أصداؤها فى العالم فى العصر الحاضر .

انتشار الاسلام فى الصين

العلاقات الاولى بين المسلمين واهل الصين :

ودخل الاسلام بلاد الصين كذلك مع التجار المسلمين الذين سلكوا الطريق البحرى المعروف بين بلاد العرب والشرق الاقصى ، واستطاع اولئك التجار أن يحصلوا على تسهيلات كثيرة من أباطرة الصين منذ استقرارهم فى الموانى والمدن الهامة فى القرن الثامن الميلادى ، اذ منحتهم امبراطورية تانج حرية العبادة وأداء شعائر الدين ، وبنوا لأنفسهم مسجدا فى كانتون .

على أن علاقات سياسية سابقة نشأت بين الدولة الاسلامية وامبراطورية الصين فى القرن السابع الميلادى ، اذ فر يزدجرد ، آخر ملوك الساسانيين فى فارس ، من الجيوش الاسلامية الفاتحة ، وعمد الى الاستنجاد بامبراطورية الصين . غير أن الامبراطور آثر الحياد وعدم التدخل فى هذا الصراع الذى علت فيه كفة المسلمين ، واكتفى بأن بعث سفيرا الى عثمان بن عفان ليدفع الأذى عن يزدجرد . واستقبل الخليفة عثمان سفير الصين سنة ٦٥١ م ، وبعث معه عند عودته أحد قادة العرب ليرافقه فى الطريق .

ثم أدت الفتوحات الأموية فى أواسط آسيا الى اتصال بلاد الدولة الاسلامية ببلاد الصين ، فتبادل الطرفان السفارات ، ونشأت جاليات اسلامية بالبلاد الداخلية ،

وأرسلت الدولة العباسية نجدة حربية سنة ٧٥٦ م لمساعدة امبراطور من الاباطرة الصين فى تدعيم مركزه ضد منافسيه على العرش .

اثر الفتوح المغولية فى انتشار الاسلام :

تمخضت حركات المغول فى أواسط آسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى من حركة هجرة هائلة اندفع فيها المسلمون من اواسط آسيا على اختلاف قومياتهم من عرب وفرس وأتراك الى الامبرطورية الصينية . واشتغل كثير من اللاجئين المسلمين بالتجارة ، على حين احترف بعضهم الجندية ، واشتغل بعض آخر فى وظائف الامبراطورية . ثم لم يلبث أن علا شأن أولئك المسلمين ، ولا سيما بعد أن لمس خانات المغول الذين سيطروا على الصين مهارتهم فى ادارة البلاد ، ومعرفتهم بشئون التجارة . فتقلد بعض المسلمين المناصب العالية مثل الشيخ عبد الرحمن ، الذى تولى سنة ١٢٤٤م ادارة بيت المال ، وأصبح له حق تقرير الضرائب وتنظيمها فى البلاد . وأسند الامبراطور قوبيلاى خان سنة ١٢٥٩م هذه الوظيفة الى الشيخ شمس الدين عمر ، المشهور بالسيد الاجل ، وأصله من بخارى . ومات السيد الاجل سنة ١٢٧٠ م وخلف شهرة عالية للمسلمين بين الصينيين ، بفضل ما اظهره من المهارة والكياسة فى الشئون المالية ، واحترام الديانات الصينية .

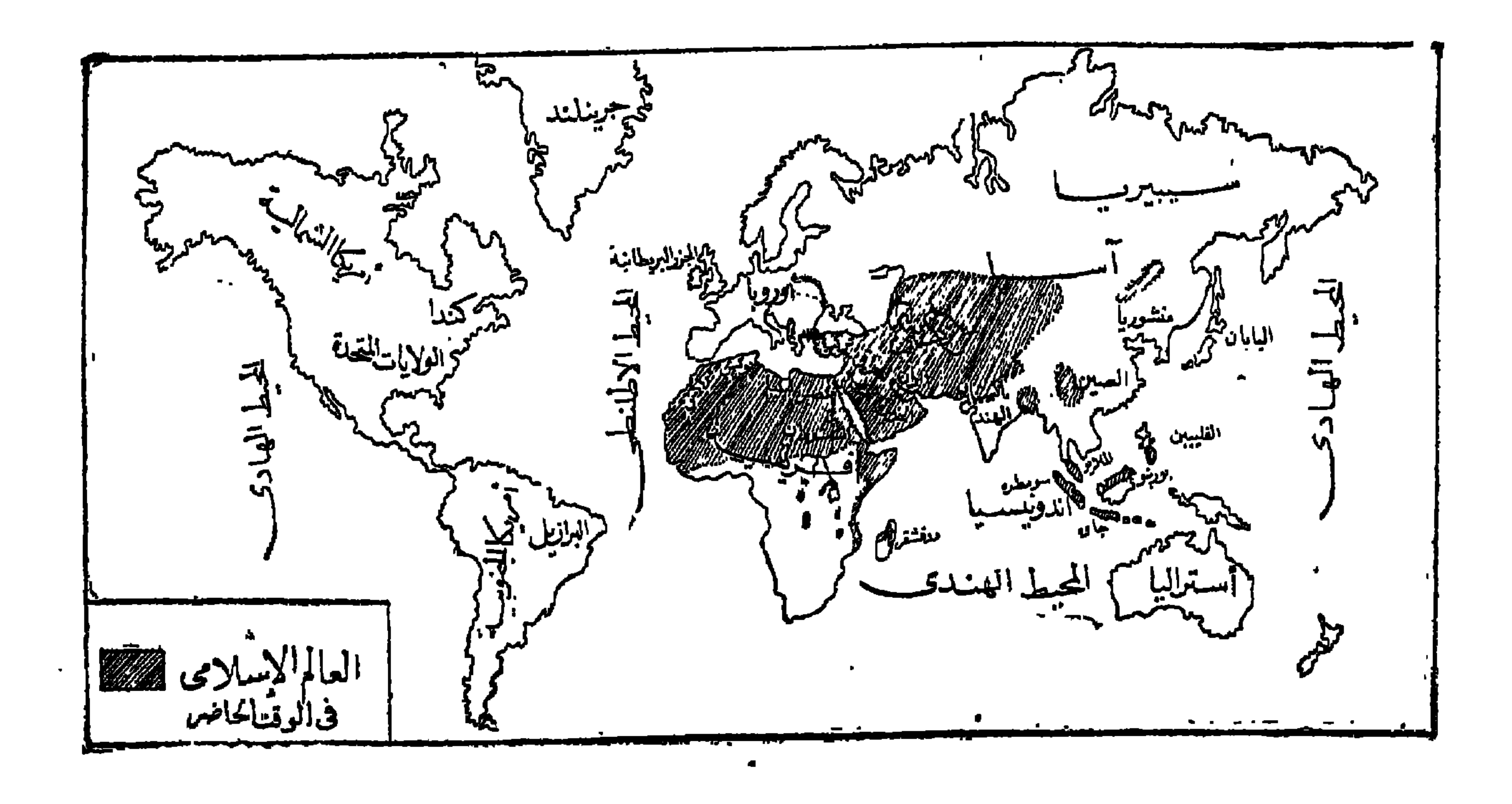
ويرجع الفضل الى أسرة السيد الاجل فى نشر الدين الاسلامى

ببلاد الصـــين ، اذ نال حفيد السيد الأجل سـنة ١٢٣٥م من امبراطور المغول امتيازات أتاحت للمسلمين أن ينشروا كلمـة الدين . واشاد الرحالة الايطالى ماركو بولو ، الذى زار الصــين على عهد قوبيلاى خان ، بكثرة الجاليات الاسلامية فى مدن الصين وانتشارها فى أقصى بلاد الصين ومدنها الشـــمالية . وذكر ابن بطوطة عن الجاليات الاسلامية فى مدن الصين ، أنه يوجد فى كل مدينـــة من المدن التى زارها حى خاص للمســـلمين ينفردون بسكناه ولهم فيه مساجدهم الخاصة .

وظل المسلمون يلقون كل عناية وتكريم من اباطرة الصين على اختلاف نزعاتهم ، وبرغم بقائهم على دياناتهم القديمة . فتمتـع المسلمون بامتيازاتهم القديمة ، وغدوا أصحاب أراض واقطاعات واســـعة . ولم يقم المسلمون بثورة أو عصـــيان ضد ظلم أو اضطهاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، أى حتى قيام أسرة مانشو التترية فى حكم الصين . ذلك أن قيام هـــذه الاسرة التترية أدى الى اضطرابات فى بعض ولايات الصين ، ونزل بالمسلمين أثناء هـذه الاضطرابات كثير من الاذى مدة قرن من الزمان . ثم أصدر الامبراطور ينج تشن سنة ١٧٣١م اعلانا بأن المسلمين من رعاياه يتمتعون بكافة الحقوق التى يتمتع بها سائر افراد الشعب ، وانهم مثـــل أبنائه تمـاما ، وأن عبـــاداتهم ومســـاجدهم موضع الاحترام . وأظهر المسلمون تقـديرهم للسلطات الحاكمة ازاء هذا الاعلان ، ودابوا على القيام بأعمـــال

خيرية كثيرة ، ولا سيما أيام المجاعات التى نزلت بالصين فى القرن الثامن عشر الميلادى . وتزوج المسلمون من الصينيات وتجنبوا تحدى جيرانهم من أهل الديانات الاخرى ، وحرصوا على ارتداء الزى الوطنى الصينى ، فلم يلبسوا العمامة الا فى المسجد فقط على حين اتخذوا سائر المظـــاهر الصينية الاخرى مثل وضـع الضفائر فى رءوسهم وارتداء الازياء الوطنية .

واستـــطاع المسلمون بذلك كسب احترام جيرانهم من أهل الصين ، كما كسبوا عطف الحكام ، ولذا صارت وظائف الدولة مفتوحة أمامهم ، فبلغوا كراسى القضاء وقيـادة الجيش وادارة الولايات بعض الاحيان . وبلغ المسلمون شأوا عاليا فى الصين فى القرن التاسع عشر الميلادى حتى ان كاتبا روسـيا زار الصـين سنة ١٨٦٧ م قال فى مذكرات زيارته أن الاســـلام يكاد يصبح الدين القومى للامبراطورية الصينية .



العالم الإسلامي
في الوقت الحاضر
جرينلند
أمريكا الشمالية
كندا
الولايات المتحدة
المحيط الهادي
المحيط الأطلنطي
البرازيل
أمريكا الجنوبية
الجزر البريطانية
أوروبا
سيبيريا
آسيا
منشوريا
اليابان
الصين
الهند
الفلبين
سومطرة
بورنيو
أندونيسيا
جاوه
مدغشقر
المحيط الهندي
أستراليا
المحيط الهادي

مذكرات

[illegible]

مذكرات

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

مذكرات

مذكرات

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مذكرات

مذكرات

مذكرات

مذكرات

مذكرات

مذكرات

مذكرات


Bibliotheca Alexandrina
0701079